جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

توحيد الأسماء والصفات

GAQD5153

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2010

المحتويات

الدرس الأول	:	مقدمة للمادة وأهمية دراسة الأسماء والصفات	٧-٣١
الدرس الثاني	:	وجوب اتباع الصحابة رضوان الله عليهم	٣٣-٥٦
الدرس الثالث	:	فهم الصحابة والسلف الصالح للقرآن	٥٧-٩٠
الدرس الرابع	:	قواعد في الأسماء والصفات على طريقة السلف (١)	٩١-١١٨
الدرس الخامس	:	قواعد في الأسماء والصفات على طريقة السلف (٢)	١١٩-١٣٩
الدرس السادس	:	التعريف بالخلف وبعض فرقهم	١٤١-١٧٦
الدرس السابع	:	الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذاهبهم (١)	١٧٧-٢٠٩
الدرس الثامن	:	الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذاهبهم (٢)	٢١١-٢٣٤
الدرس التاسع	:	التفاسير السلفية في باب الأسماء والصفات (١)	٢٣٥-٢٥٨
الدرس العاشر	:	التفاسير السلفية في باب الأسماء والصفات (٢)	٢٥٩-٢٧٧
الدرس الحادي عشر	:	نماذج من التفاسير الخلفية في باب الأسماء والصفات (١)	٢٧٩-٣١٠
الدرس الثاني عشر	:	نماذج من التفاسير الخلفية في باب الأسماء والصفات (٢)	٣١١-٣٤٣
الدرس الثالث عشر	:	الرد على الخلف في الصفات التي أولوها (١)	٣٤٥-٣٧٢
الدرس الرابع عشر	:	الرد على الخلف في الصفات التي أولوها (٢)	٣٧٣-٣٩٤
قائمة المراجع العامة	:		٣٩٥-٣٩٨

مقدمة للمادة وأهمية دراسة الأسماء والصفات

عناصر الدرس

العنصـــــــر الأول : تمهيد حول المادة ومنهج سير الدراسة فيها ٩

العنصـــر الثـــاني : بيان حال الصحابة رضي الله عنهم من العدالة ١٢

تمهيد حول المادة، ومنهج سير الدراسة فيها

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ وبعد:

١- تمهيد حول الكتاب:

مادتنا هذه تسمى بمادة "الأسماء والصفات"، وقد اخترت أن يكون الكتاب المقرر هو (المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات).

هذا الكتاب الذي جمعتُ فيه بين القواعد النظرية والتطبيقات العملية مقسم إلى خمسة أقسام، وبعده قواعد للسلف في الأسماء والصفات، ثم التعريف بالخلف، وبتاريخهم، ومتى ظهروا؟ وبذِكْر أصولهم أصلًا أصلًا، والجواب عن كل أصل حسب ما أصّلوه.

القسم الآخر: وهو ذكر المفسرين السلفيين الذين أثبتوا الأسماء والصفاتِ.

ثم القسم الرابع: وهو ذكر المفسرين الخلفيين الذين أولوا الصفات، وأخرجوها عن الإثبات.

ثم ذكر الرد على هؤلاء المفسرين الذين سلكوا هذا المسلكَ، أي: التأويل الذي هو عند السلف بمفهوم التحريف لمعاني الأسماء والصفات.

ثم ذكر مُلحقات بهذه التفاسير من كتب علوم القرآن، ومن كُتُب المفردات التي ألفت في غريب القرآن، فتعتبر ملحقات بالمفسرين، كما ذكرت الرد على

المفسرين الخلفيين، وقد اخترت أن يكون القرطبي نموذجًا لهم؛ لأنه أوسع تفسيرًا، وأكبر تفسير -فيما علمتُ- في هذا الباب.

أيضًا نتكلم على فضل السلف، ثم على قواعدهم، ثم نتكلم على الخلف، ثم على أصولهم، ثم نتكلم على المفسرين السلفيين الذين أثبتوا، ثم نتكلم على المفسرين الخلفيين الذين أولوا وحرَّفوا، ثم نذكر الردَّ على المفسرين الخلفيين.

وبهذا نكون قد أتينا على المقرر، ونحاول إن لم نتمكن بذكر الكل، فنختار من كل قسم ما تثبت به الحجة، ويثبت به البيان.

٢- الداعي إلى اختيار هذا التأليف:

لا شك أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي ينبغي أن تطرق، والتي ينبغي أن تدرس، ويعنَى بها؛ لأن القرآن الكريم نزل بها، ولا تخلو سورة بل لا تكاد تخلو آية من ذكر اسم أوصفة أو فعل من أفعال الله -تبارك وتعالى.

ولهذا أول سورة في كتاب الله بدأت بالأسماء والصفات، سورة الفاتحة نصفها الأول كلها أسماء وصفات، وهكذا بقية سور القرآن تجد فيها من الأسماء والصفات ما في أول الآية، أو في آخر الآية، أو في وسط الآية، تجد فيها اسمًا أو صفةً أو فعلًا.

فأهمية هذا الموضوع أهمية كبرى وواضحة، وبدراسة هذا التوحيد -أي: توحيد الأسماء والصفات- يتعرف المسلم على ربه المعرفة الحقيقية.

ولهذا كانت أدعية رسول الله ﷺ أكثرها بأسماء الله وصفاته، بل كلها توسلات بأسمائه وصفاته إليه تبارك وتعالى، فالله -تبارك وتعالى- جعل كتابه هو المرجع، وجعل نبيه ﷺ هو المبين عنه، فما جاء عن الله وجاء عن رسول الله، فهو

العلم، وهو الخير، وهو الفضل، وهو الذي ينبغي أن نعض عليه بالنواجذ، وما سوى ذلك ينظر إن وافق كتابًا أخذنا به، وإن وافق سنةً أخذنا بها، وإن عارض كتابًا أو عارض سنةً أو عارض فهمًا للسلف الصالح رددناه وتركناه.

فلهذا -إن شاء الله- دراستنا ستكون على ما رسمنا في هذا الكتاب، وفي هذا المرجع الذي هو عبارة عن نقول كثيرة عن أئمة السلف، وعن كتبهم، ومصادرهم.

ويجد الطالب الذي يرجع إلى كتاب (المفسرين بين التأويل والإثبات في آيات الصفات) يجد في هوامشه كل المراجع والمصادر، فلا يحتاج أن نذكر -في عرض الدروس- معلومة مصدرها ومرجعها، فالمصدر والمرجعُ هو في هامش الكتاب.

والكتاب مطبوع الطبعة الأولى طبعة دار طيبة، والطبعة الثانية مؤسسة الرسالة، والطبعة الأولى كانت في مجلد، والطبعة الثانية كانت في أربع مجلدات؛ لأن أضفنا إضافاتٍ من المفسرين الذين لم نذكرهم في الطبعات الأولى، وكذلك أضفنا قواعدَ وفوائدَ كثيرة لم نذكرها في الطبعات السابقة.

فلهذا يعتبر هذا الموضوع هو موضوع مهم، ولا سيما إذا ارتبط بدراسة لأهم مصادر التشريع وهي كتاب الله، ثم المفسرون الذين لهم صلة بهذا الموضوع، والذين فسروا كتابَ الله، فلا أقل من أن يعرف الإنسان من المفسرين ممن ذهب على طريقة السلف وممن ذهب على طريقة الخلف؛ حتى لا يقع الإنسان في انحراف في باب الأسماء والصفات، فالانحراف -كما قلت- في هذا الكتاب هو ليس كالانحراف في غيره؛ لأن هذا باب المعتقد ينبغي أن يكون عند المسلم صافيًا، وليس فيه عقر، ولا فيه غبش، ولا فيه ضبابية، ولا فيه أي شيء، فينبغي أن يكون المعتقد واضحًا عند الإنسان في كل أبواب المعتقد، ولا سيما في

باب الأسماء والصفات، فإن لها عَلاقةً بالذات المقدسة، والذات المقدسة ينبغي أن نتعامل معها تعاملًا خاصًّا في كل أوامرها ونواهيها، وفي كل أسمائها وصفاتها.

فلا ينبغي لنا أن نتعمد الانحراف، أو نحاول التعمق، أو نتلمس الخطأ، أو نذهب مع الخطأ، فكل هذه أمور في هذه الباب ينبغي أن تكون ممنوعةً، ولا يجوز لأحد أن يلجها، ولا أن يدخلها.

فلهذا كل معلومة يعتمدها الإنسان في باب الأسماء والصفات ينبغي أن تكون موثقةً، وأن تكون واضحةً عنده، وليس فيها أي شك، ولا أي رَيْب، ولا ما يعكر صفوَ ذلك.

هذه هي المقدمة التي أحببتُ أن أضعها بين يدي الطلاب؛ حتى يكونوا على بينةٍ من أمرهم، وأن يأخذوا الأمرَ بجد، وأن لا يتهاونوا مع هذه المادة المباركة التي تعرفهم بخالقهم وبربهم -تبارك وتعالى- أحسنَ تعريفٍ. وكان رسول الله ﷺ يقول: ((اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب فهو عندك)).

بيان حال الصحابة رضي الله عنهم من العدالة

الحافظ ابن حجر رحمه الله ذكر في مقدمة (الإصابة) ذكر فصلًا نفيسًا، وأحببت أن أنقله للطلبة والقراء وللدارسين لأن ربط الناشئة بفضائل الصحابة وبمنهاجهم أمر أساسي في ديانة الإسلام؛ لأن الذي لا يرتبط بالصحابة ويعرف لهم فضلهم وحقهم فينحرف ونربط علمنا وفهمنا بهم ولا ننحرف عن ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في (الإصابة): "اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة" لا شك أن الصحابة هم عدول، القصد بالعدول يعني الذكية.

فالصحابة لا يحتاج فيهم إلى أن نبحث تراجمهم في كتب الجرح والتعديل عند ابن أبي حاتم أو في (تاريخ البخاري) مثلًا أو في (تاريخ ابن معين) أو في كتب المتأخرين (تهذيب الكمال) أو (تهذيب التهذيب) للحافظ ابن حجر أو (تقريب التهذيب) أو (الخلاصة) للخزرجي أو (ميزان الاعتدال) للذهبي، هذه كلها يعني لا يحتاج فيها إلى الصحابة لأن الصحابة عدول، الصحابة نذكر مناقبهم ومآثرهم وجهادهم وفضائلهم ودعوتهم وفهمهم وعلمهم فقط.

لكن من بعد الصحابة يقع التفتيش لأن وقع في التابعين الخطأ، ووقع الكذب، ووقعت أمور كثيرة يعني الصحابة؛ يعني تبرءوا منها، ونزهوا عنها.

وهذا الحافظ رحمه الله يذكر أن أهل السنة اتفقوا على أن الجميع عدول؛ لأن الله تعالى عدلهم، قال: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح: ١٨] قال: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] آيات القرآن كثيرة يعني في الصريحة والمفهوم منها أن المقصود بها هم الصحابة.

وأحاديث الرسول ﷺ كثيرة فيهم، سنذكر بعضها، فلهذا لا يحتاج في ذلك إلى يعني بحث عن أحوالهم في الرواية، فهم عدول، ولا يتكلم فيهم إلا معتزلي، ما تكلم فيهم إلا رءوس الاعتزال ورؤوس الرفض والحاقدون على الإسلام من المستشرقين والمرتدين والزنادقة.

أما أهل السنة فيوقرونهم ويعظمونهم ولا يبحثون في أحوالهم من حيث الجرح والتعديل، فهم عدول.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد ذكر الخطيب في (الكفاية) فصلًا نفيسًا في ذلك فقال -أي الخطيب-: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨] وقوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]" ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ بقية الآيات، وهي كثيرة.

ثم قال بعد ذلك: "هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتمد قوله" ثم روى بسنده إلى أبي زرعة الرازي: "قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن الرسول حق والقرآن حق، وما جاء به حق، وإن ما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة". انتهى من (الكفاية).

هذه كلها نقول، وفي الهامش رقم الصفحة من (الكفاية في علم الرواية).

إذن نلاحظ أن العلماء -رحمهم الله- تتابعوا على ذكر مناقب الصحابة وعلى ترسيخ عدالتهم وأنهم عدول، ثم هذا الختم الذي ختم به الخطيب في هذا الفصل من كلام أبي زرعة كلام عظيم.

وينبغي أن نقف عنده قليلًا لتوضيحه والاستحسان له، فقد كتبته على بعض مؤلفاتي في الهامش ردًّا على الذين يتكلمون في صحابة رسول الله؛ لأننا للأسف كثر الآن حتى في أهل السنة ومن ينتمي إلى أهل السنة من يتكلم في صحابة رسول الله مع الأسف، لا يرون في ذلك غضاضة، ولا يرون فيه إشكال، أما نحن فلا نرى، كما قال أبو زرعة ﵁ قال: "إذا رأيت الرجل يتنقص أحدًا من أصحاب رسول الله فاعلم أنه زنديق" هذه كلمة من محدث إمام كبير سبر النصوص وسبر القرآن، وسبر الرواية وسبر الأسانيد، ويعلم ما يقول، ليس هو يعني من كلام أي كان الذي قال، يقال عنه إنه لم يتدبر كلامه فيقول ما يريد.

هذا أبو زرعة إمام من أئمة العلم وأئمة الرواية فإذا قال كلمة، فاعلم أنها موجودة وأن لها المدلول، لا شك أن انتقاص الصحابة من الزندقة لأن الذي لا يعترف بالفضل لهم، والذي لا يرى الحق لصحابة رسول الله، والذي يتجرأ أن يقع فيهم، لا شك أنه زنديق، يعني خرج عن واقع المسلمين وعن أصولهم الذي تدعوه إلى احترام الصحابة وإلى تقديرهم وتبجيلهم، فلا شك أن هذه زندقة أي بمعنى انحراف لأنه قد تكون الزندقة بمعنى الردة، وقد تكون الزندقة من باب التغليظ بمعنى الانحراف فهنا بمعنى انحراف عن الصدق.

ثم علل أبو زرعة كلامه بقوله: "وذلك أن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة" لأنه الطعن في الصحابة طعن في القرآن وطعن في السنة؛ لأن القرآن وصل إلينا بطريق الصحابة، والسنة وصلت إلينا بطريق الصحابة، فالأسانيد كلها في القرآن، وفي السنن كلها ترجع إلى صحابة رسول الله.

فالآن الروايات المروية في القرآن والمروية في السنن كلها جاءت عن الصحابة، وكل ما يخرج عن الصحابة فلا قيمة له في هذا الباب، لا للسنة ولا للقرآن، ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ: "وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة".

يعني كلامه واضح وأن هذه المقاصد لهؤلاء الزنادقة هو إبطال القرآن وإبطال السنة لأنهم إذا وقعوا في الصحابة فما لنا رواية، الذي يقع في ابن مسعود، كيف نروي القراءة فيه؟ الذي يقع في علي كيف نروي القراءة فيه. الذي يقع في زيد بن ثابت كيف نروي القراءة فيه؟ الذي يقع في أبي بن كعب كيف نروي القراءة فيه؟ الذي يقع في أبي هريرة، وفي عائشة، وفي أنس، وفي جابر، كيف نروي حديث رسول الله؟ فالذي يقع في هؤلاء، سواء في باب رواية القرآن ورواية السنة وقع في الدين كله.

تعريف السلف، وما جاء في فضلهم:

القسم الأول: التعريف بالسلف وما جاء في فضلهم:

كلمة السلف لها مدلول لغوي ولها مدلول شرعي:

فبالنسبة للغة: المعاجم يعرفون السلف أنهم كل من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل، هذا كلام صاحب (لسان العرب). ثم قال: ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين بـ"السلف الصالح".

وأنهم من حيث الشرع: أنهم هم أول من تلقى هذا الدين عن رسول الله ﷺ فهم أعرف الناس بهذا المنهج، وأعرف الناس بالمعتقد، وأعرف الناس

بالأحكام، وأعرف الناس بالأخلاق، وأعرف الناس بكل فضيلة في العلم والعمل.

فالسلف هم الصحابة والتابعون ومن تبعهم إلى يوم الدين؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

نجد الكتب التي تكلمت على هذا الموضوع كثيرة جدًّا وسأختار من بين هذه الكتب بعض شروح (رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي) وهي رسالة قيمة طيبة صدرت بمعتقد السلف، صدرها أبو محمد بن أبي زيد بمقدمة مهمة.

فابن أبي زيد رحمة الله ذكر في رسالته "واتباع السلف الصالح"؛ الشارح - القلشاني- ذكر كلامًا طيبًا في تعريف السلف، قال رحمه الله: وهو الصدر الأول، الراسخون في العلم، المهتدون بهدي النبي ﷺ الحافظون لسنته، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، وانتخبهم لإقامة دينه، ورضيهم أئمة الأمة، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وأفرغوا في نصح الأمة ونفعهم، وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم، قد أثنى الله عليهم في كتابه بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

في هذا التعريف قال رحمه الله: "السلف الصالح: وهو الصدر الأول"، يعني: سمعوا من النبي ﷺ وجالسوه، وسافروا معه، وجاهدوا معه، ودعوا بدعوته، وصلوا خلفه، ورافقوه في كل صغيرة وكبيرة، يزيد بعضهم عن بعض؛ فمنهم المكثر ومنهم المقل؛ لكن كلهم من الصدر الأول، وبعضهم سمع من بعض، وكانوا يتناوبون على مجلس الرسول ﷺ حتى الذي لا يستطيع أن يجلس يسأل من جلس؛ حتى يستفيد؛ فكانوا يتناوبون على مجلس الرسول ﷺ كما ذكر البخاري رحمه الله في "كتاب العلم".

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "المهتدون بهدي النبي ﷺ": هذه علامة خير وعلامة سعادة: أن يهتدي المسلم بهدي النبي ﷺ فلهذا كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمبالغته في تتبع سننه ﷺ كان يتتبع آثار الرسول ﷺ ويحاول الاقتداء به حتى في الأمكنة وفي المكان الذي نزل به ﷺ لشدة حرصه على تتبع الرسول، وكذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكذلك أنس، وكذلك الخلفاء الأربعة الأئمة المعروفون؛ فهدي الرسول ﷺ كان أغلى عندهم من أي شيء من أنفسهم ومن أبنائهم وأقاربهم.

الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ من هذا وألف كتابه القيم الذي سماه (زاد المعاد في هدي خير العباد)، وما أحسن أن يهتدي الإنسان بهدي النبي ﷺ.

قال: "الحافظون لسنته": لا شك أن الصحابة كانوا أحفظ الناس للسنن بل هم المصدر وكل سند لا يصل إلى الصحابة لا خير فيه؛ فهم حفظوا السنن علمًا وعملًا، ومنهم المكثرون، ومنهم المتوسطون، ومنهم المقلون، على حسب ما تيسر لهم؛ فأنس، وأبو هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، هؤلاء كانوا من المكثرين أحاديثهم كثيرة فاقت الألف حديث؛ ولهذا هؤلاء يسميهم علماء الحديث المكثرون، المكثرون لرواية الأثر أبو هريرة يليه ابن عمر -كما قال العراقي في ألفيته- ومنهم المتوسطون الذين نقلوا الحديث وحفظوه، ومنهم المقلون الذين ليس لهم إلا الحديث والحديثين؛ لكنهم بمجموعهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حفظوا سنة رسول الله؛ فما في دواوين السنة من أحاديث؛ فهي بأسانيدها إلى صحابة رسول الله؛ فهم الحافظون لسنة محمد ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "اختارهم الله لصحبة نبيه": لا شك أن الصحابة جيل مختار ومصطفى وليس له نظير لا في السابق ولا في اللاحق، لا يعرف لنبي من الأنبياء

مثل صحابة رسول الله: لا لأصحاب موسى، ولا لأصحاب عيسى، ولا لأصحاب إبراهيم، ولا من ذكر وممن لم يذكر؛ فما نعلم ولا يعلم غيرنا أفضل من صحابة رسول الله وأخير وأحسن وأصفى؛ فهم مصطفوْن؛ فالله -تبارك وتعالى- اصطفاهم واختارهم؛ ولهذا ضربوا المثل في كل فضيلة: في العلم، في الحفظ، في الجهاد في التضحية... في كل فضيلة تجد الصحابة أسبق الناس إليها.

"وانتخبهم لإقامة دينه": فهم أقاموا الدين أحسن قيام، جماعة وفرادى في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته؛ فلما تولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه قال: إني توليت فيكم وليست بخيركم؛ فإن استقمت فأعينوني؛ وإن أعوججت فقوموني؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكان أحسن من أقام دين الله أبو بكر إمام الجهاد الذي رد الردة، وكان له ما كان رضي الله عنه.

قال الشارح رحمه الله: "ورضيهم أئمة الأمة" لا شك أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا في الإمامة بمكان، وهم أحق بالإمامة، وما من أحد منهم إلا وهو إمام، فإن تكلمنا على أبي بكر، فهو الإمام في كل فضيلة منذ أسلم إلى أن توفي -رضي الله عنه وأرضاه- فما من مواقفه رضي الله عنه إلا وتجده فيه إمام.

وهكذا الفاروق عمر رضي الله عنه فهو الإمام، وإذا ذكر أمير المؤمنين فلا ينصرف إلا إلى عمر، فهو أمير المؤمنين، وهو الإمام المبجل، وهكذا عثمان ذو النورين رضي الله عنه فهو إمام القرآن وإمام الخير وإمام البذل وإمام الكرم، وإمام العلم وإمام الفتوى، وهكذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبو الحسنين، فهو إمام العلم وإمام الجهاد وإمام الفضل وإمام الكرم وإمام الإسلام، فما من فضيلة إلا وتجد لعلي رضي الله عنه فيها يد.

وهكذا إن تكلمنا عن الصحابة واحدًا واحدًا ذكورًا وإناثًا نجدهم فيهم الإمامة، عائشة رضي الله عنها أمنا أم المؤمنين إمامة العلم، وإمامة الرواية، وإمامة الحديث،

وإمامة الفقه وإمامة الفتوى، فهي إمامة في العلم، وفي كل خير، إمامة العبادة، فالشاهد أن الصحابة هم أئمة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فهذه الآية أصدق ما تصدقه على الصحابة -رضوان الله عليهم- فهم الأئمة لما وصفوا به من صبر ويقين.

ثم قال رحمه الله: "وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده" لا شك أن الصحابة في هدي النبي ﷺ جاهدوا أنواع الجهاد، جاهدوا باللسان -رضي الله عنهم وأرضاهم- وجاهدوا بالمال، وجاهدوا بالنفس، وهم أئمة الفتوح، وأئمة الغزوات، وأئمة التسابق إلى كل خير.

وهذا ابن عمر وأسامة بن زيد يتشوفون إلى الجهاد في صغر سنهم، ويقفون على رؤوس أصابعهم حتى يختاروا للجهاد، فالجهاد كان دأبهم، وليس هو فقط جهاد السيف والمقابلة، بل جهاد العلم والعبادة والحفظ والبيان والدعوة، فهم مجاهدون بكل معاني الجهاد، سواء قلنا الجهاد الأكبر أو الجهاد الذي يسمى بالجهاد الأصغر وكله جهاد، فهم مجاهدون.

"وأفرغوا في نصح الأمة" لا شك أن الصحابة أنصح في كل شيء، والنصح هو الصدق في القول وفي الفعل، هذا هو النصح أن تصدق في قولك وفعلك بآبائك وأبنائك وذريتك وأصدقائك وتلامذتك وأمرائك وأمتك، ولكل من لك به صلة في العلم والعمل.

فلا بد أن تفرغ جهدك في نصح الأمة في كل ما ينفع الأمة، فالصحابة -رضوان الله عليهم- أفرغوا نصحهم للأمة؛ يعني كل ما عندهم من خير بذلوه، وما تركوا وسيلة من الوسائل إلا وفعلوها في نصح الأمة، فركبوا البحار وقطعوا الفيافي والقفار في وقت الشدة ووقت الحاجة، وذهبوا مع رسول الله ﷺ في الحر والقيظ إلى آخر الجزيرة العربية لمقابلة الروم.

ووصفهم الله تبارك وتعالى في سورة التوبة بأوصاف كثيرة، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى- فيهم آيات كثيرات يبين فضلهم، وقال فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] يعني هذا أعظم الأوصاف، وما نالوا هذا الوصف إلا بهذا النصح وهذا الجهاد، فهم أفرغوا في نصح الأمة، فتركوا لهم العلم، وتركوا لهم الأمصار المفتوحة، وتركوا لهم الدولة الإسلامية النموذجية، وتركوا لهم الرجال وتركوا التابعين أئمة العلم الذين يعني ما يبلغ أحد منزلتهم ولا شأوهم، ولو كان ما كان، فالصحابة يعني التابعون لهم نتيجة الصحابة، فكيف يعني تجد عروة بن الزبير! وكيف تجد القاسم بن محمد! وكيف تجد سعيد بن المسيب! وكيف تجد محمد بن شهاب الزهري! وكيف تجد سليمان بن يسار! وهكذا لو تتبعنا فقهاء التابعين وحفاظ التابعين لوجدنا من ذلك ولله الحمد يعني العدد الكثير، وما هو إلا يعني نتاج الصحابة الكرام، رضي الله عنهم وأرضاهم.

ومن فتح الروم ومن فتح فارس ومن فتح هذه الفتوحات التي هي الآن تحت؛ يعني مظلة الإسلام، وتحت دائرة الإسلام، وإن أخذ ما أخذ، فالله تبارك وتعالى قدير على إرجاع الأمور إلى نصابها، فأفرغوا في نصح الأمة ونفعهم.

يقول رحمه الله: "وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم" لا شك أنهم بذلوا أنفسهم في مرضاة الله وأخلصوا لله، وما كان قصدهم أن ينالوا ذهبًا أو فضة أو ينالوا رئاسة أو جاهًا أو منصبًا، فهم كانوا في مقاصدهم -رضي الله عنهم وأرضاهم- يقصدون المرضاة مرضاة الله، أن يرضى الله عنهم، وقد رضي عنهم، كما سبق في الآيات: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:

[١٨] فما نووه نالوه، وما قصدوه وجدوه -رضي الله عنهم وأرضاهم- فبذلوا أنفسهم في مرضاة الله.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد أثنى الله عليهم في كتابه بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]" هذه الآيات كلها في مدح الصدر الأول، في مدح الصحابة، ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقية الآيات.

وقد يعني تبين مما سبق أن هذا الشارح شارح الرسالة يرى أن السلف هم الصحابة، وكلامه في ذلك واضح، وما علقناه على ذلك يعني هو واضح، ووافقه شراح الرسالة، والذين لهم حواشي عليها، وكلامه يعني بالوصف وبالتنزيل هو على صحابة رسول الله،

فما ذكره شارح الرسالة القلشاني، وافقه أيضًا أبو الحسن، وافقه العدوي والغزالي أيضًا في (إلجام العوام عن علم الكلام) وكذلك الباجوري في شرحه على الجوهرة وغيرهم ممن ذهب إلى أن السلف هم الصحابة والتابعون وتابعوهم.

ثم لعلنا نقول بأن مرجع هؤلاء في تعريف السلف وبإلصاق هذا الاسم بالصحابة هو الحديث الذي في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته)) قال إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

فهذا الحديث واضح في خيارات القرون الأولى؛ أي قرن الصحابة ومن بعده، وكل من تقدم إلا وله فضيلة تقدم.

لكن هنا ملاحظة ينبغي أن نذكرها في هذه الفضائل، وهو أنه لا بد أن يوافق الرأي الذي يقال أو يعني الحكم الذي يقال أن يوافق ما كان عليه الصحابة،

ويوافق السنة، ويوافق الكتاب، وإلا فعاش في عهد النبي ﷺ عاش المنافقون في عهده وبعده، فالقصد أن الموافقة مطلوبة ولا بد أن تكون، فلهذا ليس كل من عاش في عهد الصحابة أو من بعدهم، وكان له رأي يؤخذ بالقبول على أنه من هذا الزمن، فلا بد أن يوافق الرأي أن يوافق الصحابة أن يوافق الكتاب ويوافق السنة، ويوافق الفهم الصحيح الذي كان عليه صحابة رسول الله ﷺ.

فهذه ملاحظة لا بد منها، وقد أشار إليها بعض المتأخرين، وأشار إليها يعني محمود خفاجي في كتابه (العقيدة الإسلامية بين المعتزلة وبين السلفية) وأشار إليه شارح يعني (لوامع الأنوار) وأشار إليه غير واحد، فالرأي لا بد أن يوافق ما كان عليه الصحابة، وما كان عليه الكتاب، وما كان عليه السنة، فلا بد أن يوافق الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم.

فقصدي أن الموضوع ما قلنا فيه من كلام، فلا بد أن يوافق الرأي والصحابة والتابعين رضي الله عنهم فقصدي أننا إن شاء الله نمشي في ذكر فضائل الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح.

ما ذكره ابن حجر في (الإصابة):

قال الحافظ في (الإصابة) رحمه الله: "والأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة كثيرة، من أدلها على المقصود ما رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: ((الله الله في أصحابي! لا تتخذوهم غرضًا، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم، فقد آذاني، ومن آذاني، فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)).

لا شك أن هذا الحديث بعد الذي ذكره الحافظ، وهو واضح يعني فيه مقال في سنده، وعلى الهامش تتبع طريق الحديث لمن شاء أن يتتبعه، "الله الله في أصحابي" يعني الحث على التمسك بصحابة رسول الله والنهي عن اتخاذهم عن عرض في السب والشتم.

"ومن أحبهم فبحبي" أي فبحب رسول الله ﷺ أحبهم. "ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم" يعني حب الرسول ﷺ معلق بحب الصحابة، أو حب الصحابة معلق بحب رسول الله، وبغض الصحابة علامة على بغض رسول الله.

"ومن آذاهم، فقد آذاني" يعني الذي يقع في صحابة رسول الله يقع في رسول الله، "ومن آذاني، فقد آذى الله" لا شك أنه هو عبده ورسوله وحبيبه ونبيه.

"ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه" الله -تبارك وتعالى- لا يعجزه شيء ولا يسبق، فهو القدير، وهو القادر، ومن أوصافه تبارك وتعالى الجبار، ومن أوصافه المتكبر، فهو العظيم في كل شيء، ولهذا الإنسان يتحرى أن يقع في الصحابة أو يقع في التابعين أو يقع في العلماء الأخيار الأفاضل الذين لهم سبق، والذين لهم قدم صدق في العلم، وفي الدعوى، وفي التأليف، وفي الكتابة، سواء كان العلماء السابقون أو العلماء المعاصرون أيضًا الذين لهم فضل في الخير، وفضل في الدعوة، ونشر السنة ونشر التوحيد، فالذي يقع فيهم يقع في شر كثير والعياذ بالله.

ولهذا قال الأئمة: لحوم العلماء مسمومة، والذي يقع في العلماء أي في علماء التوحيد وعلماء السنة والذين لهم فضل على الأمة لا شك أن الله -تبارك وتعالى- ينتقم منه، فإما أن يتوب، وإما -أن والعياذ بالله- أن يختم له بسوء، فيخاف ممن يقع في أهل العلم من سوء العاقبة والعياذ بالله، وسوء الخاتمة.

وما رأينا أحدًا في هذا الزمن وقع في الأخيار والفضلاء إلا وأصابه ما أصابه من انتكاسة ومن انحراف ومن غير ذلك من الآفات التي يتعرض لها الذي يقع في العلماء، ولهذا لا تجد من وقع في الصحابة لا تجد له يعني راحة، ولا تجد له عرض، ولا تجد له يعني أي استقرار لا في الأول ولا في الآخر، الذي يقع في الصحابة أشر وأشر، والذي يقع في خيرة الأمة، وفي خيرة العلماء أشر وأشر، فلا تؤمن عاقبته.

وهذا الواقع يحدثنا من بداية التاريخ إلى يومنا هذا، فالخوارج لم يستقر لهم أمر والمعتزلة أيضًا الذين وقعوا في الصحابة لم يستقر لهم أمر، وكذلك الرافضة الذين وقعوا في الصحابة لم يستقر لهم أمر، فمن حين لآخر تأتيهم زلازل، وتأتيهم كربات والعياذ بالله، فليحذر المسلم ألا يقع في صحابة رسول الله، ولا فيمن دونهم من الأخيار والفضلاء من الأئمة من مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والزهري، وسالم والثوري والأوزاعي، وغيرهم من أهل الفضل والعلم، ومن المعاصرين من المشايخ الفضلاء الذين عرفوا بنصرة السنة ونشرها.

وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله: "الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعًا، قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠] -الحسنى هنا هي الجنة- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي الجنة ﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]" قال رحمه الله أي ابن حزم: "فثبت أن الجميع من أهل الجنة، وأنه لا يدخل أحد منهم النار؛ لأنهم المخاطبون بالآيات السابقة".

هذا هو رأي أبي محمد، وهذا استنتاجه، وهذه هي أدلة أدلته على أن الصحابة كلهم من أهل الجنة، فنرجو الله أن يجعلنا معهم، وأن يجعلنا على طريقتهم حتى ندخل معهم الجنة.

ثم قال الحافظ رحمه الله بعد كلام نقله عن المازري المالكي، وهو كلام لا أرتضيه، وسأحذفه إن شاء الله من الكتاب لأنه لا يعجبني، قال رحمه الله: "وقد كان تعظيم الصحابة، ولو كان اجتماعهم به ﷺ قليلًا مقررًا عند الخلفاء الراشدين وغيرهم".

ثم ذكر رحمه الله بسنده الحافظ ابن حجر إلى أبي سعيد الخدري، قال: "كنا عنده - أي: عند أبي سعيد- وهو متكئ فذكرنا عليًّا ومعاوية، فتناول رجل معاوية - يعني: الحاسدون لمعاوية والحاقدون عليه كثيرون مع الأسف حتى بعض من أهل السنة الذين يعني لهم علاقة بالرافضة، ولهم علاقة وغالبهم من غلاة الصوفية- فاستوى أبو سعيد الخدري جالسًا، ثم قال: كنا ننزل رفاقًا مع رسول الله ﷺ فكنا في رفقة فيها أبو بكر، فنزلنا على أهل أبيات يعني مكان، وفيهم امرأة حبلى أي حامل، ومعنا رجل من أهل البادية، فقال للمرأة الحامل: أيسرك أن تلدي غلامًا؟ قالت: نعم. قال: إن أعطيتني شاة ولدتي غلامًا، فأعطته فسجع لها سجاعًا، ثم عمد إلى الشاة فذبحها وطبخها، وجلسنا نأكل منها، ومعنا أبو بكر، فلما علم بالقصة قام فتقيأ كل شيء أكل. قال: ثم رأيت ذلك البدوي أوتي به عمر بن الخطاب، وقد هجا الأنصار، فقال لهم عمر: لولا أن له صحبة من رسول الله ﷺ ما أدري ما نال فيها لكفيتكموه، ولكن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم".

إذًا يستفاد من القصة أن عمر رضي الله عنه توقف في عقاب هذا الرجل لكونه من صحابة رسول الله وإلا لو لم يكن لفعل عمر رضي الله عنه ما فعل.

فذكر هذه القصة المستفاد منها أن عمر لم يعاقبه لأنه من الصحابة، ولو كانت هذه الصحبة صحبة قليلة، كما ذكر الحافظ ابن حجر، أما ما في القصة من عجائب ومن فوائد، فنتركها للقراء يستخرجون منها ما يشاءون، ففيها فضيلة أبي بكر وتوقيه لأكل الحرام، وفيها يعني ما فعل هذا الرجل من أخطاء، وأن هذا الذي فعل لا يجوز له أن يفعله، وفيها ما ذكرت.

الشاهد: أن الصحبة كان لها شأن عند الصحابة، فينبغي أيضًا أن نرث هذا التعظيم، وهذا التقدير الذي كان عند صحابة رسول الله لصحابة رسول الله، وألا نخوض فيما وقع من الصحابة من حروب التي اجتهدوا فيها ووقع منهم ما وقع، فهذه الأمور يجب ألا نقع فيها، وأن نكف عنها وألا نلوث ألسنتنا بها فنوقر الصحابة ونعظمهم، كما فعل عمر ﵁ بهذا البدوي الذي له صحبة، وفعل ما فعل في القصة، وأتي به أيضًا بعد ذلك إلى عمر، لكن عمر ﵁ عظم صحبة رسول الله ﷺ فكف عنه وتركه.

ثم رأيت ذلك البدوي أتي به عمر بن الخطاب، وقد هجا الأنصار، فقال لهم عمر: "لولا أن له صحبة من رسول الله ﷺ ما أدري ما نال فيها لكفيتكموه، ولكن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وما نزال مع (الإصابة) للحافظ ابن حجر ﵀ في النقل عنه في فضائل السلف الصالح، قال ﵀: وتواتر عنه ﷺ قوله: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم)) قال باز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: ((أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل)) وروى البزار في مسنده بسند رجاله موثقون من حديث سعيد بن المسيب عن جابر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين)).

وقال عبد الله بن هاشم الطوسي: حدثنا وكيع قال: سمعت سفيان يقول في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] قال: هم أصحاب محمد ﷺ. والأخبار في هذا كثيرة جدًّا فلنقتصر على هذا القدر، ففيه كفاية؛ يعني مقدمة (الإصابة).

يعني الشاهد: أن الحافظ ابن حجر رحمه الله ذكر في هذه المقدمة من فضائل الصحابة ما تطمئن إليه القلوب، ويتبين بأن هؤلاء السلف لهم ميزة خاصة، يتميزون بها عن غيرها؛ لورود هذه النصوص الكثيرة، ولقول أصحاب رسول الله ﷺ في بعضهم هذه الأقوال المباركة.

ما ذكره ابن عبد البر في (مختصر فتح البر):

فلهذا نضيف أيضًا ما ذكره الحافظ ابن عبد البر رحمه الله كما في كتابنا (مختصر فتح البر) هذا مختصر (التمهيد) يعني: (فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر) هذا الكتاب رتبناه على الأبواب الفقهية، وهو مرتب على شيوخ مالك رحمه الله رتبه الحافظ ابن عبد البر، وقد أضفنا له ما زاد به (الاستذكار من الآثار) يعني التي شرحها الإمام ابن عبد البر حتى يكتمل عمل ابن عبد البر في (شرح الموطأ) فجمع بين المرفوع وبين الآثار في الترتيب وسيطبع قريبًا إن شاء الله، يعني الجمع بين (التمهيد) و(الاستذكار).

الإمام ابن عبد البر ذكر عند هذا الحديث، الحديث هو: مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين)) هذا هو كلام الرسول ﷺ في زيارته للمقابر، هذه السنة، "السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" هذه

هي السنة، لا كما يفعله الجهال والمخرفون من الاستغاثة بأهل المقبرة، وتقبيل لجدرانها وأعتابها والتمسح بأخشابها وخرقها، وما فيها من كساوى التي وضعها المخرفون والمنحرفون، والتي هي رجوع بالأمة إلى العهد الجاهلي، والعياذ بالله.

فالموتى هم يدعى لهم، ويستن بهم سنة رسول الله، لا يجوز للإنسان أن يفعل أفعالًا يعني تكون وسيلة للشرك أو هي شرك، من استغاثة ومن طواف ومن دعاء، ومن صلاة، هذه كلها أفعال شركية، ومن ذبح، هذه كلها أفعال شركية، فالنبي ﷺ كان هديه وسنته السلام على أهل المقبرة، والدعاء لهم، هذه هي سنته.

ثم قال ﷺ: ((وددت أني قد رأيت إخواني)) الصحابة كانوا يتابعون الرسول ﷺ في كل ما يقول يفهموه، فبمجرد ما قال هذه الجملة سألوه: "ألسنا بإخوانك؟" قال: ((بل أنت أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد)) هذا كلام الرسول ﷺ أي الرسول فرق بين الصحبة والإخوة، فأصحابه الذين رأوه وآمنوا به وصدقوه وماتوا على ذلك، هؤلاء هم الصحابة.

ما إخوانه؟ هم الذين آمنوا به بعد ما مات ﷺ وجاءوا بعده بما فسره في هذا الحديث، هذا تفسيره صلى الله عليه وسلم.

قال ﷺ: ((وأنا فرطهم على الحوض)) أي سابقهم قالوا: "يا رسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: ((أرأيت لو كانت لرجل خيل غير محجلة في خيل دهم! ألا يعرف خيله؟!)) قالوا: "بلى يا رسول الله" قال: ((فإنهم يأتون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، فلا يذادن رجل عن حوضي، كما يذاد البعير الضال، أنادي ألا هلم، ألا هلم، ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: فسحقًا فسحقًا فسحقًا)) هذا الحديث في

الموطأ، وفي مسلم، وفي الإمام أحمد، وفي أبي داود، وفي النسائي، وفي ابن ماجه حديث صحيح معروف.

والشاهد الذي أتينا به ونقلناه من الحافظ ابن عبد البر هو الفرق بين الإخوة وبين الصحبة، فأصحابه هم الذين كما سبق الذين رأوه وآمنوا به وماتوا على ذلك هؤلاء هم الصحابة، أما الذين بعده، فهم إخوانه.

وهنا الحافظ ابن عبد البر رحمه الله ناقش نقاشًا واسعًا في هذا الموضوع في المقارنة بين الصحابة وبين الذين جاءوا في القرون المتأخرة وآمنوا بالنبي ﷺ وتمسكوا بسنته، وتمسكوا بدينه في زمن الغربة، وحاول الإمام ابن عبد البر رضي الله عنه أن يكشف هذه المقارنة ويبين بأن الأجر الذي يناله الذي يعيش في زمن الغربة يكون مثل أجر الصحابة؛ لأن الغربة هي الغربة، فغربة الصحابة في زمن الإسلام لأن الصحابة أيضًا أدركوا الغربة في ذلك الزمان وأن الإسلام كان غير موجود، فأسلموا وتحدوا الغربة التي كانوا فيها، وتابعوا النبي ﷺ على ما جاء به من إسلام.

فكذلك زمن الفتن الذي يضعف فيه الإسلام ويقل، وتكثر فيه الفتن، وتكثر فيه الملاهي، ويكثر فيه القتل والهرج، ويمتلئ -كما في زماننا هذا مع الأسف يعني- فيه من الفتن ما الله به عليم، فتن الشهوات وفتن الشبهات فاجتمعت، فالذي يتمسك الآن بالسنة، ويقيمها ويكون عليها ويدعو لها، ويرى هي المنهاج الصحيح، فلا شك أن له شبه بصحابة رسول الله ﷺ في الأجر والفضل.

فلا شك أن الصحبة لا يعدلها شيء، وتبقى دائمًا مكانة الصحبة خاصة بصحابة رسول الله، لكن في الأجر والفضل لأن الحافظ ابن عبد البر رحمه الله يعني استدل بأدلة كثيرة لا أحب أن أسردها في هذا اللقاء أو في هذه الحلقة؛ لأن إذا أردنا أن نسرد كل شيء ربما قد يطول المقام ويطول المقال أيضًا، فيطول المقال ويكثر،

فلهذا نقول يعني بأن كلام ابن عبد البر فيه وجاهة طيبة، وفيه مقارنة ممتازة، ولمن شاء أن يرجع إليها في هذا الموضوع أو في الأصل الذي هو (فتح البر) فلا بأس يستفيد العلم، والإنسان حريص على الاستفادة وعلى الخير.

فأعظم الحياة هي التي تمضي في طلب العلم في المعرفة، وفي الخير في التعرف على السنة وعلى الكتاب، وعلى أقوال السلف، هذه أحسن حياة، ولا شك إذا اقترنت بالمحبة وبالخير وبالتطبيق وبالعمل وبالدعوة إلى ذلك.

فهذا البحث قد استفاض منه فيه الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ فمن شاء رجع إليه، فهو بحث فيه بعض الطول، وأحببت أن ألخصه بكلامي وأحيل على الكتاب.

وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم

عناصر الدرس

العنصـــــــر الأول : الصحابة أحق بكل فضيلة وبكل خير، وأولى بالاقتداء وبالاهتداء ٣٥
العنصـــــر الثــــاني : الحث على التمسك بالسنة وبهدي السلف الصالح ٤٩

الصحابة أحق بكل فضيلة وبكل خير، وأولى بالاقتداء وبالاهتداء

ننتقل إلى شيء آخر، وهو ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه (إعلام الموقعين) فقد ذكر فصلًا نفيسًا في هذا الموضوع، في قضية الرد على الذين يزهدون في أقوال الصحابة، وفي فتاواهم، ويرجحون أقوال المتأخرين عليهم في باب الفروع.

فقد انتصر رحمه الله في كتابه للصحابة، وعنون بقوله: "وجوب اتباع أقوال الصحابة"، هذا في باب الفروع، أما في باب الأصول فأمر لا جدال فيه، وهذا أيضًا لا جدال فيه؛ لأنهم أدرى وأعلم وأقرب وأقدر؛ لأنهم تميزوا بميزات لا يضاهيهم فيها أحد.

وابن القيم رحمه الله وهو الإمام المبجل؛ في هذا البحث الطيب المبارك في دفاعه عن السلف قسمه إلى قسمين، أو قسم الأدلة التي يستدل بها إلى قسمين: أدلة أخذها من كتاب الله، وأدلة أخذها من سنة رسول الله، وأدلة من كلام السلف الصالح أنفسهم، فلذا نذكر المهم من الأدلة؛ لأنا إذا أردنا أن نذكرها كلها يطول بنا المقام، ويطول المقال؛ فلذا نحاول أن نختصر قدر الاستطاعة، وأحيل الطالب على قراءة البحث بنفسه والتنعم في دلالته، فإن هذا الأصل أصل مهم، وهو أن يتركز في ذهن الطالب يتركز فيه حب السلف، ويتركز فيه حب فهمهم، وأن فهمهم وسيرتهم هي التي يجب علينا أن نتمسك بها ولا نقدم عليها غيرها مهما كان القائل أو الفاعل، فهم المقدمون المبجلون أي السلف الذين في مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بداية سرده للأدلة بدأ بقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن صاحب يس على سبيل الرضاء بهذه المقالة، والثناء على قائلها والإقرار له عليها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وكل واحد من الصحابة لم يسألنا أجرًا، وهم مهتدون بدليل قوله تعالى خطابًا لهم: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فهذا الاستنتاج الذي استنتجه الإمام ابن القيم في مشابهة الصحابة لهذا الناصح الذي هو رجل نصح قومه في اتباع المرسلين، وكانت نصيحته مجردة من الأجر الدنيوي، فكان مخلصًا في نصيحته لقومه.

وكان سبق أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا من المخلصين في دعوتهم وفي علمهم، وفي جهادهم، وفيما كانوا عليه، وكلما ذكرنا عن الأمم السابقة من فضائل، فهذه الفضيلة لهذا الرجل الذي ذكره الله في سورة يس، فالصحابة أحق بكل فضيلة وبكل خير، وبكل تقدير، فهذه هي الآية الأولى التي ذكرها الإمام ابن القيم في ترجيحه لأقوال الصحابة على غيرهم.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ آية ثانية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان: ١٥] فكل من الصحابة منيب إلى الله، فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم، وقد قال: ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] فهذه هي الآية الثانية، فالصحابة من أكبر المنيبين، ومن أكبر التوابين ومن أكبر الراجعين إلى الله تعالى.

﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] لأن هديهم امتداد لهدي النبي ﷺ فالخطأ في حقهم قليل ونادر ولا سيما في باب المعتقد، فهو منعدم ولا وجود له، فالسلف والصحابة كانوا على هدي تام في باب المعتقد، ففارقوا عبادة الأصنام وفارقوا الجاهلية بكل صورها، ورجعوا إلى الله رجعة كاملة، فهم أولى بالاقتداء وبالاهتداء.

أكرم الله الصحابة بالعلم وشهد لهم به وبالصدق:

ثم ذكر آيات أخرى نختار منها على سبيل الاختيار قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦] وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦] وقوله: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ [المجادلة: ١١] واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد أي إلى العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبًا.

هكذا يقرر الإمام ابن القيم رحمه الله أن الله تعالى أكرم الصحابة بالعلم وشهد لهم به، وهذا العلم كما قال: العلم الذي كانوا عليه هو علم النبوة والرسالة، ليس هو الفيزياء والكيمياء أو التكنولوجيا المعاصرة، لا بل كانوا على علم النبوة والرسالة علم السماء، وكان علمهم موافق لأقوالهم وأفعالهم، فعلمهم مصحوب بالصدق والأمانة.

وما ذكره رحمه الله من أوصافهم بالعلم متناثر في كتاب الله، فقرن شهادتهم بشهادته، وقرن شهادتهم بشهادة الملائكة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ثم قال الإمام ابن القيم رحمه الله من الآيات التي سنختارها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أئمة أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء وإن وافقهم في غيره لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من معية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا، كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب بحيث لا يستحق اسم المؤمن، وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق من أجله أن يقال معه شيء من الإيمان إلى آخره.

القصد هو أن كل مدح في القرآن لأوليائه فالصحابة أولى به، والسلف أولى به، فالذي يفارقهم في أي جزئية من الجزئيات، فقد فارقهم في تلك الجزئية، وإن كان فراقه لهم لا يتصف بالمفارقة الكاملة، ولكن كل مفارقة بحسبها، فلهذا ينبغي لنا أن نكون مع الصحابة في كل ما سطروه في المعتقد ولا نفارقهم فيه قيد أنملة.

فلهذا هذه الآية التي جاء بها الإمام ابن القيم من أوضح الآيات في مصاحبة أصحاب رسول الله ومن جاء بعدهم من السلف الصالح: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فهم الصادقون في علمهم في عقيدتهم في أحكامهم، فيما فعلوه وقالوا به رضي الله عنهم.

الصحابة خيرة الخلق بعد الرسل والأنبياء:

قال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: ووجه الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارًا عدولًا، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم.

إذًا هذا الاستنتاج الذي استنتجه الإمام ابن القيم من هذه الآية في استباقها على الصحابة لا شك أنهم هم الوسط أي بمعنى أنهم خيرة الخلق بعد الرسل والأنبياء، وهم كما سبق حازوا كل الفضائل التي تفرقت في غيرهم من الأمم، فمن بداية التحاقهم بالنبي ﷺ وهم في صدق وأمانة وجهاد ودعوة، ولهذا وصفوا بالعدول وأنهم العدول، والعدل لا يمكن أن يكون عدلًا إلا إذا خلا من الموانع التي تدفع عنه العدالة.

والعدل دائمًا يصلح أن يكون شهيدًا يشهدوا على غيرهم لا في المال ولا في الجنايات، ولا في غيرها، فالشهادة شرطها العدالة، والرواية في الحديث شرطها العدالة، فهي من شروط الرواية، والصحابة في قمة العدالة، فهم أئمة العدالة، فلهذا يصلحون لأن يكونوا شهداء على الأمم السابقة التي مضت، والتي خلفت أنبياءها ورسلها، فإذا كانوا كذلك فهم شهداؤنا، وهم عدولنا، فبهم نقتدي وبهم نأتم، وعنهم نأخذ، وبمناهجهم نستفيد، وعلى طريقتهم نسير.

الآية الأخرى قوله تعالى ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا

لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨] فأخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء هو افتعال، من اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون، الذين اجتباهم الله إليه وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين، ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم ويفردوه بالمحبة والعبودية ويختاروه وحده إلهًا معبودًا محبوبًا على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه، وآثرهم بذلك على من سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه إذ يسر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج ألبتة؛ لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم، ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة، إلى آخره.

المهم إن الإمام ابن القيم رحمه الله يعني أخذ هذه الآية وبدأ يتكلم عليها، ويطبقها على الصحابة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨] فأمرهم بهذا الأمر، وفعلوا -رضي الله عنهم وأرضاهم- فجاهدوا في الله حق جهاده، فما تركوا لحظة، ولا تركوا يعني جهدًا إلا بذلوه، فبذلوا أموالهم وبذلوا مهجهم، وبذلوا ذريتهم، وبذلوا أقاربهم، وكل ما عندهم بذلوه.

فمن كان وصفه هكذا بالجهاد بكل صوره، فلا شك أنه أولى بالاتباع وبالاقتداء في باب المعتقد، وفي غيره، وهذه الأوصاف التي جاءت في الآية أوصاف كبيرة

وعظيمة ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ [الحج: ٧٨] يعني صريحة في الاختيار والاصطفاء، وأن الله -تبارك وتعالى- جعلهم خيرة خلقه بعد النبيين، وجعلهم صفوته، وجعل لهم هذه المكانة التي ليست لغيرهم، ولا يمكن أن ينالها غيرهم.

فكلمة الاجتباء كلمة دقيقة، وهي دقيقة لغة وشرعًا، فيها دقة في اللغة، وفي الشرع، فاجتباء الله تبارك وتعالى لهم هذه علامة خير وعلامة سعادة وعلامة حب ومحبة، فلهذا أفرغوا جهدهم في نصحه تبارك وتعالى، وكانت عبوديتهم له تبارك وتعالى خالصة، ولم يؤثر عنهم ﷺ مخالفة في هذا الباب، فهم العباد حقًّا، وهم الذين اتبعوا الرسول ﷺ واتبعوا ملة أبيهم إبراهيم.

وبأعمالهم الطيبة وبجهادهم المتميز يسر الله دينهم، وفتح لهم كل أبواب الخير، وما تعسر أمر من أمور إلا ويسره الله، ومن تتبع سيرة رسول الله وسيرة أصحابه بعد وفاة الرسول ﷺ وجد ذلك ماثلًا في الغزوات، وفي الوقائع، وفي سفرهم، وفي حضرهم، وفي مرضهم، وفي صحتهم يريد ذلك ماثلًا لا غبار عليه، فهم أهل اليسر وأهل التيسير وأن الله -تبارك وتعالى- يسر أمرهم.

ومن كان على وصفهم كان له من النصيب ما لهم بقدر ما يكون الإنسان في اقتفاء أثرهم وطريقتهم بقدر ما تتيسر أموره ويتيسر دينه، وتنحل عقده، وتنفرج كربه، فالتيسير مربوط بهذه الأوصاف التي ذكرت في الآية.

فهم جاهدوا، وهم مختارون من الله -تبارك وتعالى- والله تعالى يسر لهم هذا الدين، وأمرهم أن يتبعوا ملة أبيهم إبراهيم وأبينا جميعًا، وهو أبو الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهو تحقيق التوحيد؛ لأن إبراهيم عليه السلام إذا ذكر يذكر تحقيق التوحيد، ونبذ الشرك بكل صوره صغيره وكبيره، ظاهره وباطنه، رجائه

وتمسحه وطوافه واستغاثته، وشد الرحال إلى المقبورين والموتى، فالقضاء على الشرك بكل وسائله.

حديث: ((خير القرون القرن الذي بُعثت فيه...)):

قال ﷺ: "ما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح من وجوه متعددة أنه قال: ((خير القرون القرن الذي بُعثت فيه، ثم الذي يلونهم، ثم الذي يلونهم))، هذا الحديث -كما أشرت- هو في الصحيح، وكل الأحاديث في الهوامش مخرجة بتخريج مفصّل بتوسط بدون إفراط ولا تفريط.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "فأخبر النبي ﷺ أن خير القرون قرنه مطلقًا، وذلك يقتضي تقديمهم في كل باب من أبواب الخير، وإلا لو كانوا خيرًا من بعض الوجوه فلا يكونون خير القرون مطلقًا".

الشاهد: أن الإمام ابن القيم يبين في هذا النص الحديثي أن الخيرية التي ارتبطت بهم ينبغي أن تكون كاملة، في العلم، في المعتقد، في السلوك، في الانضباط، في الجهاد، في كل فضيلة من الفضائل، ولا شك أن الخيرية إذا ارتبطت في العلم وفي إصابة الحق في الأحكام، وكذلك في العقائد والأصول، فلا شك أن هذه فضيلة واضحة، فهذه الخيرة في هذا القرن الذي أخبر عنه الرسول ﷺ لا شك أنها تلازمه في كل أجزائها ولا تفارقه، وهذا الذي كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، فإصابتهم للحق واضحة، وإجماعهم على المعتقد وصحته أمرٌ واضح، فلا نعلم أن صحابيًّا خالف في اسم أو صفة أو في غيره، فلا يُؤثر عنهم في باب الأسماء والصفات ما يخالف القرآن أو ما يخالف السنة أو ما يخالف اللغة العربية الصحيحة، لم يؤثر عن أحدهم أنه أوّل صفة من الصفات أو تمحل في اسم من

الأسماء أو شيء من ذلك، فهم ﭫ كانوا على قلب رجلٍ واحد في باب المعتقد.

ولهذا قال ﵀ الإمام ابن القيم في آخر التعليق فقال: ومعلومٌ أن فضيلة العلم ومعرفة الصواب أكمل الفضائل -كلام عظيم- وأشرفها، فيا سبحان الله! أي وصمة أعظم من أن يكون الصدّيق أو الفاروق أو عثمان أو عليّ أو ابن مسعود أو سلمان الفارسي أو عبادة بن الصامت وأضرابهم ﭫ قد أخبر عن حكم الله أنه كيت وكيت، في مسائل كثيرة وأخطأ في ذلك.

ولم يشتمل قرنُهم على ناطق بالصواب في تلك المسائل، حتى جاء من بعدهم فعرفوا حكم الله الذي جهله أولئك السادة، وأصابوا الحق الذي أخطأه أولئك الأئمة، ﴿ سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴾ [النور: ١٦]، هذه مقارنة، وذكر أفاضل الصحابة وخيرتهم ممن كانوا هم المصادر والمراجع في ذلك الزمان، في توجيه الأمة وفي تدريسها وفي تعليمها وفي ترتيبها وفي حكمها، وفي كل شيء فيه، إنهم أبو بكر وعمر وعثمان وابن مسعود ومعاذ وسلمان وعلي بن أبي طالب، وأضرابهم ممن كانوا مصادر الأمة في ذلك الزمان، فلا يليق أن نتهم الصحابة في تخلّفهم عن حكم من الأحكام، ونخطّئهم ونأتي إلى المتأخرين ونصوّب رأيهم، يعني ماذا لو جاء واحد الآن، وأراد أن يقارن الجبائي ويقارن واصل ويقارن أبو هاشم ويقارن النظام مثلًا، ويقارن ويقارن بأساطين الصحابة أو بأساطين التابعين مثل سالم أو القاسم بن محمد أو سليمان بن يسار أو عطاء أو سعيد بن المسيب أو محمد بن شهاب الزهري أو غيرهم، لا يمكن أن تكون المقارنة بأي وجه من الوجوه، لا علمًا ولا عملًا ولا فهمًا ولا حكمة.

فلهذا ما أشار إليه العلامة ابن القيم في هذا الاستنتاج هذا فقه كبير، وينبغي أن يكون نبراسًا ومنهجًا لكل من يطلب الحق، لكل سلف يريد الحق، فأنت قارن

بين أئمة الاعتزال وأئمة الخوارج وأئمة الرافضة وأئمة المقلدة وأئمة وأئمة، ترى الفرق والبون شاسع كما بين السماء والأرض -كما قالوا- الفرق بين الثرى وبين الثريا، فالثريا عالية والثرى هي الأرض، وبينهما ملايين المسافات ملايين الكيلو مترات، فلا مقارنة، فإذًا هذه الخيرية دائمًا تبقى ثابتة، وبقدر ما يتقدم العالِم ويقرب من عهد النبوة يكون الصواب عليه أغلب، وهذا شيء مشاهد لمن تتبع كتب الطبقات، فمثلًا الإمام مالك أو الإمام أحمد أو الإمام الشافعي لو أردنا أن نقارن بينه وبين متأخري أصحابه، مثلًا الذين جاءوا فيه بعد القرن -مثلًا- العاشر أو الحادي عشر كم نجد من الفرق، أين (الموطأ) الذي كلها نصوص مرفوعة وآيات وآثار صحيحة عن السلف الصالح، من كلام لا دليل عليه ولا أثر فيه ولا حديث فيه كلام مجرد.

هذا الإمام مالك إمام الأئمة انظر إلى كتابه (الموطأ) من أوله إلى آخره تجده تسعة وتسعون في المائة من النصوص المرفوعة ومن الآثار المرفوعة، وهناك تعليقات للإمام مالك عليه السلام يبين أحيانًا تجاه النص، ولكن (الموطأ) مليئًا بالنصوص، وإذا ذكر كتب الحديث فيكون (الموطأ) هو أول ما يذكر، فهو يذكر في الترتيب الزمني قبل البخاري، وهو يذكر مع البخاري ومسلم في الطبقة الأولى من الكتب الصحيحة.

فالشاهد: أن ما ذكره الإمام ابن القيم في توجيهه لهذا الحديث، أي: خير القرون القرن الذي بعث فيهم رسول الله، ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم؛ يعني بالترتيب، بقدر ما يتقدم الزمان ويقرب من النبوة بقدر ما يكون الصواب والحق في الغالب، هو الصواب.

فالشاهد: أن الصحابة والسلف الصالح، لهم خصوصيات لا يبلغها أحدٌ معهم، فالرسول ﷺ سطّر لهم هذه المنقبة وجعل قرنهم هو خير القرون، الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، شك في الرابع.

هذا النص الأول، وهذا تعليق الإمام ابن القيم، وهذا توجيهه لكلامه عليه السلام وللنص المذكور.

حديث الرسول ﷺ في ترتيب الرسول مع الصحابة مع النجوم:

فنضيف إليه نص آخر من السنة أيضًا: ذكر الإمام ابن القيم حديث أبي موسى الأشعري، قال: ((صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، فقلنا: لو جلس حتى نصلي معه العشاء، فجلسنا فخرج علينا فقال: ما زلتم ها هنا؟ فقلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: أحسنتم وأصبتم، ورفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)).

قال عليه السلام: ووجه الاستدلال بالحديث أنه جعل نسبة أصحابه إلى من بعدهم كنسبته إلى أصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء، ومن المعلوم أن هذا التشبيه يُعطي من وجوب اهتداء الأمة بهم ما هو نظير اهتدائهم بنبيهم ﷺ، ونظير اهتدائه للأرض بالنجوم، وأيضًا فإنه جعل بقاءهم بين الأمة أمنةً لهم وحرزًا من الشر وأسبابه، فلو جاز أن يخطئوا فيما أفتوا به ويظفرُ به من بعدهم لكان ظفرنا بالحق أمنةً للصحابة وحرزًا لهم، و هذا من المحال.

التعليق على النص:

ما ذكره ابن القيم تعليقًا على حديث الرسول ﷺ في ترتيب الرسول مع الصحابة مع النجوم، فالصحابة كان أمنتهم هو الرسول ﷺ، وهدايتهم بالرسول،

والصحابة أيضًا أمنة لمن بعدهم من التابعين، فالمقارنة بين النبي ﷺ وبين صحابته، فإذا كان الصحابة رضي الله عنهم هدايتهم متلقاة من الرسول ﷺ فمن بعد الصحابة من تابعين ومن جاء بعدهم فهي كذلك، تتلقى منهم ومتلقاة منهم رضي الله عنهم.

وهذا النص واضح في هذا التقرير، فالاهتداء بالنبي ﷺ الصحابة، والاهتداء للأمة بعد الصحابة، ومثّل ﷺ بالنجوم، وهي أمنة للسماء، والله -تبارك وتعالى- قال: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالاهتداء بالنجوم والأقمار والشموس فيحصل بها الاهتداء، فالآن السفن في البحر، والطائرة في السماء، والمراصد التي ترصد الجو، كلها لها علاقة كبرى بالنجوم، فهذه آية من آيات النبوة، فإذا كان الناس يهتدون بالنجوم وفي برهم وبحرهم؛ وسمائهم وجوِّهم، فكذلك الهداية بالصحابة من بعد وفاة رسول الله ﷺ، فهم إذا ذهب هديهم في الأمة وانقطع فالأمة في حيرة وفي ضلال وفي هرج وفي مرج، وهذا الذي وقع مع الأسف لّما فارق طوائف هدي الصحابة واعتمدوا على رأيهم وفِكرهم واستنتاجاتهم ضلوا وأضلوا.

فلا شك أن نشأت الفرق وتأصيل أصول لها من قِبلها ومن قِبل أصحابها وعلمائها لا شك أن هذا له الأثر السيء على الأمة، فالأمة في خير ما رجعت إلى أصحاب رسول الله وإلى السلف الصالح وإلى الهدي النبوي، فكذلك الذي يسير بالليل ولا يهتدي بالنجوم، وليست له هداية فإنه يضل، فالآن الطائرة لو كان في الجوّ ولم تهتدِ بالهدي فإنها تضيع وتسقط في البحار، ويهلك من فيها، فهذا الذي وقع في الأمة، فتفرقت إلى شذر ومذر، وتوزعت بين قوتها وذهبت ريحها بسبب انفصالها عن الصحابة، فصدق رسول الله ﷺ في وصفه هذا، وأنه كان

أمنةً لأصحابه، وأصحابه أمنة لمن بعدهم، والنجوم أمنة للسماء؛ أي بمعنى حفظ ووقاية ورعاية، فإذا ذهبت هذه الأمور فما بقي إلا الضرر!! وكان كذلك، فأصبحت الأمة تقرأ عقائد كلام عقائد فلسفية تستقيها من كتب محرّفة ومن كتب زنادقة ومن كتب الضلال، لا صلة لها بكتاب الله ولا صلة لها بسنة رسول الله ﷺ، وفي الأخير تنسب إلى الإسلام باسم الفكر الإسلامي وباسم الفلسفة الإسلامية وباسم كذا وباسم كذا، وبكل الأسماء التي دخل بها المنحرفون عنها للإسلام.

فالله هو المستعان في واقعنا وفي ذهاب هذه الأمنة، فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يرجع المسلمين إلى سلفهم، وإلى صحابة نبيهم؛ حتى يهتدوا بهديهم، وأن ترجع لهم أصولهم وترجع لهم قوتهم، ويجدد الله -تبارك وتعالى- ريحهم، فيكونون على ما يرام.

أما واقعهم مع الأسف ففرقتم المذاهب، وفرقتم الطوائف، وانفصلوا عن سنة رسول الله ﷺ، وانفصلوا عن منهاج السلف الصالح.

حديث: ((لا تسبوا أصحابي...)):

فنضيف إلى ذلك نصًّا آخر، نختاره مما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله وهو حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه)) وفي لفظ: ((فوالذي نفسي بيده))، وهذا الحديث في (صحيح البخاري) كما هو في الهوامش عندنا هنا، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذا خطابٌ منه لخالد بن الوليد ولأقرانه من مسلمة الحديبية والفتح، فإذا كان مدّ أحدِ أصحابه أو نصيفه أفضل عند الله من

مثل أُحدٍ ذهبًا من مثل خالد وأضرابه من أصحابه، فكيف يجوز أن يحرِمهم الله الصواب في الفتاوى، ويظفر به من بعدهم؟ فهذا من أبين المحل.

لا شك أن التعليق وجيه، وأن هذا التعبير للصحابة بأن لو أنفق أحدهم مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه، وهذا تعظيم كبير وتقدير وتبجيل من الصحابة، وأن الإنسان مهما تعلم ومهما ادعى من علم أو ادعى من فكر أو ادعى من فهم فلا يبلغ مُد أحدهم ولا نصيفه؛ أي نصف المد، وهذا -كما قال ابن القيم- قيل في الصحابة للصحابة، فما بالك بمن يأتي بعدهم ممن تلوث بالفكر الغربي وتلوث بالفكر الشرقي وتلوث بالأهواء وتلوث بالمصالح وتلوث بحب الظهور وتلوث بالمصالح المادية وتلوث بما تلوث به، كيف يمكن أن يبلغ؟ لا يمكن أن تكون المقارنة أبدًا لا من قريب ولا من بعيد، وهذا كلام رسول الله لو أنفق أحدهم مثل أحدٍ ذهبًا، ما بلغ نصفه أو نصيفه، عجيب، يعني كُبر أُحد من ذهب أنفقه ولا يعادل المد، المد: أن تمد يدك وتملأها، قال: ((مد أحدهم أو نصيفه)) أو نصف المد؛ يعني: مقارنة المد بجبل أُحد فما هي المقارنة؟ هي جزء من حصاة أحد؛ يعني: مثلًا الإنسان لو ذهب لأي زاوية من زاويات أحد ووضع يده هكذا، ملئ مده، فكيف إذا كان الجبل كله؟!

فالشاهد: أن هذا الحديث الصحيح الذي هو في (صحيح البخاري) عليه السلام في كتاب فضائل الصحابة، في الحقيقة معجزة من معجزات الرسول ﷺ في هذا التعبير، لا أحد يستطيع أن يعبر هذا التعبير، هذا تعبير نبوي لا شك فيه، وهذا تمثيل عجيب، يعني تمثيل الإنفاق وتحويل ذلك إلى كل ما يمكن أن يُلحق بهم رضي الله عنهم، أي واحد يريد يزعم أن يلحق بالصحابة فليقرأ هذا الحديث، فلا في الإنفاق فقط، ولكنها في العلم وفي الفهم وفي الفقه وفي العقيدة وفي كل شيء، فلا يمكن أن ينالهم أبدًا، ولا أن يصل إليهم، فالذي يريد أن يصل إليهم فليقارن

نفسه بما قارن به الرسول ﷺ، مقارنة المد أو نصف المد بجبل أُحد من ذهب، قال: ((مثل أُحد ذهبا ما بلغ نصفه أو نصيفه)).

فجزى الله الإمام ابن القيم على اختياره لهذه النصوص الحديثية، وهذه الآيات التي سبقت في إتحافنا بهذه المناقب وهذه الفضائل التي تؤصل لنا وتؤسس لنا فهم السلف وأنه أصل من الأصول، والذي لا يقتنع بهذه النصوص من آيات ومن أحاديث ومن فهم لأئمة العلم فليبحث عن دين آخر وعن فهم آخر، وأن يرضى بفهم المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ومتأخري المقلدة، ومن ليس لهم نصيب من السنة ولا علاقة لهم بالدليل، ولا حتى بالصدق ولا بالإخلاص، نرجو الله أن يرزقنا الإخلاص والصدق في القول وفي الفعل.

الحث على التمسك بالسنة وبهدي السلف الصالح

الإمام ابن القيم رحمه الله أيضًا ذكر بعض الآثار، في الدفاع عن السلف، وفي فضائل الصحابة -رضوان الله عليهم-:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ما رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "من كان متأسيًا فليتأسّ بأصحاب رسول الله ﷺ؛ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم".

قال ابن القيم: "ومن المحال أن يحرم الله أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا الصواب في إحكامه ويوفق له من بعدهم". هذا هو تعليق الإمام ابن القيم على هذا الأثر.

لا شك أن الذي ينظر إلى الأثر يجده مليء بتعظيم السلف والصحابة -رضوان الله عليهم- في هذه الأوصاف العظيمة، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، يعني كامل الطاعة؛ لأن البر المقصود به هنا كامل الطاعة لله والمتابعة لرسوله ﷺ؛ لأنها من البر، أبر أي أكثر برًّا، والقصد به هنا هو تمام الطاعة وتمام المتابعة للنبي ﷺ، وأعمقها علمًا، يعني: جمعوا بين الحفظ وبين الفهم وبين التطبيق، وعمق العلم هو بعده والإحاطة به وبجزئياته، وأقلها تكلفًا: ليس عندهم تمحُّل ولا روغان ولا تأويل فاسد ولا تحايل على بتر النصوص ومحاولة الاستدلال بما لا يليق الاستدلال به، فهُم لم يكن عندهم تكلف؛ لأنهم فطروا على الخير وعلى السماحة وعلى الطيبوبة وعلى أخذ الأمور على وجهها، فليس عندهم تكلف في شيء؛ لا في سلوكهم ولا في لباسهم ولا في أكلهم وشربهم، ولا في علمهم وفهمهم، فهم لا يُعرف عنهم التكلف في شيء، التكلف والتقعقر والتلبيس وغيره من غيرهم، أما هم برأهم الله من التكلف، والله -تبارك وتعالى- قال لنبيه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] النبي ﷺ لم يكن بذلك المتكلف الذي يتمحل الأمور، فهو صاحب الوحي وصاحب الهداية، فلا حاجة به إلى هذا الأمر، الصحابة لا حاجة بهم من تكلف، فهم أخذوا النصوص والقرآن والسنة والفعل والقول غضًا طريًّا، فلا يحتاجون إلى هذا الأمر.

قال عليه السلام: وأقومها هديًا، لا شك أن هديهم هو الهدي في الصلاة في الحج في الكلام في الفتوى في العقيدة، فهم أقوم الناس هديًا، أكثر من غيرهم، من لا يُقارن غيرهم بهم في الهدي، فهم أهل الهدي، وهم كانوا يهتدون بهدي الرسول ﷺ في قولهم وفعلهم، قال: وأحسنها حالًا، فحالهم أحسن الأحوال في كل شيء، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه -كما سبق- وإقامة دينه، فكانوا كذلك مقيمين لدين الله، فعرفوا لهم فضلهم في العلم والتقوى والورع والزهد

والجهاد والتضحية والخير، فهم أهل الجهاد وأهل التضحية وأهل العلم وأهل التوجيه، واتبعوا آثارهم -أي: طريقتهم- وما كانوا عليه، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم.

هذا وصف صحابي من خيرة الصحابة ومن أفقههم ومن أعلمهم لصحابة رسول الله، فكل هذه الأوصاف وهذه الأصول والنصوص تؤصِّل لفهم السلف -رضوان الله عليهم.

ثم قال الإمام ابن القيم ﵀ نصًّا آخر، وهو من الآثار، قال: عن حذيفة بن اليمان أنه قال: "يا معشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سُبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا".

قال ابن القيم: "ومن المحال أن يكون الصواب في غير طريق من سبق إلى كل خير على الإطلاق".

فالنص واضح وهو في (صحيح البخاري)، في كتاب الاعتصام، للحث على التمسك بالسنة والتمسك بهدي السلف الصالح، وهذا خطابٌ من حذيفة المعروف صاحب السرِّ، يخاطبه القراء ويأمرهم بالاتساء بالصحابة: "خذوا طريق من كان قبلكم"، وبيّن أن هذه الطريق هو الصحيح، ومن خالفه وتركه فيضل ضلالًا بعيدًا، ولا شك أن من خرج على هديهم وعلى طريقتهم فمآله إلى الضلال، والعياذ بالله.

ثم ذكر ابن القيم أثرًا آخر عن جندب بن عبد الله، يعني ما قاله جندب بن عبد الله لفرقة دخلت عليه من الخوارج، "فقالوا: ندعوك إلى كتاب الله، فقال: أنتم؟

قالوا: نحن، قال: أنتم؟ قالوا: نحن، فقال: يا أخابيث خلق الله، في اتباعنا تختارون الضلالة، وفي غير سنتنا تلتمسون الهدى!! اخرجوا عني".

هذا جندب بن عبد الله الصحابي الجليل الملهم الطيب الخيّر الفاضل، يخاطبه هؤلاء المنحرفون الخوارج، إن الخوارج هم قومٌ انحرفوا، وصفهم الرسول ﷺ بأنهم: ((يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا وجدتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا)) هذا حديث صحيح؛ لأنهم شرّ على الأمة ووباء ووبال، الخوارج الذين يخرجون على الأمة بالتكفير، يكفرون بالمعصية بالزنا، يكفرون بالكذب يكفرون بالمعاصي ويستحلون الدماء؛ لأن الذي يكفر يستحل، فقد استحلوا وبلغت بهم الدناءة والوقاحة أن يكون تعاملهم مع أصحاب رسول الله ما سمعتم عنه، من هذا الصحابي الجليل، وقد ذبحوه وبقروا بطنه، فهم يريدون الدعوة إلى كتاب الله لهذا الصحابي الجليل "ندعوك إلى كتاب الله" فهو تعجب وبيّن لهم؛ "كيف أنتم تختارون الضلالة في اتباعنا وتلتمسون الهدى" يعني في غير سنتنا؟ يعني المعاكسة كلها! وهذا دأب جميع المبتدعة وهم الذين يلعبون بالنصوص والذين يحرفون النصوص، فهم دائمًا يختارون الضلالة ويلتمسون الهدى في غير سنة أصحاب رسول الله وفي غير سنة رسول الله، هذا دأب المبتدعة في كل زمان، فالخوارج هم كل من خرج على جماعة المسلمين، في العلم والعمل والفقه والفهم، واتبع غير طريقة السلف غير طريقة الصحابة غير طريقة التابعين في الفهم؛ لأن أصحاب العقائد الضالة كلهم فيهم شعبة من شعب الخوارج، ولهذا الإمام ابن تيمية رحمه الله في (مجموع الفتاوى) ذكر في الجزء الثامن والعشرين، ذكر تعريف الخوارج وبيّن عموم هذا اللفظ لكثير من فرق الضلال ولا سيما الرافضة؛ لأن الرافضة هم خوارج، لا شك أنهم

خوارج، فهم يكفرون خيرة خلق الله ويستحلون الدماء، والعياذ بالله، فمن شاء رجع إلى بحث الإمام ابن تيمية في (الفتاوى)، فإنه بحث نفيس فرحمة الله عليه.

أحاديث في فضيلة عمر:

ذكر الإمام ابن القيم عليه السلام في خصوص بعض الصحابة ذكر فيهم نصوصًا تدل على فضيلتهم وصدقهم، فنختار من ذلك عمر رضي الله عنه، فقد ذكر عليه السلام ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قد كان فيمن خلا من الأمم أناس محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فهو عمر)).

قال ابن القيم عليه السلام: "وهو في (المسند) والترمذي وغيرهما من حديث أبي هريرة، والمحدّث هو المتكلم الذي يلقي الله في روعه الصواب، يحدثه به الملك، قال ابن القيم: "ومن المحال أن يختلف هذا ومن بعده في مسألة ويكون الصواب فيها مع المتأخر، فإن ذلك يستلزم أن يكون ذلك الغير هو المحدث بالنسبة إلى هذا الحكم دون أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهذا وإن كان في أقرانه من الصحابة فإنه لا يخلو عصرهم من الحق، إما على لسان عمر وإما على لسان غيره منهم، وإنما المحال أن يفتي أمير المؤمنين المحدث بفتوى أو يحكم بحكم ولا يقول أحد من الصحابة غيره، ويكون خطأ، ثم يوفق له مَن بعدهم فيصيب الحق ويخطئه الصحابة".

المهم أن ابن القيم عليه السلام يعلق على قضية الفتوى وقضية الرأي، ويقارن بين عمر وبين الصحابة ومن بعدهم.

والقصد هو أن هذا نص صريح في فضيلة عمر، وفيما خُص به من إصابة الصواب، يصيب الصواب لأنه قال: ((إن يكن في أمتي محدث فعمر))؛ لأنه قد كان فيمن خلا من الأمم أناس محدثون.

والقصد من هذا هو الإصابة -إصابة الصواب- الإنسان قد يكون عنده من التوفيق ما ليس عند غيره، وأنزل الله -تبارك وتعالى- القرآن باقتراحه، فنزل الحجاب؛ لأن عمر هو الذي ألحّ على الموضوع، وقال للنبي ﷺ: "لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى"، فنزلت الآية: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] وكان يقول: "اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيًا" فنزلت آيات الخمر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة: ٩٠] وغيرها، فإن هذا القرآن يوافق ما كان ينشده عمر ويحبه، ويريد أن يكون دينًا فكان دينًا، وبقي ونزل قرآنًا يتلى، وسيبقى يتلى -إن شاء الله- إلى أن تقوم الساعة.

فمن كان حاله هكذا، فلا يُقارن بغيره، لا نقارن عمر بأحد من المتأخرين مهما بلغ من التقوى ومهما بلغ من العمر، فعمر ﷺ جمع بين العلم والعمل وبين هذه التزكيات النبوية، النبي ﷺ هو الذي زكّاه وجعله من المحدّثين -أي: الملهمين- الذين يحالفهم التوفيق ويلقى في روعهم الخير والسداد والتوفيق، فلهذا يحتفي؛ لأن العلماء تجد من تتبع سيرهم؛ لأن مثلًا في كتب الحديث انظر إلى البخاري بماذا تقارنه بين كتب الحديث؟ فلا شك هذا توفيق، أن يؤلف عالم هذا الكتاب وبهذا القدر وبهذه السعة وبهذا الحجم، وتتلقاه الأجيال والعلماء والأذكياء والمبرزون جيل من جيل، لا شك أن هذا توفيق منه تعالى، وهكذا مسلم، وهكذا بقية الكتب التي ألفها أصحابها، فتجد التوفيق.

يعني عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله انظر إلى توفيقه، الله تعالى وفّقه في كثير مما كتب، وتلقى العلماء كتاباته وكتبه بالقبول، كذلك الإمام أحمد رحمه الله في قضاياه، والإمام مالك في (الموطأ) تلقى الناس كتابه بالقبول والترحيب والشرح

والدراسة، وكذلك الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كتاب (التوحيد) على صغر حجمه وقلة أوراقه لقي قبولًا وتوفيقًا من الله -تبارك وتعالى- أن يوفق هذا الإمام بهذه الصفة وبهذا القدر وبهذا الرصد، رصد الأخطاء الشركية في العالم الإسلامي، وألفها و جعلها بتلك الصفة مصحوبة بآيات وبأحاديث وبآثار سلفية، فهذا توفيق من الله. فالموفق من وفقه الله في الدعوة في الخير في كل شيء، فلهذا الصحابة من الذين جاءت في بعضهم نصوص الكبيرة والعظيمة.

نضيف إلى ذلك نصًّا آخر في عمر نفسه، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن حمزة بن عبد الله عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: ((بينما أنا نائم، إذ أوتيت بقدح لبن، فقيل لي: اشرب، فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري، ثم أعطيت فضلتي عمر، قالوا: فما أولت ذلك؟ قال: العلم)) ما شاء الله، يعني في أوضح من هذا النص من هذا الخير من هذه التزكية المباركة، من إمام الهدى محمد ﷺ.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومن أبعد الأشياء أن يكون الصواب مع من خالفه في فتيا أو حكم، لا يعلم أن أحدًا من الصحابة خالفه فيه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بهذه الشهادة".

إذًا عمر رضي الله عنه ورث علم النبوة بشهادة النبي ﷺ، أنه أعطاه ما بقي عليه، بمعنى هذه وراثة النبوة مباشرة، فمن له هذه المنقبة! ومن له هذه الميزة! ومن أعطاه الرسول ﷺ فضلته في الشرب في اللبن! لأن اللبن تعبير العلم، الرسول ﷺ هو الذي عبر، ((قالوا: فما أولت ذلك؟ قال: العلم)).

إذًا علم النبوة والرسالة انتقل إلى عمر، وكان كذلك، كان موفقًا؛ يعني صار عمر علمًا على الخير، وعلمًا على العدل، وعلمًا على القوة، وعلمًا على

الشجاعة، وعلمًا على ضبط الإسلام وضبط المسلمين وعلى حرب من حارب هذا الدين، ولهذا ارتاح المجوس حتى فتكوا به في مسجد رسول الله ﷺ، وهكذا يقتلون ويفتكون بكل من رأوا فيه هذه الشجاعة وهذه الصفات الفريدة، التي هي كلها شرف وكلها خير، كلها امتداد لنبوة النبي ﷺ.

فهذه النصوص ولله الحمد تركز لنا فضائل الأخيار وفضائل الصحابة، وأنهم أحق بكل تقديم وأنهم المعتقد وعلى عقيدتهم نسير وعلى طريقهم نمشي ولا نهن إن شاء الله.

حديث في فضيلة ابن عباس:

فنضيف إلى ذلك نصًّا آخر لصحابي جليل آخر، ذكره الإمام ابن القيم، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه: ((وضع للنبي ﷺ وضوءًا، فقال: من وضع هذا؟ قالوا: ابن عباس، قال: اللهم فقهه في الدين))، وقال عكرمة: ((ضمني إليه رسول الله ﷺ فقال: اللهم علمه الحكمة)) هذا في البخاري خرجه البخاري في كتاب الاعتصام بهذا اللفظ، واللفظ الأول عن الإمام أحمد رحمه الله.

الشاهد: قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومن المستبعد جدًّا بل الممتنع أن يفتي حبر الأمة وترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ بدعوة مستجابة قطعًا، أن يفقهه في الدين ويعلمه الحكمة، ولا يخالفه فيها أحدٌ من الصحابة، ويكون فيها على خطأ، ويفتي واحد من المتأخرين بعده بخلاف فتواه ويكون الصواب معه، فيظفر به وهو مقلده، ويحرمه ابن عباس والصحابة.

لا شك أن هذا المقارنة دائمًا مع الإمام ابن القيم في الصحابة وغيرهم وفي السلف وغيرهم مستمرة.

فهم الصحابة والسلف الصالح للقرآن

عناصر الدرس

العنصـــــــــر الأول : حرص الصحابة على السؤال عما ما خفي عليهم من المسائل ٥٩

العنصـــر الثــــاني : أقوال بعض أئمة القرن السابع والثامن الهجري في فهم السلف الصالح لكتاب الله ٧٦

حرص الصحابة على السؤال عما خفي عليهم من المسائل

والقصد أن الصحابة والتابعين والسلف بعدهم لم يكونوا يقرءون القرآن قراءة -كما يقولون- سطحية، ولا يفهمون مدلولات الألفاظ والمعاني، ولكن -كما سيأتي إن شاء الله- كانوا لا يتجاوزون الآيات القليلة إلا بعد فهمها ودراستها.

وكما سبق في خصائصهم ﷺ أنهم أوتوا كل وسائل الفهم التي تمكنهم من فهم الآيات، والقرآن والسنة بينا أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا أحذق الناس وأفهم الناس؛ ولهذا جاءت أسئلتهم في كتاب الله، الذي يرجع إلى سير الصحابة وعلاقتهم بنبينا محمد ﷺ يجدهم يسألونه عن كل ما أشكل عنهم، والقرآن نفسه قد ذكر أمثلة من تساؤلهم، قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن اليتيم وماذا نعمل معه؟ وكيف يتعامل مع اليتيم فيما يتعلق بما ترك له أبوه أو أمه من مال؟ وإذا قرأنا هذا السؤال من الصحابة للنبي ﷺ، وقرأنا الجواب الذي نزل في كتاب الله لهم- نجد أن هذا الأمر هذا السؤال أدنى من حيث الأهمية، أدنى من العقيدة بكثير، فإذا كانوا يسألون هذا السؤال فيما يتعلق بحالة اجتماعية يمكن الاجتهاد فيها، ويمكن التعامل معها، فما بالك بالعقيدة التي لا تستند إلى رأي ولا تستند إلى فهم أحد، وإنما هو وحي يُتلى من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.

المهم أن الصحابة فهموا كتاب الله، وسألوا عن كل ما أشكل عليهم؛ فلهذا نرى أن الصحابة فهموا العقيدة الفهم الكامل، وهضموها هضمًا، وما أشكل عليهم سألوا عنه رسول الله ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١].

إذًا الأسئلة في كثير من سور القرآن متنوعة، فسألوه عن الخمر، وسألوه الساعة وهي من أمهات العقائد، وسألوه عن الحيض وعن المحيض، وسألوه عن الشهر الحرام، وسألوه عن الأهلة، فأسئلتهم ﷺ كثيرة في كتاب الله، فمن كان حاله هكذا كما قال الله وكما قص الله علينا في أسئلتهم، فكيف يقال في أنه لم يدرس العقيدة ولم يفهم العقيدة الفهم الصحيح، فيأتي المتأخرون ويزعمون أنهم أفهم للعقيدة من الصحابة ومن التابعين ومن السلف الصالح، فهذا لا شك الذي يقوله يزري بالصحابة ويجعلهم في مكانة لا تليق بهم، ويحتقر شأنهم ويحتقر ما كانوا عليه من الفضل العظيم في كل شيء في العلم والفهم؛ فلهذا نقول بأن السلف وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ فهموا المعتقد الفهم الصحيح لهذه الأدلة.

وفي (صحيح مسلم) من حديث أبي هريرة قال: ((لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب -تأدبًا مع النبي ﷺ واهتمامًا بالموضوع؛ لأن هذا الوصف "جثوهم" دلالة على كامل الآداب وعلى كامل الاهتمام بهذا الموضوع- وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت

عليك هذه الآية ولا نطيقها؛ فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما أقر بها القوم وزلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر الآيات)).

الآن في هذه القصة وفي هذا الحديث الصحيح، نرى أن الصحابة لما نزلت هذه الآية وهي لا شك أنها من أمهات الآيات، والصحابة اشتد ذلك عليهم لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، هذا هو الشاهد، فإذا الإنسان حوسب بهذا الأمر صعب، لا يطيق ذلك؛ ولهذا أن الصحابة اهتموا بهذه القضية اهتمامًا بالغًا وتحركوا تحركًا واحدًا، يسألون رسول الله ﷺ عن هذه المعضلة؛ لأنه إذا كان الإنسان يحاسب على ما يبديه وما يخفيه، هذا الأمر صعب عليه، فالإنسان تخطر بباله خواطر وأمور خارجة عن طاقته، فكيف يحاسب عليها؟ ومع ذلك رسول الله ﷺ أمرهم بالأدب، وأمرهم بالسمع والطاعة لله، وبيّن لهم ما كان عليه اليهود والنصارى في تصرفهم مع الوحي الذين قالوا: سمعنا وعصينا! فقال لهم النبي ﷺ: ((قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير))، فالنبي ﷺ حريص -اللهم صلِّ عليه- على أمته أن تكون مطيعة لربها وأن تذعن لما أنزله الله عليهم من الكتاب، فلا يظهر منهم عقوق ولا عدم استجابة ولا عدم التجاوب مع الآيات القرآنية، فكذلك المسلم في كل زمان ينبغي أن يكون حاله هكذا، فلا يعترض ولا يتأفف ولا يستثقل، وإنما يستمع ويطبّق ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فالله -تبارك وتعالى- رحمهم ونظر إلى حالهم، فخفف الله عنهم وعنا أيضًا، فأنزل هذه الآية المباركة التي هي خاتمة سورة "البقرة"، والتي هي حوافظ، من قرأها في نومه حفظته وبات في حفظ الله.

وجاءت الآية صريحة وواضحة بأن الله -تبارك وتعالى- لا يكلف نفسًا إلا وسعها، الله تعالى لا يكلف الإنسان أكثر مما لا يطيق، بل يكلفه بما يطيقه، أما الذي لا يطيقه لا يكلفه به، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، اللهم لك الحمد ولك الشكر، فعفوه كبير، فخفف الله عنهم وعنا، نحن الذين نأتي بعدهم ويعنينا ما يعنيهم، والله -تبارك وتعالى- جاء بهذا الدين باليسر ورفع عنا الآصار والأغلال كما وصف الله تعالى نبيه محمد ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهو رحمة وليس عذاب، فهو نفع وليس ضر، فهو خفة وليس ثقل، فدينه دين الخير ودين الرحمة فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يجعلنا ممن سمع وأطاع، وكان على ما يرضي الرب وما يتابع به رسوله محمد ﷺ.

الشرك من أعظم الظلم:

قال البخاري رحمه الله في صحيحه: حدثني محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: "لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه! فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]".

هذا الحديث أيضًا وهذه القصة أيضًا شبيهة بالقصة السابقة، وأن الصحابة لما نزلت هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ يعني تبين لهم أن هذا أمر لا يُطاق وأن ما في أحد إلا وله ظلم وبه ظلم، فكيف التخلص من هذا؟

ولهذا قالوا: وأينا لم يظلم نفسه، فأنزل الله -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] وفي اللفظ الآخر الذي سنذكره: "أن النبي ﷺ فسر لهم الظلم بالشرك، وقال: ((ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما هو الشرك))، فرفعت عنهم الغمة وزال ما بهم واستراحوا ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الأمور التي ليست في طاقة الإنسان يصعب عليه أن يتخلص منها من الصعوبة بمكان.

فلهذا، الأمور الصعبة رفعها الله -تبارك وتعالى-، فالرسول ﷺ بيّن بأن الظلم الموجود في الآية تفسيره وتوضيحه هو الشرك؛ فلهذا لا يقال: أن الصحابة -رضوان الله عليهم- ما فهموا العقيدة، كيف ما فهموا العقيدة وهم يسألون عن هذه الدقائق؟! هذه دقائق قلما ينتبه القارئ لها، بل قلما ينتبه العالم في وقتنا الحاضر لها، هذه دقائق ومع ذلك الصحابة -رضوان الله عليهم- تنبهوا لها وسألوا عنها، وأزال الله عنهم ما استشكلوه، وبين ذلك رسول الله ﷺ المكلف بالبيان، والحمد لله رب العالمين.

فلا شك أن الشرك من أعظم الظلم؛ لأن الحقوق إذا صُرفت إلى غير أهلها فهي ظلم، حقوق الأهل، حقوق الأم، حقوق الزوجة، حقوق الزوج، حقوق الأبناء، يعني كلٌ له حق، وإذا أخذت حق هذا وأعطيته للآخر فقد ظلمت، حقوق الزوجات إذا كان الإنسان عنده تعدد فلا يجوز له أن يصرف حق هذه إلى هذه، فهذا في عالم حقوق الآدميين، فما بالك إذا صرفت حق الله -الذي هو التوحيد الخالص- إلى غيره، يعني: صرفت حق الله الذي هو توحيده وعبادته وحده لا شريك له صرفته إلى غيره، صرفته إلى ميت مقبور، صرفته إلى حيوان، صرفته إلى نجم أو شمس أو قمر، صرفته إلى مغارة، صرفته إلى أي شيء،

فأشركت بالله غيره، فلهذا كان هذا من أعظم الظلم؛ لأن حقه -تبارك وتعالى- صُرف إلى غيره، الرسول ﷺ سأل معاذ قال له: ((أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم)) ففسر له الرسول ﷺ حق الله على العباد فقال له: ((أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)) فحق الله -تبارك وتعالى- هو عبادته وحده لا شريك له، فالذبح لا لله لا يجوز للإنسان أن يأتي إلى القبور أو أن يشد الرحل إلى القبور ويأتي بحيوان -بقرة أو غنم أو دجاج أو إبل- فلا يجوز هذا، كل هذا من الشرك، وأن يذبحه على قبره، وربما يذكر ذلك باسمه، حتى لو ذكر اسم الله وأتى به فهذا هو من الشرك، حتى لو ذكر اسم الله على المذبوح ونذره لهذا القبر فلا شك أن هذا هو الشرك، وهكذا الطواف لا يجوز إلا ببيت الله، فلا يجوز بالقبور، وهكذا الاستغاثة، وهكذا الاستعانة، وهكذا الدعاء، وهكذا الصلاة، فكل هذه الحقوق لا يجوز صرفها إلا لله، فمن صرفها لغير الله فقد ظلم وكان من الظالمين، وهو الذي تصدُق عليه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: بشرك، فكل من أشرك بالله فقد خلط إيمانه وألبسه بالشرك؛ فلهذا يجب أن يكون الإيمان خالصًا لله، لا يضاف إليه شيء، الحلف به والاستعانة به والاستغاثة به والصلاة له والذبح له، وشد الرحال إلى المساجد الثلاثة، ومن جاءت فيها النصوص مثل صلة الرحم أو طلب العلم أو غيرها من الأشياء، التي يجوز فيها شد الرحال، أما شد الرحال لمكان تطلب فيه العبادة أو لقبر أو لهذا فلا يجوز إلا للمساجد الثلاثة -المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيت المقدس-، هذه الثلاثة مساجد هي التي يجوز أن تشد لها الرحال، أما ما سواها فلا يجوز؛ فلهذا استشكال الصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الآية، وسألوا رسول الله ﷺ بعد ذلك.

فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يجعلنا من الموحدين وأن يجنبنا الشرك ووسائله، وأن يدفع عنا الشرك وأهله، وأن يدفع عنا كل ما يوقعنا في هذا الظلم الكبير الذي هو الشرك بالله، الذي سماه القرآن شركًا والرسول ﷺ سماه وفسّره شركًا، واستدل بقول الله -تبارك وتعالى- الذي قاله على لسان العبد الصالح: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣].

الرسول ﷺ يبين أن الإنسان عنده مكفرات تكفر ذنوبه وتكفر سيئاته:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا إسماعيل عن أبي بكر بن أبي زهرة قال: ((أخبرت أن أبا بكر قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]؟ فكل سوء عملنه جُزينا به؟ فقال النبي ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر! ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلا، قال: فهو مما تجزون به)).

إذًا، هكذا الصحابة يسألون الرسول ﷺ عند نزول الآيات؛ لأن الآية ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ ﴾ [النساء: ١٢٣] لأن ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ يعني الشرط وجواب الشرط، ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ بمعنى: أنه لو طبق ظاهر هذه الآية على كل حال لهلك الناس، فلهذا الصحابة استعظموها واستشكلوها، ولكن الرسول الحبيب الرحيم ﷺ بيّن بأن هناك أمورًا تصيب الإنسان، فهذه الأمور تخفف هذا الإشكال، أيش قال الرسول؟ قال: ((غفر الله لك يا أبا بكر)) انظر الأدب مع صحابة رسول الله، قال: ((ألست تنصب؟

ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: نعم، قال: فهو مما تجزون به))

بمعنى: أن الإنسان عنده مكفرات تكفر ذنوبه وتكفر سيئاته، فأبواب الفضل واسعة وكثيرة، فليس كل ما يفعله الإنسان يجز به، فهناك مكفرات، تكفر هذه الذنوب وهذه السيئات، فلهذا الآية ليست على ظاهرها، وإنما ينبغي أن يضاف إليها تفسير رسول الله ﷺ لها مباشرة، فهو يوضحها ويزيل اللبس الذي فهمه أبو بكر رضي الله عنه.

ونضيف إلى ذلك رواية أخرى، ذكرها الإمام أحمد نفسه وذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: ((لما نزلت ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] شق ذلك على المسلمين، فقال لهم النبي ﷺ: سددوا وقاربوا؛ فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها))، هذه الرواية أخرجها سعيد بن منصور، بهذا اللفظ الذي ذكرناه، قال ابن كثير رحمه الله: وكذا رواه أحمد عن سفيان بن عيينة، ومسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به عند أحمد وعند مسلم وعند الترمذي، لكن هذا اللفظ هو لفظ سعيد بن منصور في سننه.

كما ترى مثل الحديث السابق، وما يقال فيه يقال في هذا، فالصحابة فهموا كتاب الله الفهم الدقيق.

هذه هي الأسئلة التي وردت من الصحابة في بعض الآيات التي فقط هي نماذج.

سؤال الرسول ﷺ عن رؤية الله ﷻ يوم القيامة:

في هذه الجملة أسئلة مباشرة للرسول ﷺ في قضايا عقائدية متنوعة، نذكر نماذجَ فقط منها، والذي يريد الاستيفاء موجود في الكتاب، وقد بسطه العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه (أعلام الموقعين).

فَصَحَّ عنه ﷺ أنه سُئِلَ عن رؤية المؤمنين ربهم -تبارك وتعالى- فقال: ((هل تُضارون في رؤية الشمس صحوًا في ظاهرها ليس دونها سحب؟ قالوا: لا، فقال: هل تضارون في ليلة القمر ليلة البدر صحوًا ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك)) متفق عليه.

هذا من الأسئلة التي وجهها الصحابة للرسول ﷺ لأن هذا السؤال لا شك أنه يوجد عند كل مسلم يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر؛ لأنه لا بد أن يسأل السائل عن رؤية الله غدًا يوم القيامة؛ لأن هذه من الأماني الكبرى التي يتمنى المسلمُ أن تتحققَ له.

فما أنكر الرسول ﷺ سؤالهم، ولا قال لهم: إن الله تعالى لا يُرى يوم القيامة كما تقول المعتزلة، ولا قال لهم غير ذلك، بالعكس، فرح بسؤالهم، وعطاهم أمثلة عملية يعيشونها في حياتهم؛ حتى تتضح المسألة عمليًّا؛ لأنه كما يقولون: "وبالمثال يتضح المقال".

الصحابة سألوا عن رؤية الله، وكيف ذلك؟ فالرسول ﷺ بكل يُسر وسهولة قال لهم: ((هل تضارون)) أي: تتزاحمون، المضار القصد منها يزاحم بعضهم بعضًا، هذا هو القصد.

((في رؤية الشمس صحوًا في ظاهرها)) أي: بمعنى الوقت الذي تكون فيه الشمس في شدتها وفي قوتها، وفي كَبَد السماء؛ بمعنى: الموجودون تحت الشمس

كلهم ينظرون إليها، هذا فوق، هذا أسفل، هذا يرفع رأسَه ويرى الشمس، بل هي تدخل عليه في البيت، وتدخل عليه في أمكنة كثيرة، فهو دائمًا يحتاج إلى حجابات يتحجب بها من الشمس لمدى حرارتها، أو لشعاعها القوي.

"قالوا: لا" يعني: الجواب لا يحتاج فيه إلى جدال، ما أحد يقول: لو اجتمع مليون واحد، أو مليونان، أو ثلاثة، أو مائة، أو مائتان أو ثلاثة، أو أهل الأرض كلهم في مكان واحد والشمس في كبد السماء، يقول: لا، أنا رأيت الآخر يقول: أنا ما رأيت، بل الكل يرى، لو اجتمعوا سواءً في صعيد واحد أو متفرقين أو مجتمعين كلهم يرى الشمس؛ لأن النبي ﷺ قال: ((في الظاهرة)) أي: في وسط النهار الذي تكون فيه الشمس في أعلى قوتها، وفي أعلى كمالها، لا في الغروب ولا في الشروق؛ لأن في الغروب والشروق لا تكون في حالة ضعف، لكن في الظاهر تكون في كمال وجودها، وكمال قوتها، وكمال سيرها.

ثم مثل لهم بمثل ثان، وهم يعرفونه ونعرفه جميعًا، قال: ((هل تضارون)) أي: هل تتزاحمون: ((في رؤية القمر ليلة البدر صحوًا)) يعني: السماء صافية، ليس فيها غيم، ولا فيها ظلم، ولا فيها غبش، ولا فيها أي شيء، ((صحوًا)) يعني: في الصحراء الصافية التي لا جبالَ فيها ولا وديان، ولا أي شيء، وإنما هي طبق واحد.

قال ﷺ: ((ليس دونها سَحاب)) يعني: السحاب دائمًا هو دون الشمس، يعني: يفصل بينها وبين الأرض.

فالرسول ﷺ ضرب الأمثلة الواضحة التي لا جدالَ فيها ولا مماراة.

"قالوا: لا" بمعنى: الناس كلهم يرون القمرَ في اكتمال ليلة البدر إذا اكتملت دورته، واكتمل شكله، واكتمل ذاته الظهر. "قالوا: لا" الجواب واضح.

قال: ((فإنكم ترونه كذلك)).

إذًا، رؤية الله -تبارك وتعالى- متحققة ومحققة، وأحاديثها كثيرة ومتواترةٌ، وألِّفت فيها أجزاء، وخرج أصحاب الصحاح والمساند والسنن، ومع ذلك تجد علماء الكلام عندهم فيها إشكال، ويتحيرون في الإثبات وفي النفي، وتجد من أقوالهم ما يدل على أنهم ما درسوا الكتابَ، ولا السنةَ، ولا شموا رائحةَ الوحي.

فمثلًا: المعتزلة أراحوا واستراحوا، قالوا: بأنه لا يرى، وأن رؤيته مستحيلة، وأن هذه الأحاديث أحاديث آحاد، وأن ما ورد في القرآن يؤول بأنها منتظرة، وليس بمعنى النظر الذي هو الرؤية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] يعني: النظر عندهم بمعنى أنها تنتظر الثواب.

هذا باطل، والصحيح المقصود به كما صح في هذا الحديث: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] المقصود بها النظر إلى وجه الله.

المهم أحاديث الرؤية وآيات الرؤية في القرآن واضحة، و﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] المقصود به الإحاطة أو الرؤية في الدنيا، وليس القصد هو غير ذلك.

وسئل: كيف نراه ونحن ملأ الأرض وهو واحد؟ فقال: أنبئكم عن ذلك في آلاء الله؛ الشمس والقمر آية منه صغيرة، ترونها ويريانكم ساعةً واحدةً، لا تُضارون في رؤيتهم، وهو أقدر على أن يراكم وترونه.

أحاديث الرؤية أحاديث كثيرة.

سؤال الرسول ﷺ عن القدر:

وصح عنه ﷺ أنه سئل عن مسألة القدر، وما يعمل الناس فيه: ((أمر قد قضي وفرغ منه؟ أم أمر يُستأنف؟ فقال: بل أمر قد قضي وفرغ منه)) فسئل حينئذٍ: "ففيما العمل؟" فأجاب بقوله: ((اعملوا، فكل ميسر لِمَا خلق له، أما مَن كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [الليل: ٥])) ذكره مسلم.

الصحابة -كما قلت- حريصون على العلم، وعلى المعتقد، فترى أسئلتهم متنوعة؛ إما في الصفات، وإما في القدر، وإما في غيرها -كما سيأتي إن شاء الله- فهذا السؤال عن رؤيته لا شك أن الرؤية من الصفات، وبإجماع العلماء أنها معدودة في الصفات.

القدر إذًا سِر من أسرار الله، لم يطلِعْ عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا، فهو مما اختص الله -تبارك وتعالى- به. فسأل الصحابة الرسولَ ﷺ عن هذا الأمر، فأجابهم بجواب سهل ويسير، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه. فترتب على ذلك سؤال آخر، سئل: "ففيما العمل إذًا" يعني: إذا كان الإنسان من أهل الشقاوة لا محالة، ومن أهل السعادة لا محالة، فلماذا يعمل؟ فالرسول ﷺ أيضًا أجاب بجواب سهل ويسير، قال: ((اعملوا)) يعني: أمرنا بالعمل، أمرنا بالصلاة، أمرنا بالزكاة، أمرنا بالحج، أمرنا بالخير، أمرنا باجتناب المعاصي والموبقات، هذا هو الذي يهمنا، هذا الذي حرص عليه المسلم، ولا يحرص على أن يعرف القدر.

فلهذا السؤال عن معرفة القدر من الأسئلة التي لا ينبغي أن تكون، لكن الإنسان ينبغي له أن يعملَ بما أُمِرَ، وأن يجتنبَ عما نهي.

فلهذا القدر سر من أسرار الله لم يطلع عليه لا ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا.

سؤال النبي ﷺ عن النسل، والعقيدة، وكتاب الله:

وسئل ﷺ عن شبه الولد بأبيه تارة وبأمه تارة، فقال: ((إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة كان الشبه له، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل فالشبه لها)) متفق عليه.

إذًا هذه أيضًا من الأسئلة الدقيقة، التي تُطرح في عالم النسل والتناسل، ويعلم أن الصحابة كانوا دقيقين في جميع أسئلتهم، وفي طرحهم المتين الطيب، فلا شك أن هذه أمور لا يعرفها إلا من يتعاطى البحث في الأجنة وغيرها، ولا شك أن له اختصاص ولا سيما في وقتنا الحاضر، لكن الرسول ﷺ معه الوحي الذي لا يُحتاج فيه إلى تخصص ولا إلى تحليل ولا إلى بحث علمي، لكنه الوحي فالنبي ﷺ أجاب بجواب الوحي، وبين أن السبب في الشبه هو سبقُ ماء أحد الجنسين، فإن سبق الرجل فالشبه له وإن سبقت المرأة فالشبه لها، والأمر في ذلك واضح ولا يحتاج إلى كثير بحث، ولعل هذا الآن تؤيده البحوث العلمية الطبية المتقدمة التي ارتقت في كثير من التخصصات، لكن الرسول ﷺ كان أمي لا يقرأ ولا يكتب، وجعل الله أُميّته من علامة نبوته ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فما كان يقرأ كتابًا ولا كان يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ اللهم صل عليه وعلى آله، لكنه علم النبوة والرسالة والاصطفاء من الله -تبارك وتعالى- له.

وسئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] فقال: ((إنما هو جبريل عليه السلام لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين)) فرآه في هذا المعراج، ومرة طلب من جبريل أن يريه إياه، فرآه مرتين فقط على الهيئة الحقيقية التي خلق عليها، وإلا كان جبريل عليه السلام كان يتمثل للرسول ﷺ في صورة رجل، حتى يألفه وحتى يخاطبه بالخطاب الذي يليق به.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١] سُئل ﷺ: "يا رسول الله، أيكرر علينا ما كان منا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ فقال: ((نعم، ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل حق حقه))، فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد"، كما سبق.

إذًا، الصحابة يستشكلون ويسألون عن عقيدتهم وعن كتاب ربهم؛ حتى تتضح لهم الأمور اتضاحًا، فالرسول ﷺ وضح هنا الخصومة؛ لأن هذه حقوق، الله -تبارك وتعالى- يتوب على من تاب ويرحم ويسامح في الآخرة، لكن تبقى حقوق العباد لابد فيها من أحقية ولابد فيها من تحقيق، حتى يؤخذ للجلحاء من القرناء، القرناء هي التي لها قرون والجلحاء هي التي لا قرن لها، فتضربها وتنطحها بقرونها، فيؤخذ من القرناء للجلحاء كما قال الرسول ﷺ.

سُئل الرسول ﷺ عن المفلس، وعن الرجل يحب القوم ولّما يعمل بأعمالهم:

وحديث: ((أتدرون من المفلس؟)) فالصحابة أجابوا: بأنه الذي لا دينار له ولا درهم، فالرسول ﷺ بين لهم أن الأمر ليس كذلك، فالذي يأتي بحسنة أمثال الجبال تروح يأخذها له وظلمه والذي ضرب والذي فعل به، فيبقى ما عنده شيء، فتؤخذ سيئات المظلوم فتضع في ميزانه -والعياذ بالله-، الإنسان يحذر الخصومات ويحذر الظلم، الظلم مآله وخيم في الدنيا والآخرة -والعياذ بالله-، فيا خيبة الظلمة! يا خيبتهم! فهم المفلسون، هم الخاسرون، الذين أكلوا أموال الناس وأكلوا حقوقهم وضربوهم وسفكوهم وسجنوهم، وفعلوا بهم الأفاعيل، فنرجو الله -تبارك وتعالى- ألا يتبعنا بحق أحد ولا بظلمه، وأن يسامحنا وأن يعفو عنا، إنه سميع مجيب.

سُئل الرسول ﷺ عن الرجل يحب القوم ولّما يعمل بأعمالهم؟ فقال: ((المرء مع من أحب)) كما قلت المسلم يحب أن يكون رأسًا في الخير ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فالإنسان يحب أن يكون الأول في الخير، يحب أن يكون من العباد ومن العلماء ومن الدعاة ومن الخطباء؛ لأن هذه هي محبة الأخيار والفضلاء، لا نقل يحب المال يحب كذا، هذا يستوي فيه الكافر والمسلم والمجوسي، لكن نقول: المسئول عنه هنا هو الخير، يعني القربة من الله -تبارك وتعالى-، فهو قد يحب القوم ولّما يعمل بأعمالهم، نحب مثلًا الرسول ونحب الصحابة ونحب التابعين ونحب العلماء ونحب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام ابن تيمية والإمام ابن عبد الوهاب، والأئمة على اختلاف عصورهم، لكن ليست لنا أعمالٌ توازيهم أو تقاربهم، فنحب رسول الله، لكن أين نحن من رسول الله في شيء! لكن لعل هذه المحبة تكون شفاعة تشفع لنا ونكون كما قال الرسول: ((المرء مع من أحب)) ولا شك أن هذا فيه من التشجيع وفيه من الصفاء ومن الخير ما الله به عليم.

((المرء مع من أحب))، فانظر من تحب؟ هل تحب الصحابة وتحب التابعين وتحب الأئمة المجتهدين وتحب العلماء وتحب الأخيار والدعاة والفضلاء أو تحب المال وتحب النساء وتحب الأفلام الخليعة وتحب وتحب؟ فكلٌّ مع من أحب، لا رجل ولا امرأة ولا ذكر ولا أنثى ولا صغير ولا كبير، فأنت مع من تحب، حتى في حياتك أنت مع من تحب، ومن تجالس؟ الذي تحبه وتبحث عنه وتسأل عنه في الشرق أو في الغرب، حتى تجالسه، فالمرء مع من أحب، فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يجعلنا من المحبين لله ثم لرسول الله ثم لصحابته ثم لتلامذتهم من التابعين ثم من بعدهم، ثم لكل مَن له قَدم صدق في الإسلام، في هذه الدعوة المباركة دعوة السنة ودعوة السلف، فنرجو الله أن يجعلنا من محبيه، ولعل عملنا

هذا -إن شاء الله- مما نتقرب به إلى الله -تبارك وتعالى- في حب السلف وفي حب الصحابة، فنذكر أسئلتهم وأحوالهم، على عجزنا وبجرنا وضعفنا وقلة علمنا، فلعل الله تعالى أن ينفعنا يتجاوز عنا وعن عظائمنا وموبقاتنا، إنه سميع مجيب.

سؤال الرسول ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، عن أول أشراط الساعة:

وسُئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وبين هارون وعيسى وموسى -عليهم السلام- ما بينهما، فقال: ((كانوا يسمون بأنبيائهم وبالصالحين قبلهم)) فليس معنى أن مريم -عليها السلام- هي لها أخوة نسبية بينها وبين هارون أخو موسى- ليس هذا هو المقصود، فالقصد أنهم كانوا يُسمون بأنبيائهم، يعني مثلنا نحن الآن تجد إبراهيم، تجد زكريا، تجد محمد، تجد حتى نوح وآدم، تجد كثيرًا من الناس يتسمى بأسماء الأنبياء، فهم كذلك، فالقصد هنا أن مريم -عليها السلام- وعلى ابنها عيسى وعلى بقية الأنبياء من هذا الباب، فهي أخت هارون الذي معها، والذي هو معاصر لها، وليس القصد هو هارون النبي المعلوم أخو موسى، فليُعلم هذا، وهذه فائدة علمية وفائدة تفسيرية، والحديث في (صحيح مسلم) وفي (مسند الإمام أحمد) فهم كانوا يتسمون بأنبيائهم وبالصالحين قبلهم، وهذه سنة ينبغي أن نسلكها كلنا، نتسمى بالأنبياء وبالصالحين، و((خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن))، ولا يصح "خير الأسماء ما عبد وحمد"، هذا لا يصح، هذا من كلام العوام والجهال، فخير الأسماء هو عبد الله وعبد الرحمن، أسماء الأنبياء وأسماء الرسل وأسماء العلماء وأسماء الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ويزيد وخالد، وغيرهم من الصحابة البررة الكرام.

وسئل ﷺ عن أول أشراط الساعة؟ فقال: ((نارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب)) هذه من أول أشراط الساعة، أشراط الساعة هي علامات الساعة، لها أشراط كبرى وأشراط صغرى، فما أخبر به الرسول ﷺ من الأشراط الصغرى كلها قد ظهر، ظهر الزنا وشُرب الخمر وقلّ العلم وكثر الجهل، هذه كلها أخبر بها الرسول أن يكثر الزنا ويشرب الخمر ويكثر الجهل ويقل العلم، هذه كلها أخبر بها الرسول، تطاول الناس في البنيان وعق الناس آباءهم، وهي التي فسر بها العلماء أن تلد الأمة ربتها لمنع العقوق وظهور العقوق وما أكثر العقوق الآن في هذا الزمان للأمهات وللآباء من الأبناء، رغم العلم والشواهد والدكتوراه والماجستير وغيرها من الشواهد، ورغم ذلك تجد العقوق منتشر -والعياذ بالله-، وقلما تجد بارًّا بأبويه، قليل جدًّا في كل المجتمع، أما المجتمعات الغربية فهذا هو منهاجهم وهو المفاصلة والانفصال -والعياذ بالله- بين الأسرة، بين الأب وأبيه وبين الأب وابنه وبين البنت وأمها وأبيها -والعياذ بالله- ويترافعون في المحاكم ويقتل بعضهم بعضًا ويضرب بعضهم بعضًا، نسأل الله السلامة والعافية، أمر مهول في بلاد تزعم الرقي والحضارة، وأخص أنواع الحضارة يفقد في هذه الحضارة مع الأسف، الذي هو استقامة الحالة الاجتماعية، الحالة الاجتماعية من أكثر الأمور في بلاد الغرب انحرافًا، وفي الشرق، يعني الشرق الذي ليس فيه دين ولا إسلام، فهذه مما أخبر بها الرسول ﷺ حصل، العقوق هو الأصل والبرور هو القليل، فبلاد الغرب والبلاد التي طبقت قوانين -التي تسمى قوانين الحرية- كلها على هذا المنوال عصيان الآباء والأمهات والأزواج، وكل ما أمر الله -تبارك وتعالى- بطاعته فهم مخالفون له، وقد ذاقوا وبال أمرهم -والعياذ بالله- في الدنيا قبل الآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يأخذنا عنده إذا أراد بعباده فتنة، وأن ينجينا من هذه الأهوال، وألا نحضر هذه الفتن، فإنها قبيحة ومهولة، نسأل الله السلامة والعافية، وطبعًا فيها الدجال وفيها طلوع الشمس من مغربها وفيها أمور كثيرة، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] فالعلامات كثيرة كما سبق، ونرجو الله -تبارك وتعالى- ألا نكون فيها، وأن لا نوجد في أيام الفتن، فإن النبي ﷺ استعاذ من الفتن والصحابة استعاذوا من الفتن، والسلف استعاذوا من الفتن.

أقوال بعض أئمة القرن السابع والثامن الهجري في فهم السلف الصالح لكتاب الله

أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في فهم السلف الصالح لكتاب الله:

مع إمام الأئمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أقواله، في فهم السلف الصالح لكتاب الله مع تلامذته البررة الكرام شيخ الإسلام الإمام الحافظ ابن كثير وشيخ الإسلام الإمام الحافظ العلامة ابن القيم -رحمهم الله جميعًا-، فنصوصهم في هذا الباب نصوص واضحة جيدة، وهم كما قال القائل:

إذا قالت حذام فصدقوها ❖ فإن القول ما قالت حذام

فأقوالهم نابعة عن خبرة وعن اطلاع واسع لنصوص السنة ونصوص القرآن ولآثار السلف وأخبارهم وسيرهم -رضوان الله عليهم-؛ فقد تمكّنوا في هذا الباب تمكنًا لا يُجارى ولا يُبارى، فهم قدوتنا في هذا الباب وهم أئمتنا وسادتنا، فبهم نأتسي وبهم نقتدي؛ لأنهم أحيوا أثر السلف الصالح ودافعوا عليه وتبنوه،

فنرجو الله أن يثيبهم وأن يعظم أجرهم، وأن يجعل درجتهم في عليين، هم وآباؤنا وأمهاتنا وذريتنا وأزواجنا والمسلمون وآباؤهم وذريتهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال، التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، مثل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين، مثل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه".

هذه عبارة الشيخ رحمه الله في فهم السلف، وأنهم الذين شاهدوا القرائن والأحوال، وشهدوا التنزيل، وكانوا مع الرسول ﷺ في كل لحظات حياته، فهم أولى بكل خير وبكل سبق في الفهم وفي العلم وفي العمل.

ثم قال رحمه الله: "عن الإمام ابن جرير بسنده إلى ابن مسعود: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. هذا السند الصحيح الذي أخرجه الإمام ابن جرير رحمه الله إلى هذا الإمام الخرّيت العالم النحرير عبد الله بن مسعود، يقسم بالله، ما نزلت آيةٌ من كتاب الله إلا وعلم فيمن نزلت، بما أنه يستحضر أسباب النزول من بداية القرآن إلى نهايته؛ لأن القرآن -كما هو معلوم- فيه كثيرٌ من الآيات التي لها أسباب في نزولها؛ يعني: كانت حوادث فنزلت بسببها مثل آيات اللعان وآيات الظهار وآيات الخمر وآيات الطلاق، وآيات المواريث، وكثير من الآيات، وقد خصص العلماء لهذا الجزء تأليف أي أسباب النزول، وقد صحّ منها الكثير، ومن أشهرها (أسباب النزول) للواحدي، وكذلك للحافظ ابن حجر كتاب لكنه ناقص وقد طُبع وحُقق ما وُجد منه، وكذلك الشيخ مقبل

رَحِمَهُ اللَّهُ له كتاب (الصحيح من أسباب النزول)، وقد ذكرتُ كل ذلك في كتابي الذي ألفته في التفسير، وسميته (التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن)، فما تركت بفضل الله سببًا من الأسباب الصحيحة إلا وذكرته في ذلك الكتاب، ولعلي أخرجه من تفسير وأفرده بتأليف خاص إن شاء الله، وأخصه بمزيد من العناية في توضيحه والتعليق عليه وشرحه إن شاء الله.

المهم، إن هذا الحبر عبد الله بن مسعود يقول: اعلموا كل الآيات يعني كل الأسباب التي نزلت وفيمن نزلت ويقول: وأين نزلت، يعني: حتى المكان، يعني: بالمدينة أو بمكة أو بالطائف أو بالطريق أو في السفر أو في الحضر، مثل آيات التيمم نزلت في السفر، لما فقدوا الماء ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ [النساء: ٤٣] فالشاهد أن ابن مسعود عنده تتبع للآيات في أمكنة نزولها.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. يعني: غاية التواضع وغاية الخير وحب العلم والمزيد منه، لكنه من خلال هذه الجمل وهذه الكلمات نعلم أن الصحابة -رضوان الله عليهم- نالوا من علم التفسير ما لم ينله غيرهم؛ لأن هذه الأوصاف لا أظنها تنطبق على أحد غير الصحابة، ابن جرير على جلالة قدره وكبار المفسرين الذين بعد السلف بعد الصحابة- لا أظنهم قد بلغوا هذا المبلغ، وأنهم أحاطوا بهذا العلم، أحاطوا بأسباب النزول وبمكان النزول، وبالإحاطة الشاملة بكتاب الله؛ لا أظن هذا حصل للخلف الذي حصل للسلف رضوان الله عليهم.

ثم قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بالسند "عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن" يعني: هذا في تفسير ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ، نقله الحافظ ابن تيمية، يعني: هذا المنهج التربوي الدقيق

المتأني الذي يطلب العلم طلبًا حقيقيًّا، فكيف يفوته فهم الآيات وتفوته آيات الصفات، يعجز أن يعرف صفات الآيات وصفات الوجه وصفات المجيء وصفات الرؤيا وصفات العلم وصفات القدرة وكل الصفات التي وردت في كتاب الله، يعني: لا يخطر ببال عاقل ولا متأنٍ ولا منصف أن هذا قد يفوت الصحابة، ويفوت من بعدهم ممن أخذ عن الصحابة أو ممن أخذ ممن أخذ عن الصحابة، فلا شك أن هذا الأمر مهم.

أقول: هذا المنهج العظيم الذي كان عليه الصحابة في تلقي القرآن وفي فهمه، وفي دراسته، لا شك أنه هو المنهج الصحيح والمنهج الذي يكوّن الرجال في العلم والعمل.

ثم قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله: ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ حيث قال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))، هذه كلها نماذج خير ونماذج علم ونماذج بارزة في علم الصحابة وفي علماء الصحابة، وسبق أن وقفنا مع هذا الدعاء المبارك - لعبد الله بن مسعود، وذكرنا بأن اللفظ الذي أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام: اللهم علمه ((اللهم علّمه الحكمة)).

وهكذا ساق الإمام ابن تيمية رحمه الله هذه الآثار من منقولة من تفسير الإمام ابن جرير رحمه الله، ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، ثم قال: وقد مات ابن مسعود في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده عبد الله بن عباس ست وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود".

إذًا، هذا الاستنتاج من الشيخ أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ استنتاج واضح، أي تأخر عبد الله بن عباس عن عبد الله بن مسعود في الزمن بعدد كبير، مكّن له في العلم، وجعله يستقرئ كل ما أُثر عن رسول الله ﷺ من صحابةٍ آخرين.

فهذا التأخر جعله يلتقي بكبار الصحابة الذين أخذوا عن رسول الله ﷺ، ويجمع علمهم إلى علمه، فكان الملتقى لمشايخ الصحابة الكبار -رضوان الله عليهم- والصغار الذين عاصروه، فأخذ علومهم وأضافها إلى علمه، فكان كما يقال عنه البحر، ويقال عنه الحبر، فهو حبر وبحر في العلوم، وقد تفتق دينه ووأثر عنه من علوم ما يعرفه من تتبع أخباره وفتاواه وتفسيراته لكتاب الله، وروايته لسنة رسول الله ﷺ.

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن ابن عباس وقال الأعمش عن أبي وائل: "استخلف عليّ عبدَ الله بن عباس على الموسم -أي على الحج- فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا"، يعني هذا هو الوصف الذي وصف به عبد الله بن عباس في تفسيره، فموسم الحج كان موسم العلم وموسم الخير وموسم الفائدة، وليس يعني كما يقع الآن لكثيرٍ من الناس الذين يحجون ولا يستفيدون علمًا، ولا يحضرون حلقة ولا يستفيدون من العلماء؛ فهذه فائدة نستفيدها من واقع الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ أنهم كانت لهم العناية الفائقة بالعلم في الموسم، الموسم الذي هو مكان أتعاب ومكان مشقة، ومع ذلك قيل هذا الكلام في عبد الله بن عباس، أنه فسر سورة البقرة أو سورة النور، على أي حال فكان تفسيره يعني دعوة كبيرة للأمم الكافرة في ذلك الوقت، لو سمعوا تفسيره وتُرجم لهم إلى لغاتهم لأسلموا، فرضي الله عنه وأرضاه.

كل هذا يستدل به الشيخ ابن تيمية رحمه الله على فهم السلف، وأن السلف لهم التضلع الكبير في فهم كتاب الله، فهذا وصفهم لتفسير عبد الله بن عباس.

انتهى كلام الشيخ شيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي (موطأ الإمام مالك) رحمه الله: "أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها" يعني: هذا هو منهاجهم المبارك الطيب في العلم والتأني، وأخذ العلم بالتدريج وبالطرق التي يتغلبون فيها على المعلومات، البقرة قد يحفظها في وقت وجيز لكن الصحابة -رضوان الله عليهم- كان لهم هذا المنهاج المبارك، وهو من التأني؛ لأنهم يهمهم الفهم والعلم والعمل والقراءة الصحيحة، ونحن مع الأسف يهمنا أكثر شيء التسميع والتغني والتطريب، فقد انقلب القرآن -مع الأسف- إلى كثير من الأحوال السيئة، التي لا تجوز في شرحه، فليُتقيد بما جاء عن الله وعن رسول الله في قراءة كتاب الله، وبما كان عليه السلف وأئمة القرآن وأئمة القراءة في كل وقت.

قلت: فمن كان حاله هكذا في الكفاية يفوته حرف أو كلمة أو آية، لا يدري ما معناها، فقبح الله الجهمية ما أكثر جرأتهم على الله، وعلى سلفنا الصالح رضي الله عنهم؛ يعني: الذي يتجرأ في المعتاد مثلهم ومثل غيرهم أو المتأخرين الزنادقة من مستشرقين وأذنابهم والشيوعيين والعلمانيين، وهؤلاء السفهاء الذين لا يصلون لله ركعة ولا يركعون له، ويصفون السلف بالسطحية ويصفونهم بالجهل ويصفونهم بأن الخلف أعلم، وأحكم، ومنهاج السلف أسلم، هذا لا يليق، فمنهاج السلف هو الأعلم والأحكم والأسلم؛ لأن الإنسان إذا أخذ بعلم وبحكمة فقد وصل إلى السلامة، وإذا أخذ بالجهل وبالانحراف فقد ركب الخطر

وركب سفينة الغرق والعياذ بالله ؛ فلهذا منهاج السلف هو الأعلم والأحكم والأسلم، والمنهاج المخالف له هو المنهاج الذي فيه الهلاك والعياذ بالله.

أقوال الإمام ابن كثير في فهم السلف الصالح لكتاب الله :

ثم قال ابن كثير إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آيةً في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق، ثم ذكر بسنده عن مجاهد قال : "عارضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها"، لله درهم على الحرص، على العلم ؛ يعني مجاهد يعرض المصحف -القرآن كله- على ابن عباس -لأن في هذا الوقت جمع القرآن- ثلاث مرات، يقول : "من فاتحة الكتاب إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها" يعني : يسأل ابن عباس عن كل آية، يعني : أين هذا المنهاج الآن من مناهج الخلف التي ليس فيها علم، وإنما يغلب عليها الجهل، وتجد المفسر يكثر من ذكر الأحاديث الموضوعة والضعيفة والتي لا أصل لها، ويملأ تفسيره بكثير من القصص الهالكة، ويستجلب كل إسرائيلي، ولا تجد فيه من الصواب إلا القليل، وربما تجد فيه هرطقات الفلاسفة وسفاهات المتكلمين وانحرافات الجميع والأشاعرة، والدفاع عن ذلك عن الجهل -والعياذ بالله- كثير، فقد ذكرت في هذا الكتاب المبارك كثيرًا من المفسرين المنحرفين في باب الأسماء والصفات، وهم عدد كثير مع الأسف، الذين انحرفوا عن منهاج السلف في فهم الأسماء أو الصفات، ما أنزلوها على ما أنزلها عليه السلف رضي الله عنهم.

فالشاهد أن الحافظ ابن كثير رحمه الله يذكر هذا الأثر عن مجاهد، وهذا أيضًا منهاج عظيم؛ أن يجد تلميذ شيخًا مثل عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ، ويُوقفه عند كل آية ويسمع منه العلم والاستنباط والفهم الصحيح في كلّ آية من آيات القرآن، من فاتحته إلى خاتمته، هذا والله النعمة العظمى والكبرى، يا ليتنا وجدنا شيوخًا نُوقفهم عند كل آية ونعرض عليهم القرآن مثل هذا العرض، الله يجيبهم الله يجيب الشيوخ الذين يكونون مثل عبد الله بن عباس ويصطبرون على تعليم الأمة، هذا صبر عظيم، لا من طالب ولا من شيخ، أن يبدأ القرآن من أوله إلى آخره، وأن يستفيد هذه الفوائد، وليس بالمرة الواحدة، بل هي ثلاث مرات -ثلاث عرضات- كل عرضة يستجد فيها الجديد، يأتي فيها بالجديد، لاشك في ذلك؛ لأن تكرار التفسير وتكرار العرض وتكرار القرآن لابد يأتي بالجديد في كل مرة وفي كل عرضة.

ثم ذكر آثارًا عن ابن جرير رحمه الله، هذه كل الآثار نقلها الحافظ ابن كثير من تفسير الإمام ابن جرير، ثم ذكر بسنده إلى ابن أبي مليكة -عبد الله بن أبي مليكة المعروف الإمام- الذي يقول: "أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله، كلهم يخشى النفاق على نفسه" قال: "رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله".

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. لأنه جمع بين العلم وبين الإتقان، وبين الفهم وبين المثابرة على هذا الأمر، وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن

أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم". انتهى من كلامه الحافظ ابن كثير رحمه الله.

تتمة أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في فهم السلف الصالح لكتاب الله:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "السلف من الصحابة والتابعين وسائر الأئمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن، آيات الصفات وغيرها، وفسروها بما يوافق دلالتها وبيانها، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم، مثل عبد الله بن مسعود الذي كان يقول: لو أعلم بكتاب الله مني تبلغه آباط الإبل لأتيته، وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة"، إلى آخر ما ذكر الشيخ مثل الكلام السابق.

القصد، أن الصحابة ما فاتهم شيء من كتاب الله، ما فاتهم شيء فما فاتهم لا آيات الصفات ولا آيات القدر ولا آيات الألوهية ولا آيات الحساب ولا آيات المعاد ولا شيء من ذلك؛ يعني كل ما في القرآن فهموه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِئون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوهن حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، ولهذا كانوا يُبقون مدة في حفظ السورة، وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جُل في أعيننا -

عظم يعني-، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثماني سنين، ذكره مالك".

هذا كله كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله في برهنته على فهم السلف وعلى التصاقهم بفهم كتاب الله، مستدلًا بآيات القرآن وبواقعهم الذي كانوا عليه من العلم ومن التعلم، وهذه أدلة مقنعة لا شك في قبولها، ولا يشك فيها إلا من في قلبه مرض، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] وعقلُ الكلام متضمن لفهمه، ومعلومٌ أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فنٍّ من العلم -الطب والحساب- ولا يستشرحه، فكفى بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؛ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلٌ جدًّا وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد كما سبق، هذا كله كلام الشيخ في فهم الصحابة وفي فهم السلف.

وقال رحمه الله: "من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهمكانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم

أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسّر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول".

هذا كله كلام الشيخ وكلامه لو جمع بمفرده لكان رسالة عنوانها "كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم- لكتاب الله"، إنها جمل كثيرة منقولة عنه، وهي واضحة في تأكيده على هذا الموضوع، وأن المسلِم ينبغي له أن يرتبط به فهم الصحابة وبفهم السلف الصالح لكتاب الله.

أقوال الإمام ابن القيم في فهم السلف الصالح لكتاب الله:

وقال تلميذه الحافظ ابن القيم رحمه الله: "والمقصود، أن الله تعالى أكمل لرسوله ولأمته به دينهم وأتم عليهم به نعمته، ومحالٌ مع هذا أن يدع ما خلق له الخلق وأرسلت به الرسول وأنزلت به الكتب ونُصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة، وهو باب الإيمان به ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله- ملتبسًا مشتبهًا حقه بباطله، لم يتكلم فيه بما هو الحق، بل تكلم بما هو الباطل، والحق في إخراجه عن ظاهره، فكيف يكونُ أفضل الرسل وأجل الكتب غير وافٍ بتعريف ذلك، على أتم الوجوه مبين له بأكمل البيان موضح له غاية الإيضاح، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته، وهو أفضل ما اكتسبته النفوس وأجل ما حصلته القلوب، ومن المحال أن يكون ﷺ قد علمهم آداب الغائط قبله وبعده ومعه وآداب الوطء والطعام والشراب، ويتركوا أن يعلمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم، الذي معرفته غاية المعارف والوصول إليه أتم المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم بما ظاهره ضلال وإلحاد، ويحيلهم في فهم ما أخبر به عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله على

مستكرهات التأويل، وما تحكم به عقولهم، هذا وهو القائل: ((تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك))، وهو القائل: ((ما بَعث الله من نبيّ إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم))، وقال أبو ذر: "توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علمًا" وقال عمر بن الخطاب: "قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه" ذكره البخاري. فكيف يُتوهم من لله ولرسوله في قلبه وقار، أن يعتقد أن رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم، ولم يتكلم فيه بالصواب، معاذ الله! بل لا يتم الإيمان إلا بأن يُعتقد أن الرسول ﷺ قد بيّن ذلك أتم البيان وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يدع بعده لقائل مقالًا ولا لمتأول تأويلًا، ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأسبقها إلى كل خير قصّروا في هذا الباب، فجفوا عنه أو تجاوزوا فغلوا فيه، وإنما ابتلي من خرج عن منهاجهم بهذين الدائين؛ أي داء التقصير وداء الغلو.

الإمام ابن القيم رحمه الله في هذا العرض وفي عروضه كلها، يبين رحمه الله أن السلف ما فاتهم شيء بل فهموا الدين كله، ومن ضمن ذلك التوحيد وهو أول دين تعلموه عن رسول الله ﷺ، ومن بين ذلك الأسماء والصفات -فرضي الله عنهم وأرضاهم.

قال ابن القيم رحمه الله: "وقال شيخنا قدس الله روحه: والحال في هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف؛ حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها، واعتقدوا أنهم بمنزلة الأميين، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨]، وأن طريقة المتأخرين هي استخراج

معاني النصوص وصرفها عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستكرهات التأويلات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وراءَ ظهورهم".

ثم قال رحمه الله: "فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفةٌ دلت عليها هذه النصوص، فلما اعتقدوا التعطيل وانتفاء الصفات في نفس الأمر ورأوا أنه لابد للنصوص من معانٍ بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعاني، وهذا الذي هو طريقة السلف عندهم وبين صرف اللفظ عن حقيقته وما وضع له إلى ما لم يوضع له ولا دل عليه بأنواع من المجازات وبالتكلفات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان والهدى، فصار هذا الباطل مركب من فساد العقل أو الجهل بالسمع، فلا عقل ولا سمع، فإن النفي والتعطيل إنما اعتمدوا فيه على شبهات فاسدة ظنوها منقولات، وحرفوا لها النصوص السمعية عن مواضعها.

فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين، كانت النتيجة استجهال السابقين الذين هم أعلم الأمة بالله وصفاته، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين البُلّه الذين لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، وأن الخلف هم العلماء الذين أحرزوا قصبات السبق واستولوا على الغاية وظفروا من الغنيمة بما فات السابقين الأولين، فكيف يتوهم من له أدنى مسكة من عقل وإيمان أن هؤلاء المتحيرين الذين كثر في باب العلم بالله اضطرابهم وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبار الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم- أنه الشك والحيرة".

كل هذا من مقدمة (مختصر الصواعق المرسلة)، رحم الله العلامة ابن القيم وشيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله، الذي سطّر هذه السطور المباركة، والذي قارن

فيها بين منهاج السلف ومنهاج الخلف، وذكر أن الخلف تصوروا تصورًا خاطئًا وفهموا فهمًا بعيدًا فيما كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم- في فهمهم، وأن القواعد التي أتى بها الخلف هي القواعد التي توافق العقل وتوافق ما هم عليه.

فهذا التصور الذي تصوروه في السلف أوقعهم في هذه المزالق، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف، وبين رد النصوص السمعية من كتابٍ وسنة، وأوقعوا الأمة فيما أوقعوها فيه من عقائد باطلة مبنية على أوهام يستخرجها ويستجلبها من جهات خارجية، إما من اليونان وإما من النصارى وإما من غيرهم، لما تُرجمت الكتب التي ترجمها الخليفة العباسي المأمون، وانتشرت ترجماتها، واستخرج منها ما استخرج، فسدّوا الطريق على الأمة بألا يتصلوا بالسلف، وبقي هذا المذهب الباطل مذهب المتاهات ومذهب علم الكلام، يُنشر باسم التوحيد وأنه هو العلم الذي ينبغي أن يُعض عليه بالنواجذ، وصدف الناس عن علم السلف وعن فهمهم.

لكن ولله الحمد، تبقى الطائفة المنصورة التي تحيي هذه السنة، وتحيي هذه الآثار، ومنهم العلامة ابن تيمية والعلامة ابن القيم وابن كثير والمزي والذهبي وابن عبد الهادي، وغيرهم ممن عاش في هذا العصر الذين قاموا بنصرة السنة وإحيائها، وبينوا هذه المناهج الباطلة، وأنها مناهج مخالفة للصحيح الذي كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم-، وكتبهم ولله الحمد طافحة بهذا المنهاج المبارك -منهاج الدفاع عن السنة- وشجب البدعة، وأنها ينبغي أن ترجع إلى مقابرها، وأن الحياة من سنة رسول الله ﷺ ولما كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم وأرضاهم وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا.

فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا وأن يجعلنا على منهاج السلف في فهم كتاب الله وفي فهم سنة رسول الله ﷺ وأن نكون على المعتقد الذي يرضي الله، ويتابع فيه رسول الله ﷺ، ويرزقنا طاعته أبدَ الآبدين.

قواعد في الأسماء والصفات على طريقة السلف (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول : القواعد الأولى والثانية والثالثة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف ٩٣
العنصر الثاني : القاعدتان الرابعة والخامسة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف ٩٨
العنصر الثالث : القاعدة السادسة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف ١٠٤

القواعد الأولى والثانية والثالثة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف

القاعدة الأولى: لا بد لكل مسلم يريد أن يثبت لله اسمًا أو صفة أو فعلًا من دليل من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ:

لأن هذا من باب التحدث عن الغيب، الذي أُمرنا بالإمساك عنه، ولا حظَّ لنا فيه إلا ما أخبرنا الله به، أو أخبرنا به رسوله ﷺ ومَن فعل غير ذلك فقد دخل في وعيده النصوص.

إذًا المبدأ الأساسي في باب الأسماء والصفات في أن ننسب لله اسمًا، أو ننسب له صفة، أو ننسب له فعلًا، أو نسميه باسم، أو نصفه بصفة، أو نذكره بفعل لا بد من دليل من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ.

والحمد لله القرآن أفاد وأفاض في هذا الباب، فمن تتبع آياته العظيمة وجد بغيته، فإنه مليء بالأسماء والصفات، وقلَّما تجد آية إلا وتجدها ابتدأت باسم أو بصفة أو بفعل، أو ختمت، فكثير أو معظم الآيات على هذا المنهاج وعلى هذا المنوال. وجعل الله السورة التي فُرضت علينا قراءتها في كل ركعة نصفها في الأسماء والصفات، وهكذا أمهات الآيات القرآنية تجدها كذلك، فآية الكرسي وسورة "الإخلاص" وسور كثيرة، وفواتح السور، وخواتم السور، وخواتم الآيات تجدها في هذا السياق؛ فلا حاجة بالمسلم أن يستجلب اسمًا أو صفة من عنده، أو من رأيه، أو من نصٍّ غير موثق.

وسنة رسول الله ﷺ مليئة، ومَن تتبع أدعية الرسول ﷺ وجد ذلك ماثلًا في أدعيته، فما سأل ومنع إلا باسم أو بصفة أو بفعل، فهو يتوسل إلى ربه بأسمائه

وصفاته، يا حي يا قيوم، يا رحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأدعيته ﷺ وأدعية غيره من الأنبياء كانت بهذا في هذا الباب بأسمائه وبصفاته؛ فلهذا من تتبع القرآن، وتتبع السنن، وتتبع أدعية رسول الله ﷺ وجد ذلك كثيرًا ولله الحمد.

وحُرم علماء الكلم من هذا العلم، ودخلوه من غير بابه، فإنك لا تجد في قضاياهم علمًا، ولا فهمًا، ولا ذوقًا، ولا إيمانًا، ولا راحةً، ولا صدقًا، ولا أمانةً، تجدها كلها هرطقات، وكلها تلويك لكلام سابق ربما قد لا يفهمه من يكرره ويقرأه، فتقرأ عقيدة بكاملها في عقائد الكلام، ولا تخرج بذرّة من الإيمان، فلا تخرج إلا بقلب قاسٍ، هالك، لكن من قرأ نصوص القرآن ونصوص السنة في هذا الباب ابتلَّ بكل خير، وأصاب قلبه الغيث، أصابه الغيث من هذه الأسماء، ومن هذه الصفات، فهي غيث للقلب.

إلى هذا المستند لهذا هو الكتاب والسنة، ومن فعل غير ذلك فقد وقع في وعيد النصوص، فقد ذكرت في هذه القاعدة النصوص التي فيها الوعيد: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦]، ثم استقصت في ذكر الأدلة من الكتاب ومن السنة بما فيه الكفاية.

القاعدة الثانية: التصديق لله ورسوله في كل ما أخبر به من ذكر اسم أو صفة، أو فعل في كتابه، وعلى لسان النبي ﷺ:

فجميع النصوص التي وردت في الكتاب والسنة من الأمر بالإيمان وفضيلته كلها صادقة على هذا الباب، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ١-٣] هذا هو الشاهد، ثم ذكرت بقية الآيات، يعني: المسلم الصادق الذي صدق بالله وصدق برسوله وبكتبه لا يشكّ ولا يصيبه الشك في ما إذا سمع آية، أو حديث صحيح في اسم أو صفة، أو فعل، فما علة التصديق بالإيمان والتسليم، ويحمل ذلك على ما يليق بالله؛ لأن هذا من باب الغيب الذي أمرنا وأمرنا الله أن نصدق به؛ لأن الغيب هو العلم، وما يصدق به الإنسان من غيب أكثر مما يصدق به من مشاهدة، فتسع وتسعين من علم الإنسان كلها غيب، والقليل منها هو الذي شهد أو رأى بعينه أو سمعه بأذنه؛ أخبار الرسل، أخبار الأنبياء أخبار السلف، أخبار الأمم، بقية أجزاء الأرض التي لم يرها الإنسان، أخبار السموات، أخبار الآخرة، كل هذا غيب، وما رآه الإنسان، الكثير من الناس لم يرَ جده ولا جدته، بل بعضهم ما رأى لا أباه ولا أمه ولا أقاربه، ومع ذلك يصدق بذلك تصديقًا جازمًا. ولا يشك في ذلك.

فأسماء الله وصفاته من باب أولى وأسبق وأحرى، الله -تبارك وتعالى- أصدق قيلًا، ورسوله ﷺ هو صادق مصدق، فما جاء عن الله وما جاء عن الرسول من اسم أو صفة فموقف المسلم هو التصديق؛ لأنه آمن بالله وآمن برسوله، وآمن بكتبه وبسنة نبيه، فالمقدمات كلها صحيحة ومعتمدة، فما جاء بعدها فعلى سياق واحد وفي سياق واحد، فنحن نصدق باليد، ونصدق بالوجه، ونصدق بالقدم،

ونصدق بالمجيء، ونصدق بالرؤية، ونصدق بالعلم، ونصدق بالقدرة، ونصدق بكل ما أخبر الله -تبارك وتعالى- به، نصدق بالمشيئة، ونصدق بالإرادة، ونصدق بكل ما جاء؛ لأن هذا من باب التصديق بالغيب الذي أمرنا أن نصدق به، ولنا جزاء على ذلك في نصوص الكتاب، وفي نصوص السنة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إن هذا هو البر الحقيقي، ليس الإشكال فيما طرحه هذا الكتاب ولكن البر الحقيقي هو هذا، هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر.

القاعدة الثالثة: إثبات ذلك على مراد الله، إثبات يليق بالله تعالى على مقتضى قواعد اللغة العربية، وعلى فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم:

فهم أهل الهدى، وهم المقتدى بهم، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، وقد أجمع السلف الصالح -رضوان الله عليهم- على كل معاني الأسماء والصفات، ولم يخالف ولا واحد منهم.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها.

هذا الإمام ابن القيم رحمه الله ينقل الإجماع على ذلك، أي: يرى إثبات الأسماء والصفات على مراد الله كما سبق، القصد على مراد الله بما أننا نرجع في ذلك

إلى اللغة العربية ودلالة الألفاظ، ثم نرجع إلى فهم السلف الذين فهموا نصوص الكتاب والسنة، كما سبق فهم القدوة، فلا بد من أن يكون الإثبات على مراد الله، فلا تعطيل ولا تشبيه ولا تحريف، كما يقر بذلك الشيخ إسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره؛ ليثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه من غير تكليف ولا تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه.

هذا هو القصد، فلهذا على مراد الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهو لا يشبه خلقه في شيء، لكنه له صفات وهو السميع البصير، فهو سميع وهو بصير، لكن سمعه لا يُشبه سمع المخلوقين، ولا بصره يشبه بصر المخلوقين؛ فله سمع يليق به، وله بصر يليق به، وأكّد كل الصفات كما قال الإمام مالك، لما سُئل عن الاستواء؛ فقال: الاستواء هو معلوم، والكيف مجهول، كما أن الاستواء معلوم معروف في اللغة، وفي الفهم، لكن كيف يأتي الاستواء أن تحدده بمقاييس معينة وبألوان معينة، هذا لا يجوز. هذا هو الكيف، فلهذا كل الأسماء والصفات هكذا مثل للاستواء، له يد معلومة، وكيفيتها مجهولة، وله وجه معلوم وكيفيته مجهول، والسؤال عن الكيفية يأتي بدعة، يعني كل من سأل عن الكيف قد ابتدع، فلهذا قلنا في هذا الموضوع: إثبات ذلك على مراد الله، إثبات يليق بالله، فلا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، هذا هو القصد.

وأن نكون في ذلك دائمًا على حذار من كل الغلاة، أو من المقصرين، الغلاة الذين شبهوا، والمقصرون الذين عطلوا، فكل هذا نتجنبه، فلا نشبه ولا نُعطل، ولا كان بنا ذلك، نثبت صفة تليق بالله تبارك وتعالى، وهذا هو نصوص القرآن ونصوص السنة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الصمد: ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ ﴾، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] نصوص الكتاب والسنة كلها على هذا الباب، إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، الله -تبارك وتعالى- المنزه عن النوم؛ لأن النوم علامة الضعف، والله -تبارك وتعالى- قوي قوة لا تفنى ولا تنتهي، حجابه النور تبارك وتعالى.

القاعدتان الرابعة والخامسة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف

القاعدة الرابعة: قطع الطمع في إدراك الكنه والكيفية:

يعني أن الإنسان يثبت الصفة لكن الكنه والكيفية لا يسأل عنه، ويقطع طمعه أن يصل إليه؛ لأن الله ليس كمثله شيء، لا يمكن أن تصل إليه بأي حال من الأحوال؛ لأن هذا -كما سبق- ليس من باب الاستنتاج أو الرأي، ولهذا الإمام مالك أخذته الرحضاء لما سئل عن الكيف، بمعنى أن تغير حاله وخدعه العرق لشدة الأمر؛ لأن هذا فاجأه بسؤال عن الكيف، أما الإثبات فهو معروف، الاستواء معلوم، فكل الصفات هكذا أن نقطع طمع عن إدراكها، والآية في ذلك -كما سبق- معروفة في سورة "الإخلاص"، فلا يجوز لمسلم بحال أن يكيف صف من الصفات أو اسم من الأسماء أو فعل من الأفعال فيحدد بمقداره باللون أو بشيء من ذلك مما لم يرد في الكتاب والسنة، فلو قال في يد الله طول كذا وكذا، وعرضها كذا وكذا، ولونها كذا وكذا؛ لكان كافرًا بإجماع، وهكذا بقية الصفة من وجه وقدم وكرم وعلم ورحمة... إلى آخره.

إذًا الإنسان يثبت ولا يكيف، وهذا -ولله الحمد- هو المذهب الحق يعني الوسط بين مذهبين فاسدين، يعني: مثل ما قاله الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي

ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، يعني: أن مذهب الحق بين هذين المذهبين بين الدم وبين الفرث، فيخرج الحليب الصافي اللذيذ، هكذا مذهب السلف ومذهب أهل السنة، فإنه بين مذهبين فاسدين؛ مذهب التشبيه ومذهب التعطيل، فالْمُشبّه جريء على الله، قد شبهه بالمخلوقات، والثاني ضعيف التي كانت في العدم ثم وجدت، والمعطل جريء على الله؛ حيث حذف عنه ما يجب إثباته له، فما جاء في القرآن وما جاء في صحيح السنة يجب إثباته لله تعالى دون تقصير في ذلك، ودون تحديد؛ فلا نقول كما يقول الكلامي: عشرون صفة أو سبع صفات لا، هذا غلط وضلال، فلا عشرين ولا سبعة، فما جاء في كتاب الله كله لله من أسماء وصفات، من بداية القرآن إلى نهايته، فلا نخصص لإثبات بسبع فقط، أو بعشرين فقط، أو بأربعين فقط، أو بستين فقط لا، هذا كله غلط ومن تأثير علم الكلام من القضايا المنطقية الفاسدة، وإلا فلا حاجة لأن كله تكلف، ونحن نهينا عن التكلف، الله -تبارك تعالى- قال للنبي: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أي: النبي ﷺ ليس من المتكلفين، فدينه يسر وسهل وفيه طراوة وحلاوة، وليس فيه تعقيد ولا تقعقر، فنرجو من الله -تبارك وتعالى- أن يجعلنا من أهل الإثبات، وبدون تكليف، ولا تحريف، ولا تعطيل، ولا تمثيل، ولا تشبيه إنه سميع مجيب.

القاعدة الخامسة: المنهاج القرآني والنبوي في الأسماء والصفات والأفعال في الإثبات تفصيلي غير مجمل:

هذه القاعدة قاعدة مهمة كسابقيها، إن المنهاج القرآني والنبوي في الأسماء والصفات والأفعال في الإثبات تفصيلي غير مجمل، دائمًا عرض الأسماء والصفات في القرآن في صحيح السنن لا شك أنه تفصيلي، والقصد من

التفصيلي أنه يذكر الاسم والصفة مباشرة، وليس هو من باب الإجمال، فأنت لما تقرأ سورة "الفاتحة"، أو تقرأ سورة "الإخلاص"، أو تقرأ آية الكرسي، أو تقرأ أواخر "الحشر" وغيرها من أمهات آيات الصفات والقراءة، بداية "طه"، أو بداية "يونس"، أو به سورة من السور التي فيها أمهات الأسماء والصفات؛ تجد هذا الأمر يعني: واضحًا، يعني: تفصيلي ليس فيه إجمال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ما فيه إجمال كلها واضحة، وكلها مفصلة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١- ٥]، كلها أسماء مفصلة يعني واضحة، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ١- ٣].

فنصوص القرآن وأمهات الآيات في الأسماء والصفات تجدها لأن فيها إثبات مفصل، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ [الفتح: ٦] تجد الصفات كلها والأسماء لا تجد فيها إجمال، يعني هو الغفور، هو الودود، هو الرحيم، هو الرحمن، وهو المالك، تجد هذه كلها من نصوص: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، لا تجد إجمال في نصوص الإثبات، كل القرآن من أوله إلى آخره في هذا الباب إثبات مفصل ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٣- ١٥] كلها إثبات مفصل.

إذًا المنهاج القرآني والنبوي في الأسماء والصفات والأفعال في الإثبات تفصيلي غير مجمل، بخلاف النفي في القرآن تجده مجملًا، يتضمن كمالًا، أي تجد نفي في القرآن إلا وتجد فيه الكمال: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، هذا نفي لكنه فيه إجمال، هذا النفي دائمًا يتضمن كمال قيومية، ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ بمعنى يتضمن كمال القيومية.

على كل حال دائمًا الإثبات الموجود في القرآن تفصيلي، والنفي هو إجمالي، لكن هذا الإجمالي فيه كمال، يتضمن كمالًا: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣] هذا نفي، لكن يتضمن كمال العلم، وأنه مطلع على كل شيء، فكل نفي لا بد أن يتضمن كمالًا ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يعني الكمال القيومية.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة النبي ﷺ في أسماء الرب تعالى وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل، مهد الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إذًا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر مجموعات من الآيات في (التدمرية) وفي (الوسط) وفي غيرهما، ثم قال هذه العبارة، وأن هذه طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما ما زاغ وحادا عن سبيلهم من الكفار والمشركين والذين أُوتوا الكتاب ومن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة، والجهمية، والقرامطة، والباطنية، ونحوهم؛ فإنهم على ضدِّ ذلك، يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له على وجه التحصيل، وإنما يُرجع إلى وجود في الأذهان يُمتنع تحققه في الآن.

فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنه يمثلونه بالممتنعات والمدومات والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات، يعني: مقارنة وخبرة للشيخ رحمه الله، ومن رجع إلى كتب الكلام وكتب الأشياء وكتب الماتريدية يجد هذا ماثلًا، يعني إذا قرأت كتبهم تجدها كلها نافية، كلها تعطيل، متصلة على الصفات في القرآن، فعطلوها باسم التأويل، كما سيأتي إن شاء الله.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] قالوا: لا. قالوا: وغضب الله عليهم. قالوا: لا، يعني كلها عن النفي والصفات، فالغضب مؤول عنه بإرادة الانتقام، والمحبة مؤول عنهم بإرادة الثواب، والوجه المقصود به الذات، واليد مقصود به القدرة، وهكذا، الله تعالى يقول شيء وهم يقولون شيء آخر، فتسلط على الصفات فعطلوها، وإذا أثبتوا أثبتوا، وإذا نفوا نفوا بالتفصيل، لا هو في مكان، ولا هو كذا، يعني: أشياء ما أُمر بذكرها، ومع ذلك يذكرونها، لا هو ذو أجزاء، يعني: لا هو في مكان يعني: يقصد بها نفي، يعني: الاستواء والعلو، لا هو كذا لا هو كذا، تجد نفي مفصَّل، صفحات كلها في النفي، وإن شئت جئتك بصفحاتهم وقرأتها عليك، فالشاهد عند المتكلم كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو غيرهم النفي بالتفصيل، وفي النهاية لا يثبتون شيء؛ لأن هذا النفي الذي ذهبوا عليه وصاروا عليه محصله لا وجود لما يذكر، كما قال، ويعطل الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزمون فيه الذات، كما سبق.

ولهذا قالوا: إنما يُرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الآن، هذا هو مذهب المتكلمين.

أما مذهب السلف ومذهب القرآن؛ ففي القرآن قال الشيخ -كما سبق-: وأما النفي على طريقة القرآن والسنة في الأسماء والصفات والأفعال، فكله مجمل يتضمن كمالًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وإن بغى أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال، إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم المحض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو -كما قيل- ليس بشيء؛ فضلًا عن أن يكون مدحًا، ولا كمالًا.

ولأن النفي المحض يُوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف به مدح ولا كمال، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدح كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إلى قوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفي السِّنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم، يعني: هذا النفي تضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم، وكذلك قوله: ﴿ ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا ﴾ أي: لا يكرث أو لا يثقل، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على شيء بنوع كلفة، وما شق فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته.

وكذلك قوله: ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [سبأ: ٣] فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض، وكذلك قوله: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق: ٣٨] فإن نفي مسّ اللغوب الذي هو التعب والإعياء دلَّ على كمال القدرة وعناية القوة بخلاف المخلوق الذي يلحقه من تعبير الكلام ما يلحقه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قال أكثر العلماء. ولم ينفِ مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يُرى، وليس في كنه لا يرى مدح؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدح في كونه لا يحاط به، وإن رُؤي كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علمًا، فكذلك إذا رؤي لا يحاط به رؤية؛ فكان ما في الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحًا وصفة كمال، وكان ذلك دليلًا على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة. وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

إذًا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى هذا التحقيق، وأن هذا من تتبع آيات القرآن وتتبع آيات السنة، وأن المنهاج الحق في باب الأسماء والصفات هو إثبات المفصل والنفي المجمل الذي تضمنه كمالًا، وإذا خلف الإنسان هذا فقد خرج على منهاج القرآن ومنهاج السنة، ومنهاج السلف الصالح، أما منهاج المتكلمين والفلاسفة وغيرهم فهو منهاج باطل لا خلاف فيه، فمآله إلى العادة.

القاعدة السادسة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف

القاعدة السادسة: تسمية الله ووصفه ببعض الأوصاف، وتسمية المخلوق ببعض الأسماء ووصفه ببعض الأوصاف لا يستلزم المشاركة:

فالله -تبارك وتعالى- له أسماؤه وصفاته، وأفعاله تليق بجلاله، والمخلوق له أسماؤه وصفاته وأفعاله تليق بعجزه وضعفه، وقد وضح القرآن والرسول ﷺ هذه القاعدة أحسن توضيح، لا شك أن القصد من هذا القاعدة، وهو في القرآن

وفي السنة ذكر لأسماء الله وصفاته، ومن هذه الأسماء ومن هذه الصفات ما يوصف به الإنسان، فهل هذه المشاركة في الأسماء والصفات معناها أن هناك تشابه في الذكر، أو فقط تشابه في الأسماء.

فالله -تبارك وتعالى- عليم، ويوصف المخلوق بأنه عليم، لكن هل علم الله هو علم المخلوق؟ لا، علم الله لا بداية له ولا نهاية، وعلم المخلوق له بداية وله نهاية وله مقدار، وعلم الله -تبارك وتعالى- لا يقدر بقدر لا نهاية له: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]، ولهذا النبي ﷺ لما بعث الخضر إلى موسى في ما ذكره الله -تبارك وتعالى- في القرآن في سورة "الكهف" باختصار: إن العلماء كان في بجانب البحر رأى طائرًا جاء هذا الطائر ونقر نقرة في البحر بمنقاره، فقال الخضر لموسى: هل رأيت؟ قال: نعم. قال: مثل علمك وعلمي في علم الله مثل ما أخذ الطائر من هذا البحر، فهذه مقارنة الخضر وتعليمه لموسى عليه السلام في علم الله،

وهكذا نقول في بقية الصفات، يعني: قدرة الإنسان مع قدرة الله، حلم الله مع حلم المخلوق، إرادة الله مع إرادة المخلوق، كرم الله مع كرم المخلوق، بصر الله مع بصر المخلوق، يد الله مع يد المخلوق، النبي ﷺ لم يقل في الله يضع السموات على هذه، ويضع الأراضين على هذه وذكر بقية المخلوقات.

فمن له هذه القدرة أن يضع السموات على هذه والأراضين على هذه؟ الإنسان ماذا يحمل؟ وماذا يقدر؟ ما هي قدرته؟ أم ماذا يقدر؟ فالشاهد: أنه لا مقارنة بصفات الخالق وصفات المخلوق في الكون والحقيقة، ولكن في الأسماء تشترك ويُنزَّل كل اسم وكل صفة على ما يليق بمن ذكر، من وصف به، أو من سمي به، قال ابن تيمية عليه السلام في (التدمرية) لأن هذا الموضوع أعطاه حقه الشيخ في

التدمرية، ووسع فيه المقال، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا، قال ابن تيمية ﷺ في (التدمرية): فلا يقول عاقل إذا قيل: إن العرش شيء موجود، وأن البعوض شيء موجود أن هذا مثل هذا؛ لاتفاقهما في اسم الشيء والوجود، لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه، بل الذهن يأخذ معنى مشتركًا كليًّا، وهو مسمى الاسم المطلق، وإذا قيل: هذا موجود وهذا موجود فوجود كل منهما يخصه لا يُشركه فيه غيره، مع أن الاسم حقيقة في كل منهما.

يعني: هذا مثال كما ذكرت على نبي الله موسى مع الخضر، فلا شك أن الوجود هو وجود العرش، اسم موجود، فيصدق عليه، والبعوض يصدق على اسم الوجود، وأنها موجودة، وكل سمع لكلمة العرش يعرف مدى عظمة العرش، ومدى مقدار ما هو عليه العرش؛ فالعرش أعظم المخلوقات، فهو أعظم من الكرسي، وأعظم من السموات، وأعظم من الأراضين، فالعرش هو أعظم المخلوقات، فهل أعظم المخلوقات يُقارن بأضعاف المخلوقات الذي هو البعوض، البعوض لا شيء لكنه موجود، يعني لا أحد ينفي وجود البعض يقول: غير موجود.

فالشاهد أن الشيخ ﷺ مثّل بالعرش لأنه أعظم المخلوقات، ومثل بالبعوض الذي هو أدنى المخلوقات، وبنا وما، يعني الاسم المشترك الذي هو موجود، والذهن إذا ذُكر العرش يتصور مكانة العرش وعظمة العرش، وإذا ذكر البعوض يتصور مكان البعوض وضعف البعوض، وحقارة البعوض.

وهكذا لو قلنا مثلًا: البحر موجود والبئر موجود، فكم بنا وما من نسبة، والبحر موجه تتلاطم بالأمطار، والبئر فيه ماء قليل، يعني: ما قلنا في البئر لا يمكن أن يقارن بالبحر في بيئه، يعني: لا وجه للمقارنة، ومع ذلك هذا موجود وهذا

موجود وهذا فيه ماء وهذا فيه ماء، لكن الفرق بينهما كبير، فأي سامع إذا قلت له البئر وقلت له البحر، فذهنه يفرق بين الموجودين، يعني: وجود البحر ووجود البئر، وهكذا في كل ذكر لأي مخلوقات، أو لأي مقارنة بين أسماء الله وبين صفاته في كل شيء، فتجد الفارق كبير لكن وقع الاشتراك في الأسماء.

القرآن والسنة فيهما من الأسماء والصفات ما أطلق على الإنسان المخلوق، وما أطلق على الله -تبارك وتعالى- فيما يختصّ به:

وهذه الأسماء أطلقت على الله وأطلقت على المخلوق فنذكر نماذج كثيرة ذكرها الإمام ابن تيمية عليه السلام في كتابه العظيم (التدمرية) فعقد عليه السلام مقارنة طيبة بين ما ورد في أسماء الله وصفاته في القرآن والسنة، وما ورد من أسماء وصفات في القرآن مما أطلق على المخلوقات.

قال عليه السلام بعدما ذكرنا الشرح السابق: ولهذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه، لا يشركه فيه غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قُطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما، واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة، والتخصيص، واتفاقهم ولا تماثل لمسمع للإضافة والتخصيص فضلًا عن أن يتحد مسماهما عند إضافة والتخصيص.

إذًا الإطلاق لا يفيد إلا المدلول العام، المفهوم من الإطلاق، فإذا قلنا: العليم هذا مجرد، وإذا قلنا الحليم هذا مجرد، وإذا قلنا الحي هذا مجرد، لكن لما نصف الله -تبارك وتعالى- بالحياة، فهذا يختصّ بالله، وإذا وصفنا المخلوق بالحياة يختص

بالمخلوق بحياته؛ فالاشتراك في الاسم لا يدلّ على التماثل، لكن يدل على الإطلاق الخاص بالله والإطلاق الخاص بالمخلوق، فالله -تبارك وتعالى- له اسمه وصفاته التي تليق به وبكماله وبقائه، والمخلوق له كذلك اسمه وصفاته التي تخص به، فتليق بضعفه وعجزه وعدمه وفنائه.

فكل إطلاق يقيد بإضافته أو بوصفه أو بالإخبار عنه، كما هو معلوم ومعروف، قال الشيخ ابن تيمية ﷺ: فقد سمى الله نفسه حيًّا؛ فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وسمى بعض عباده حيًّا فقال: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [يونس: ٣١]، وليس هذا الحي مثل هذا الحي؛ لأن قوله: ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ اسم لله مختص به، وقوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ اسم للحي المخلوق مختص به، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا على التخصيص كما سبق، ولكن ليس للمطلق المسمى وجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق القدر المشترك، أي فهم ليس من العام من المسميين، وعند الاختصاص يُقيَّد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق.

إذًا الإطلاق مشترك والإضافة والوصف يقيد، وكل ذلك ينصرف إلى من يليق به ذلك الاسم، فحياة الله غير حياة الإنسان، حياة أبدية لا أول لها ولا نهاية لها، حياة مبتدأة ومنتهية وضعيفة حياة المخلوق، فإذًا كل له، إذًا يُفهم من الإطلاق والتقييد ما يليق بكل إطلاق على ما يليق به، قال الشيخ رحمه الله: ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يُفهم منها ما دلَّ عليه اسمه بالمواطئة وبالاتفاق، وما دلَّ عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من اشتراك المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى، وهذا المفروض أن يكون من أولويات الإفهام والعلم، وأن الله تعالى له ما يليق به والمخلوق له ما يليق به؛ لأن المحسوسات

تدل على ذلك، فلا مشابهة ولا مماثلة بين الخالق والمخلوق في شيء، إلا في الاشتراك في إطلاق الاسم فقط.

وكذلك سمى الله نفسه عليمًا حليمًا، وسمى بعض عباده عليمًا فقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] يعني: إسحاق، وسمى آخر حليمًا فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] يعني: إسماعيل، وليس العليم كالعليم ولا الحليم كالحليم، يعني: الفرق بينهما كما هو فرق بين الخالق والمخلوق، فوصف إسحاق بالعليم ووصف إسماعيل بالحليم، يليق بإسحاق ويليق بإسماعيل، ووصف الله -تبارك وتعالى- بالعليم الحليم يليق بكماله، فحلمه -تبارك وتعالى- ليس هو حلم إسماعيل، وعلمه -تبارك وتعالى- ليس هو علم إسحاق، وسمى نفسه سميعًا بصيرًا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وسمى بعض عباده سميعًا بصيرًا فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ولا السمع كالسمع ولا البصر كالبصر، وصار للإنسان محدود، ويليق بحالته وبحاجته وبضعفه، وبصر الله -تبارك وتعالى- هو البصر، فلا تخفى عليه خافية، فلا حواجز عليه، ولا تحجزه الأجرام، فهو -تبارك وتعالى- يبصر البصر النهائي الذي لا حدود له، ولا حجوب عليه، وكذلك سمعه -تبارك وتعالى- يسمع السر وأخفى، كما قالت عائشة أم المؤمنين لما حضرت مجادلة خولة للرسول ﷺ في الظهار، فكانت في آخر البيت فلا تسمع كلامًا كاملًا، ولكن الله -تبارك وتعالى- يسمعه من فوق سبع سموات، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ [المجادلة: ١]، فالفرق بين سمع أم المؤمنين وسمع الله -تبارك وتعالى- مثل ما بين الخالق والمخلوق، فالله -تبارك وتعالى- سمع صوت المجادلة في البيت وفي الأرض،

وهو -تبارك وتعالى- مستوٍ على عرشه، وأم المؤمنين في آخر البيت لم تسمع الكلام كاملًا، وإنما هي سمعت أصوات فقط، فأنزل الله -تبارك وتعالى- الجواب الكامل للنبي ﷺ في قصة هذه المرأة الطيبة التي اشتكت إلى الرسول ﷺ.

فإذًا الفرق بين السمع والسمع والفرق بين البصر والبصر، فالصفة تناسب الموصوف وجودًا وعدمًا، فالله -تبارك وتعالى- تناسب صفاته أسماؤه والمخلوق تناسب صفاته أسماؤه، لكن الاسم المشترك بينهما والتخصيص يخصص كل ما أطلق على الاسم.

وسمى نفسه بالرءوف والرحيم؛ فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وسمى بعض عباده بالرءوف الرحيم فقال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وليس الرءوف كالرءوف ولا الرحيم كالرحيم، وسمى نفسه بالملك فقال ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾، وسمى بعض عباده بالملك فقال: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ [يوسف: ٥٠]، وليس الملك كالملك، واسترسل الشيخ رحمه الله في ذكر الأمثلة، وهي كثيرة.

ووصف نفس بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإذًا المحبة هي في الله تليق به، وفي المخلوق تليق به، فالمحبة غير المحبة لكن المشترك بين الله -تبارك وتعالى- وبين خلقه وهو الاسم والدلالة على المعنى، لكن بإضافة التقييد وما يليق بالله، وما يليق بالمخلوق كما سبق.

ووصف نفسه بالرضا ووصفه عبده بالرضا؛ فقال: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [المائدة: ١١٩]، ومعلوم أن مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد ولا إرادته مثل إرادته ولا محبته مثل محبته، ولا رضاه مثل رضاه.

وكذلك وصف نفسه بأنه يمقت الكفار ووصفهم بالمقت؛ فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴾ [غافر: ١٠]، وليس المقت مثل المقت.

وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد كما وصف عباده بذلك؛ فقال: ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] وليس المكر كالمكر ولا الكيد كالكيد.

قال الشيخ رحمه الله: فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه، فمن قال: ليس لله علم ولا قوة، ولا رحمة ولا كلام، ولا يحب ولا يرضى، ولا نادى ولا ناجى، ولا استواء؛ كان معطلًا جاحدًا ممثلًا لله بالمدومات والجمادات.

إذًا هذا نوع من الانحراف في باب المعتقد الذين يعطلون الله -تبارك وتعالى- عن أسمائه وصفاته، ويمثلونه بالمدومات، والجمادات فوصفه -تبارك وتعالى- بكل ما يليق به، فهذا من كماله، ونفي ما وصف به نفسه، فهذا لا شك من نفي الكمال عنه والدعوة إلى أنه ليس له وجود.

تشبيه التمثيل:

ثم قال الشيخ رحمه الله: ومن قال: له علم كعلمي أو قوة كقوتي، أو حب كحبي، أو رضاء كرضائي، أو يدين كيديني، أو استواء كاستوائي؛ كان مشبهًا ممثلًا لله بالحيوانات، بل لا بد من إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. هذا النوع

الثاني من الانحراف وهو تشبيه التمثيل، أي: تمثيل الله تبارك وتعالى وتشبيهه بالمخلوقات في الصفات، فذاك التفريط وهذا الإفراط، أولئك فرطوا وهؤلاء أفرطوا، وأهل السنة بين هذين المثالين الفاسدين، بين التعطيل وبين التشبيه، فهو إثبات بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تشبيه.

قال الشيخ رحمه الله: ويتبين هذا بأصلين شريفين ومثالين مضروبين، ولله المثل الأعلى، الشيخ رحمه الله بعد ما ذكر هذه المقارنة في الصفات والأسماء بين الخالق والمخلوق أراد أن يبين وأن يمثل ذلك بأصلين وبمثالين، فالأصل الأول وهو هناك بعض من يثبت بعض الصفات وينفي البعض، فالأشاعرة يثبتوا سبع صفات ويسمونها صفة المعاني، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وهذه يثبتونها، فالشيخ رحمه الله يلزمهم بأن من أثبت بعض الصفات عليه أن يثبت الباقي، ولا فرق بين ما أثبته ولا بما نفاه، لا فرق، الكل سواءٌ، صفة العلم كصفة الغضب وكصفة المحبة، وكصفة اليد، وكصفة الوجه، فهذه كلها صفات لله تعالى، وذكرها في القرآن واحد، لم يخصص لها نوعية معينة تثبت هذه وتنفي هذه، فكلها ذكرت ذكرًا واحدًا وسقت مساقًا واحدًا، فالذي يثبت بعض الصفات يثبت الباقي، والذي يثبت الأسماء كالمعتزلة عليه أن يثبت الصفة، فلا فرق الذي يثبت الأسماء يثبت الصفة.

ولهذا جعل الأصل الثاني وهو الذي يثبت الذات يثبت أيضًا الصفة لا فرق، فإذا أثبت الذات يثبت الصفة، فالذي يجرى على الذات من الوجود يجري على الصفات من الوجود، لا فرق بين هذا وذاك، فلهذا ألزمهم رحمه الله بهذين الأصلين، وضرب لذلك مثلين؛ المثل الأول: طعام أهل الجنة، والمثل الثاني: هو الروح، لعلنا نقرأ ذلك؛ لأن في قراءة كلامه بركة، وفيها توضيح أكثر، ولعلنا نزيد ذلك توضيحًا أكثر في القراءة.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: فأما الأصلان فأحدهما أن يقال: القول في بعض الصفات كالقول في بعض، فإن كان المخاطب ممن يُقرّ بأن الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصير، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة وينازع في محبته ورضاه، وغضبه وكراهيته، فيجعل ذلك مجازًا، ويفسر إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات، هذا كلام الشيخ رحمه الله.

إذًا كلامه في ذلك واضح، قيل له: لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن قلت: إن إرادته مثل إرادته المخلوقين، فكذلك محبتهم ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل، وإن قلت: له إرادة تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به؛ قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به؛ فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يُلزمهم بإلزامات واضحة وهي لا يمكن أن ينفك العاقل عنها والذي يريد الإنصاف، فالصفة تجري في سياق واحد وفي مجرى واحد؛ فلا يفرق بين غضب ولا بين علم ولا بين إرادة، ولا بين نقص، ولا بين كراهية، ولا بين مكر، فإن كل ما ورد في القرآن ينبغي أن يجري عليه الفهم فهمًا واحدًا، والسياق سياقًا واحدًا، فلا يجوز بطر القواعد والأصول، فنأصل القواعد لمجموعة من الصفات نسميها الصفات المعاني، ونترك الباقي ونؤولها ونعطلها، فساق رَحِمَهُ اللَّهُ وبدأ يُعلن كل قضية.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا يتبين بالأصل الثاني، وهو أن يقال القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات فالذات متصلة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات، فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟ قيل له كما

قال ربيعة ومالك وغيره: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن الكيف بدعة. لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى سماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: أنا لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرعٌ له، وتابعٌ له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه ونزوله واستوائه وأنت لا تعلم كيفية ذاته، وإذا كنت تقر بأن له ذات حقيقة ثابتة في نفس الأمر ما استوجبت لصفة الكمال لا يُماثلها شيء؛ فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستوائهم.

هذا الكلام لازمٌ لهم في العقليات وفي تأويل السمعيات، فإن من أثبت شيئًا ونفى شيئًا بالعقل إذا أُلزم فيما نفاه من الصفات التي أتى بها الكتاب والسنة نظير ما يلزمه فيما أثبته، وطُلب بالفرق بين المحظور في هذا وهذا لم يجد بينهما فرق، ولهذا لا يجده لنفاة بعض الصفات دون بعض، الذين يوجبون فيما نفوه إما التفويض وإما التأويل المخالف لمقتضى اللفظ قانون مستقيم.

فإذا قيل لهم: لما تأولتم هذا وأقررتم هذا، والسؤال فيهما واحد لم يكن له جواب صحيح، فهذا تناقضهم في النفي، وكذلك تناقضهم في الإثبات، فإن من تأول النصوص على معنى من المعاني التي يُثبتها فإنهم إذا صرفوا النص عن المعنى الذي هو مقتضاهم إلى معنى آخر؛ لزمهم في المعنى المصروف إليه ما كان يلزمهم في المعنى المصروف عنه.

نحاول أن نذكر فيها المثالين اللذين ذكرهما الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما المثالان المضروبان فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، فأخبرنا أن فيها لبنًا وعسلًا وخمرًا وماء ولحمًا وفاكهة وحريرًا وذهبًا وفضة، وحورًا وقصورًا، يعني: هذا كله في سور القرآن خصوصًا سورة "الرحمن"، وسورة "الواقعة"، وسورة "عم"، وسور كثيرة في مختلف القرآن، وسورة "الحج"، وسورة "البقرة"، وسورة "الكهف"، وسور كثيرة فيها أنواع من نعيم الجنة، قصة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الله -تبارك وتعالى- قصَّة عن هذه الأسماء التي هي الحرير والذهب والفضة والنساء والحور والقصور، فبالمقارنة ب هذه الأسماء التي في الآخرة مع الأسماء التي في الدنيا، هناك مقارنة يعني مثلًا من حيث الكيفية؟ لا مقارنة، الله تعالى قال في النساء: ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥] أزواج مطهرة، فالفرق بين هذه الأزواج وهؤلاء -والتي في الدنيا، والتي في الآخرة- ففرق بين هذه الأزواج وبين هذه الأزواج.

قال: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الدخان: ٥٣] يعني: السندس والاستبرق غير السندس والاستبرق الذي في الدنيا، هذا فيه صانع وفيه ناسج وفيه كذا، وفيه أمور ويتعرض لكثير من الآفات للخرق للبلى لكذا، لكن سندس الآخرة الله أعلم به وبكيفيته، كيف هو وفي جماله، وفي ديمومته، وفي حاله، وفي أحواله، فالشاهد أن هناك فرق بين الأسماء التي ذُكرت في الدنيا والأسماء التي ذكرت في الآخرة من النعيم في الجنة، فكذلك أسماء الله وصفاته فرق بينها وبين أسماء وصفات المخلوقات، فكما أن هذه الأسماء التي في الآخرة لا تُقارن بالأسماء التي في الدنيا كذلك.

فقصد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يبين أن هناك أمثلة عملية يعرفها الإنسان ويقرأها وينتقضها، فلا يصعب عليه أن يقارن بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فلا فرق بين هذا

المثل وبين ما مثل به الشيخ، بين صفات الله -تبارك وتعالى- وصفة المخلوق، مثل هذه الأمثلة التي ذكر في الأسماء التي توجد في الدنيا والأسماء التي توجد في الآخرة من نعيم الجنة.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء كذلك، يعني: أسماء الإنسان وصفاته بالمقارنة بأسماء الله وصفاته هي مجرد أسماء فقط، وإلا أسماء الله وصفاته غير أسماء الله وصفات المخلوقين فهي تختلف اختلافًا كبيرًا، فتلك تليق بالله وتلك تليق بالمخلوق.

فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها، بل بينهما من التباين مما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ فالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا؛ إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق، وهذا بيّن واضح، ولهذا افترق الناس في هذا المقام ثلاث فرق.

إذًا هذه التوطئة في المثل الذي ضربه الشيخ المثل الأول في قضية الأسماء التي في الدنيا بالمقارنة بالأسماء التي في الآخرة في الجنة بالمقارنة بأسماء الله وصفاته بأسمائه والصفات للمخلوق. قال: ولهذا افترق الناس في هذا المقام ثلاث فرق: فالسلف والأئمة وأتباعهم آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه، مع علمهم بالمباينة التي بين ما في الدنيا وبين ما في الآخرة، وأن مباينة الله لخلقه أعظم، هذا كلام السلف، وهو كذلك.

والفارق الثاني: الذين أثبتوا ما أخبر الله به في الآخرة من الثواب والعقاب ونفوا كثيرًا مما أخبر به من الصفات مثل طوائف من كلام المعتزلة ومن وافقهم؛ إذًا هؤلاء أثبتوا ما أخبر الله به في الآخرة من الثواب والعقاب، ونفوا كثيرًا مما أخبر به من صفاته، يعني:

كل هذا أيضًا تناقض؛ لأن المفروض أن يكون الباب باب واحد، يعني: الإثبات إثبات واحد.

والفارق الثالث: نفوا هذا وهذا كالقرامطة الباطنية والفلاسفة أتباع المشائين، ونحوهم من الملاحدة الذين يُنكرون حقائق ما أخبر الله به عن نفسه، وعن يوم الآخرة.

ثم ذكر الشيخ كلامًا كثيرًا في هذا الموضوع الباطنية، المثل الثاني: وهو الروح التي فينا، فإنها قد وصفت بصفات ثبوتية وسلبية، وقد أخبرت النصوص أنها تعرج وتصعد من سماء إلى سماء، وأنها تقبض من البدن، وتسل منه كما تسل الشعرة من العجين، لأنها جاء في حديث البراء وفي غيره من الأحاديث أن الروح تصعد من سماء إلى سماء، الذي يريد أن يرجع إلى الحديث في (سنن الترمذي) بصيغة طويلة، وقصده أن الروح لها ذكر، ولها وجود، ولها وقوع، ومع ذلك لا يستطيع الإنسان أن يكيفها، ولا تجد من العلماء من يستطيع تكييفها، وأن يقول: كالروح هي كذا، والروح هي كذا، صغيرة ولا كبيرة، ولا في الجسد كله، ولا في جزء من جسد، ولا في مكان معين وكيفية خروجها، وكيفية دخولها في الإنسان، كل هذا يجري على الإنسان، وهي روحه التي بين جنبيه، وهي التي ارتبطت بها حياته؛ بحيث إذا غادرته يصبح جثة هامدة لا تتحرك، ويقال: خرجت روحه، وطلعت روحه، وليس فيه روح، الشاهد: أن هذه أقرب إلى الإنسان حتى من كل شيء، ومع ذلك لا يستطيع تكييفها، واضطرب الناس في تكييفها، ولم يأتِ هناك قول تستطيع أن تعتمده، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى- في القرآن: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

البحث عن هذه الموضوع بحث شائك وغير مجدي، ولا يستطيع صاحبه أن يخرج بنتيجة واضحة، فلهذا قال الشيخ: والناس مضطربون فيها، فمنهم طوائف من

الكلام يجعلونها جزءًا من البدن، أو صفة من صفاته، كقول بعضهم: إن النفس أو الريح التي تتردّد في البدن، وقوله بعضهم: إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن، كلها أقوال لا أدلة عليها، والآن الطب الحديث والتشريع والأجهزة الواقعة تكاد كل هذه الأقوال التي أثيرت، فيبقى القول بأنها من أمر ربي، الروح من أمر الله يأمر بها فتدخل بدن الإنسان، ويأمر بها فتخرج من بدنه، فتلك لها ملائكة في الدخول، وهذه لها ملك الموت الذي يأخذها ذكره الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]، وليس هناك أكثر من ذلك.

الشاهد: أن شيخ الإسلام رحمه الله أعطاك مسألتين لا يستطيع أحد أن ينكرهما، فإذًا إثبات الصفات وإثبات أن الأسماء أمر لا إشكال فيه، وتنزيه الله -تبارك وتعالى- عما لا يليق به لا إشكال فيه نثبت وننزه، فهو أمرنا بالتنزيه قال: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] الحمد لله الأمر سهل ويسير فلا حاجة إلى الاضطراب، والوقوع في التناقض فنثبت بعض الصفات وننفي بعضًا، أو نثبت الأسماء وننفي الصفات، أو ننفي الصفات ونثبت، وننفي الأسماء ونثبت، كل هذا لا أدلة له؛ لأن هذا القرآن هو الذي تكفل بذكر ما نحتاج إليه في الحديث عن خالقنا وعن ربنا، وقد ولى الحمد ووفاه، وهو وافٍ بذكر أسماء الله وصفاته، فلا حاجة للبعد عنها والاضطراب فيها التلاعب فيها، وهذا الأمر لا يليق بالمسلم؛ فالمسلم كما سبق هو الذي يبني حياته الإسلامية على تصديق الله، وتصديق رسوله في كل ما أخبر به.

قواعد في الأسماء والصفات على طريقة السلف (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول : القاعدتان السابعة والثامنة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف ١٢١
العنصر الثاني : القاعدتان التاسعة والعاشرة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف ١٣٠

القاعدتان السابعة والثامنة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف

القاعدة السابعة: أسماء الله تعالى كلها حسنى، والوعيد لمن ألحد فيها:

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، الذي نريد أن نقول بأن الله -تبارك وتعالى- لا يمكن أن يسمِّي أو يوصف إلا باسم فيه كمال وفيه تعظيم، فهو -تبارك وتعالى- لا يوصف باسم أو بصفة فيها نقصٌ أو عجزٌ، فكل ما لا يليق به -تبارك وتعالى- لا يجوز أن نصفه به، فلهذا سميت أسماؤه الأسماء الحسنى، وسميت صفاته الصفات العلى أو العليا، وأفعاله السامية، وهكذا، فأفعاله وصفاته وأسماؤه كلها حسنى، فلا يوصف إلا بالحسنى، أي: بمعنى الصفة التي تدل على الكمال، أي: الأحسن والأفضل.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ خبر للمبتدأ الأسماء الحسنى لله، فلهذا كل اسم له دلالته في الحسن والكمال، كل اسم أو صفة له دلالتها في الحسن والكمال، وليس هناك من اسم أو صفة أو فعل مما يدل على نقص أو عجز، وإن كان فيجب أن يُلغى من الذهن وأن يلغى من الذكر، فما في الكتب السماوية كلها إلا أسماؤها الحسنى، وإن حصل من الإنسان ما حصل فينبغي أن يتوب إلى الله تعالى منه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مدارج السالكين): إن أسماء ربي -تبارك وتعالى- دالة على صفة كماله، فهي مشتقة من صفاته، فهي أسماء وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة

على مدح ولا كمال، ولا سغى وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، اللهم أعطني فإنك أنت الضر المانع، ونحو ذلك، يعني قصد الشيخ رحمه الله من كلامه أن كل الأسماء الحسنى لها دلالتها، فلهذا أدعية الرسول ﷺ وأدعية القرآن كلها تجدها متناسبة، يعني مثل ما قال يونس عليه السلام: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكما قال هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ ﴾ [هود: ٤٧].

فالشاهد: الدعاء يناسب الحال التي فيها الإنسان ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فهو يطلب العفو من الله تبارك وتعالى، واعترف لله -تبارك وتعالى- بأنه ظلم نفسه، وأنه ظالم، وكذلك يقول موسى عليه السلام: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِي ﴾.

وكذلك كل الأدعية التي وردت الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الشاهد: أن الذي يدعو تكون أدعية مناسبة لحاله، فلهذا لا يقل: اغفر لي إنك أنت المنتقم كما قال الشيخ. لا، إنك أنت الغفور الرحيم، ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] مناسب، ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦] على ما ذكر على لسان موسى. فالاستغفار له كل حالة يناسبها، ولهذا قال لهم نوح عليه السلام: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴾ [نوح: ١٠]؛ لأن الاستغفار يتناسب.

قالوا: ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيه قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها، ويوصف بها لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن القوي من أسمائه ومعناه الموصوف بالقوى، فلولا ثبوت القوة والعزة لم يسمع قويًّا ولا عزيزًا، وكذلك قوله: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿ لَّكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ١٤]، وقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: ((أن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)). فثبت وهو المصدر الذي اشتق منه اسمه البصير.

وفي (صحيح البخاري) عن عائشة رضي الله عنها: ((الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات))، وفي الصحيح من حديث الاستخارة: ((اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك)) فهو قادر بقدرة.

الشاهد: أن الشيخ ابن القيم رحمه الله يسوق هذه الأمثلة، وهذه الآيات والأحاديث؛ ليدل بها على أن الأسماء الحسنى لها دلالتها، ولو لم تكن لها دلالة ما كانت بهذه السياقات، فمرة بالمصدر، ومرة بالخبر، ومرة بالاسم، ومرة بالمضارع، وغيرها من أنواع السياقات التي تدل على الاشتقاقات الكاملة لأسماء الله وصفاته؛ لأنه كما سبق أن الأسماء مشتقًّا من الصفات، فالقوي مشتقٌّ من القوى، والعليم مشتقٌّ من العلم، والكبير مشتق من الكبر، والقدير مشتق من القدرة، والبصير مشتق من البصر، والسميع مشتق من السمع.

وهكذا تجد أن الأسماء مشتقة من الصفات، ولهذا الشيخ ابن القيم رحمه الله ذكر هذه الأمثلة من الآيات ومن الأحاديث ليبين أن الأسماء مشتقة من الصفات، وأن ذلك هو الذي يدل على أن هذه الأسماء، وهذه الصفات تحمل معاني يردّ بذلك على الذين يجرّدون الأسماء والصفات من معانيها، ويجعلونها جامدة، وينفونها، ويقولون: عالم قدير بعلم، يعني بصير بعلم، ويجردون الأسماء من دلالاتها مثل المعتزلة، ومثل كثير من علماء الكلام، والأشاعرة الذين يعطلونها الصفات، ويثبتون البعض بزعم أن العقل أثبتها.

فلهذا كلام الشيخ ابن القيم في هذا الموضوع واضح وبيِّن، وهو يمشي مع العقل ومع الفطرة ومع اللغة ومع الشرع، ومع فهم السلف، ومع كل المقاييس الصحيحة، وهذه أمور كان المفروض أن تكون من أولويات العلم، وأولويات الفهم، لكن لحكمة يعلمها الله أن هؤلاء شغبوا على العلم، وشغبوا على التوحيد وحدة هذه المذاهب الفاسدة، وهذه الأصول الباطلة، فتسرع علماء السلف إلى أن يجندوا أنفسهم؛ ليبينوا باطلهم وضلالهم فيؤصلون المذاهب الحق، ويدلون بأدلة من الكتاب والسنة، فرحمة الله عليهم رحمة واسعة.

قال الشيخ رحمه الله ابن القيم: فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها، والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها: تجريد المعاني والصفات، وتجريد الصفات والأسماء.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها، والإلحاد فيها أنواع هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها كما يسمونها أهلها هذا أيضًا من نوع الإلحاد، وقال ابن عباس ومجاهد: عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا؛ فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان،

هذا هو التخبط بالجهل والتلاعب الذي يقع من المشركين الذين لا يلتزمون بوحي ولا بكتاب ولا بسنة، فيقعون في عذاب تخبط، وكل من خرج عن الكتاب والسنة فلا شك أنه يقع في تخبط.

قال ابن القيم: وروي عن ابن عباس يلحدون في أسمائه يكذبون عليه، وهذا تفسير بالمانع، وحقيقة الإلحاد فيه العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها، هذا حقيقة الإلحاد، ومن فعل ذلك؛ فقد كذب على الله، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها وخرج بها عن حقائقها أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

إذًا الإلحاد هو تغيير اللفظ كما سبق وتغيير المعاني كما هو واقع في كثير من الطوائف والمذاهب، والمسلم المؤمن والعاقل والصادق هو الذي دائمًا يأخذ الأمور ويُنزلها منازلها كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة: ١٨١] لا يجوز التبديل، ولا التغيير، فاللفظ ينبغي أن يحافظ عليه، والمعنى ينبغي أن يحافظ عليه، ولا يغير لا بتحريف ولا بتعطيل ولا بتبديل، ولا بتخيير، فهذا هو حقيقة الإلحاد.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الإلحاد إما بجحدها وإنكارها. يعني: النفي المطلق، وإما بجحد معانيها وتعطيلها الذي الذين يحرفون المعاني من معنى إلى معنى آخر، فتعليق الوجه، وهم يقولون الذات، وهو يقول اليد، وهم يقولون القدرة حسب السياق وحسب الدلالة وتعطيلها، وإما بتحريفها عن بالصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة إما بجعلها أسماء بهذه المخلوقات كما سبق، ومصنوعة كإلحاد أهل الإلحاد فإنهم جعلوا أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها حتى قال

زاعمهم، وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلًا وشرعًا وعرفًا تعالى الله عما يقولون ويلحدون علوًّا كبيرًا، ومن مشى على التخبط والتلاعب الذي لا أصل له ولا أساس له ولا بيان له. وإنكار وجود الله من أكبر الإلحاد، وإنكار يعني الصانع من أكبر الإلحاد، ولهذا سمي بملاحدة الملاحدة لأنهم أنكروا ما هو معلوم من العقل والفطرة والشرع.

القاعدة الثامنة: ما يجوز صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

لقد ذكر العلامة ابن القيم في كتابه (مزايا الفوائد المجموعة) مجموعة قواعد في هذا الباب وهي جديرة بالدراسة والفهم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (بدائع الفوائد): ما يجوز صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتًا مثل في العدم المحض كالقدوس والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معانٍ لا على معنى مفرد نحو: المجيد العظيم الصمد.

إذًا هذه هي الإطلاقات التي تطلق على الله -تبارك وتعالى- هي خمس إطلاقات: ما يرجع إلى نفس الذات، وما يرجع إلى الصفات المعنوية، ما يرجع

إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق، ما يرجع إلى التنزيه، الخامس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف.

إذًا هذه الإطلاقات لا تطلق على الله -تبارك وتعالى- حصرها الإمام ابن القيم رحمه الله، وهذا هو ناتج عن تتبعٍ لنصوص القرآن ولنصوص السنة. فهذه الإطلاقات لا تخرج عن ذلك، وإذا أخذت الأسماء الحسنى أو أخذت الصفات كلها ترجع إلى هذا المعنى، فمثلًا يعني صفة القدرة صفة الإرادة صفة العلم صفة الحياة كل هذه صفات معنوية، الخلق الرزق الإحياء الإماتة كل هذه ترجع إلى الأفعال، القدوس السلام هذه كلها ترجع إلى تنزيه الله -تبارك وتعالى- عن كل ما لا يليق به.

والخامس: الأسماء والصفات التي تتضمن معاني كثيرة، ذكر الشيخ منها المجيد العظيم الصمد إن هذه الأسماء جامعة لأوصاف كثيرة منها كلمة المجيد، العظيم، الصمد يعني: لا تنطبق على صفة معينة هي مجموع الصفات، ومجموع الكمالات، فمثلًا المجد يعني هي تأتمن كل شعبة خير وكل شعبة خير فتكون مجدًا، فكلمة المجيد فكل ما يُمجد به فهو من المجد، وهو مجيد به. فلهذا هو جامع فالكرم من المجد، والشجاعة، ومن لم يجده، والقدرة من المجد، والعزة من المجد، والخلق من المجد، والرزق من المجد، وكل هذه ترجع إلى معنى المجيد، كل هذه لأن هذه جوامع هذه الكلمة جامعة يعني: فكل ما يمجد الله تبارك به وتعالى فهو مجد، وهو مجيد يعني من أسمائه المجيد؛ لأنه جمع صفات الكمال، وكذلك عظيم نفسه، يعني: كل ما في عظمة لله -تبارك وتعالى- فهو عظيم به، فهو يقول للشيء كن فيكون ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويرزق من يشاء وينزل الأمطار، وكل صفة كمال، فهو من صفة العظيم، وكذلك الصمد،

وكل هذه الصفات يعني: الصمد هو السيد الذي انتهى في سؤدده، يعني في كماله.

ابن القيم في تفسيرات وتفصيلات لهذه الأسماء قال رَحِمَهُ اللَّهُ: فإني مجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة.

ثم قال بعد كلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترن بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه في مقام طلب المزيد تعرّض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في (المسند) والترمذي. ((ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام))، ومنه ((اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام))، فهذا سؤال له وتوسل إليه، وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لما فسره الله.

المقصود وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن بصفات عديدة فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده، أي: انتهى في جميع صفات الكمال، وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده، وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذا قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء، المهم على ما سمعنا

أن هذه الأسماء تجمع مجموعات صفات كمال لله تبارك وتعالى، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفردهما نحو: الغني الحميد العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناء، وثناء من حمد، وثناء من اجتماعهما، كذلك العفو القدير والحميد المجيد والعزيز الحكيم، فتأمل فإنه من أشرف المعاني المعارف.

إذًا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يقرر في هذا الفقرة أن هذه الأسماء لما تقترن مع بعضها يعظم الأمر، وتكثر المعاني والصفات، فإذا قال الغني الحميد غير ما إذا قال الغني وسكت، وإذا قال الحميد المجيد غير ما إذا قال الحميد أو المجيد، يعني: أفرد أحدهما، فالشاهد أن هذا ورد في نصوص كثيرة في القرآن يعني: اقتران بعض الأسماء ببعض، فهذا الاقتران إذا وقع فإنه كمال آخر ومفهوم آخر ومعنى آخر زائد على المعنى المفرد، وهو الرحيم الغفور، وهو مثلًا العليم الحليم، يعني: كلها إذا اقترنت هذه فإنها تتكامل ويجتمع بها كمال أكبر وأعظم؛ فعلى المسلم أن يعرف هذه المواضع، وإلا يكون منها بغفلة وببعد فهي أيضًا من المباحث التي ينبغي أن يعتنى بها وأن يرجع إليها.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة للثبوت كالآحاد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن للبراءة من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلب إنما هو لتضمنها

ثبوتًا كما سبق في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فيما تكلمنا عليه في النفي والإثبات، وأن لا يوجد في القرآن ولا في السنة نفي محض، وإنما هو كل نفي يتضمن كمال، وكذلك الأسماء التي فيها ظاهرها السلب فإنها تضمن الانفراد بذلك الفعل، كما قال في الآحاد المتضمن لانفراده بالربوبية، وأن الله أحد، فهو أحد لا يُشركه غيره، ولا يُشاركه غيره، فهو أحد في ذاته وأحد في صفاته وأحد في أفعاله، وأحد في ربوبيته، يعني: الشيخ استمر واستفسر في هذا الموضوع، وهو قول لا بأس فيه في الطول، فلا نريد أن نكثر منه فنحيل كما سبق عليه القراء.

القاعدتان التاسعة والعاشرة من قواعد الأسماء والصفات على طريقة السلف

القاعدة التاسعة: الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل لله -تبارك وتعالى:

الله -تبارك وتعالى، كما سبق- له صفات ذاتية أي: متعلقة بالذات وصفات فعلية أي: متعلقة بالمشيئة أي: بمعنى أنها تكون مقترنة بالمشيئة ما تشاءها -تبارك وتعالى- كانت فهي قديمة النوع حديثة الآحاد كما سيأتي إن شاء الله قديمة النوع بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- متصف بها أزلًا وأبدًا لكن هي لا تكون إلا بمشيئته فصفة لها كصفة الوجه، صفة القدم، هذه الصفات ذاتية لا تعلق لها بالمشيئة، فلا نقول: له يد ما تشاء، وله قدم ما تشاء، وله رجل ما تشاء، هذا لا يجوز لكن صفة الغضب وصفة الرضا وصفة المحبة صفة المجيء هذه متعلقة بالمشيئة، فهو -تبارك وتعالى- يحب متى شاء، ويغضب متى شاء، ويمقت متى شاء،

وينزل في الثلث الأخير من الليل متى شاء، واستوى على عرشه لما شاء، ويتكلم ما شاء فكلامه من ألفاظ من صفات في علمه، فهو مرتبط بالمشيئة.

إذًا كل الصفات وكل الأسماء مرتبطة بالمشيئة بهذا التفصيل، يعني: إذا كانت ذاتية لا علاقة لها بالمشيئة، وإذا كانت فعلية فهي متعلقة بالمشيئة.

فالسلف يفرقون بين صفة الذات وصفة الفعل، فصفات الذات قديمة لا تتعلق بالمشيئة ولا ضد لها، أما صفات الفعل فهي ما يتعلق بالمشيئة وكان لها ضد كالرضا والغضب والمحبة إلى آخره، قال الشيخ عبد الله بابطين في تعليقه على (لوامع الأنوار) عند قول الناظم صفاته كذاته قديمة.

قوله: "صفاته كذاته قديمة"، ظاهره أن الصفات كلها قديمة، كما صرح به في الشرح، وهذا فيه تفصيل فإن المعروف بين أهل السنة أن صفات الله تعالى قسمان: صفات ذاتية كالحياة والعلم والقدرة والوجه واليدين، ونحوها، فهذه قديمة بلا ريب؛ إذ أنها صفات لازمة لله تعالى، وصفات فعلية وهي التي تتعلق بمشيئته وحكمته، فإن اقتضت حكمته فعلها، وإن اقتضت حكمته أن لا يفعلها لم تكن، وهذا مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة والكلام والنزول والاستواء، وغير ذلك من صفات، فهذا يكون قديم النوع أو الجنس، وإن كانت آحاده توجد شيئًا وأحيانًا وآخر، ومن المعلوم أنه يُوجد بين صفات الحياة والقدرة مثلًا، وبين صفات الاستواء فإن الأول لا شك أن الله موصوف به أزلًا وأبدًا جل وعلا، وأما الاستواء فلا يكون إلا بعد خلق العرش، وكذلك صفة النزول إلى السماء الدنيا وإن كانت الصفة فعلية قديمة الجنس.

قال الشيخ الهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح العقيدة الواسطية) تحت عنوان مباحث عامة الأصل الثاني: دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات البارئ قسمان:

صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات بل هي لازمة له أزلًا وأبدًا، ولا تتعلق بها مشيئته وقدرته، وذلك كصفات الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والجلال إلى أخره، كل هذه صفات أساسية.

ثانيًا: صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن، وتحدث بمشيئته وقدرته آحاد تلك الصفات، وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها كما سبق بمعنى: أن نوعها قديم وأفرادها حديثة، فهو سبحانه لم يزل فعالًا لما يريد، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، فعلى المؤمن الإيمان بما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته، كالاستواء على العرش، والمجيء الإتيان والنزول إلى السماء الدنيا، والضحك والرضا والغضب، والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كخلقه، والرزق، والإحياء والإماتة، وأنواع التدبير المختلفة، انتهى من (شرح العقيدة الواسطية) للشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في (مجموع الفتاوي): وهي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل، فتقلب ذاته بمشيئته وقدرته مثل كلامه وسمعه وبصره، وإرادته، ومحبته، ورضاه، ورحمته، وغضبه، وصفته، ومثل خلقه وإحسانه وعدله، ومثل استوائه ومجيئه وإتيانه ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة، فالجهمية ومن وافقها من المعتزلة وغيرهم يقولون: لا يكون بذاته شيء من هذه الصفات ولا غيرهم، والكلابية ومن وافقهم من السالمية، وغيرهم يقولون تقوم صفات بغير مشيئته وقدرته، فمهما يكون بمشيئته وقدرته فلا يكون إلا مخلوقًا منفصلًا هذه المذاهب يسوقها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وأما السلف وأئمة السنة والحديث فيقولون: إنه متصف بذلك كما نطق به الكتاب والسنة، وهو قول كثير من أهل الكلام والفلسفة، أو أكثرهم كما ذكرنا أقوالهم بألفاظها في غير هذا الموضع.

إذًا هو تقرير الشيخ للفرق بين صفة الذات وصفة الفعل، ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: ومثل هذا الكلام فإن السلف وأئمة السنة والحديث يقول: من يتكلم بمشيئته وقدرته وكلامه ليس بمخلوق، بل كلامه صفة له قائمة بذاته، وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنة أبو عبد الله بن منده، وأبو عبد الله بن حامد، وأبو بكر بن عبد العزيز وأبو إسماعيل الأنصاري، وغيرهم، كذلك ذكر أبو عمر بن عبد البر نظير هذا في الاستواء وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وعثمان بن سعيد الدارمي، ومن لا يحصى من الأئمة، وذكر وحرب بن إسماعيل الكرماني عن سعيد بن منصور وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، وسائر أهل السنة والحديث متفقون على أنه متكلم بمشيئته، وأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء كذلك، وهذا كلام واضح من شيخ الإسلام ينقل عن الأئمة الذين سبقوه، وهم أئمة السنة، فيدلل على ما يقول ويعضد هذا الموضوع بنقول من أئمة السنة السابقين على اختلاف بلدانهم، واختلاف أزمنتهم، واختلاف وجودهم رحمهم الله.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: وقد سمى الله القرآن العزيز حديثًا فقال الله: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال النبي ﷺ: ((إن الله يُحدّث من علمه ما يشاء)). وهذا مما احتجّ به البخاري في صحيحه وفي غير صحيحه، واحتج به غير البخاري كنعيم بن حماد وأحمد بن زيد، ومن المشهور

عن السلف أن القرآن العزيز كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون: ليس له كلام قائم بذاته بل كلامه منفصل عن مخلوق عنه، والمعتزلة يطلقون القول بأنه يتكلم بمشيئته ولكن مرادهم بذلك أنه مخلوق كلام منفصل عنه، وأما السلف وأئمة السنة وكثير من أهل الكلام وكثير من أهل الكلام، وطوائف غير هؤلاء يقولون: إنه صفة ذات وفعل هو يتكلم بمشيئته وقدرة، كلام القائمين بذاته، وهذا هو المعقول من صفات الكلام لكل متكلم، فكل من وُصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم، والكلام صفة كمال لا صفة نقص، ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته، فكيف يتَّصف المخلوق بصفة الكمال دون الخالق، ولكن الجهمية والمعتزلة بنوا على أصلهم أن الرب لا يقوم به صفة؛ لأن ذلك بزعمهم يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع؛ إذ الصفة عرض والعرض لا يقوم إلى بجسم، ثم ذكر الشيخ كلامًا طويلًا في هذا الموضوع يستحسن الرجوع إليه لا أريد أن أكثر على السامعين بقراءته، لكن لا بأس أن أذكر يعني: كلام من بعض الأدلة التي ذكرها الشيخ في هذا الموضوع.

قال الشيخ رحمه الله بعد كلام طويل: بل الآية التي تدل على الصفات الاختيارية التي يسمونها لحوادث كثيرة جدًّا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الأعراف: ١١]، فهذا بيِّن في أنه إنما أمر الملائكة بالسجود بعد خلق آدم لم يأمرهم في الأزل، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فإنما قال له بعد أن خلقه من تراب لا في الأزل، وكذلك قوله في قصة موسى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨]، وقال تعالى:

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

فهذا بين في أنه إنما ناداه حين جاء لم يكن النداء في الأزل كما يقول، الكلابية يقولون: إن النداء قائم بذات الله في الأزل وهو لازم لذاته، لم يزل ولا يزال مناديًا له، لكنه لما أتاه خلق فيه إدراكًا لما كان موجودا في الأزل، يعني: فلسفة يتحمل عليها والعياذ بالله هو علم الكلام وما سمعتم من أدلة ومن الكتاب ومن القرآن في خلق آدم وفي خلق عيسى، وفي كلامه لموسى -عليهم جميعًا السلام- واضح في هذه القضية، وأن الكلام يتعلق بالمشيئة، وأن هذه الصفات الفعلية لها علاقة بالمشيئة بخلاف الصفات الذاتية التي لا علاقة لها بالمشيئة.

القاعدة العاشرة: أسماء الله الحسنى الواردة في السنة:

الأسماء الحسنى لا شكّ أنها مبثوثة في كتاب الله، وفي صحيح سنة رسول الله ﷺ الأصل في النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والنبي ﷺ قال: ((لله تسع وتسعون اسمًا، مائة إلا واحدة لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة))، وهو وتر يحب الوتر، يعني: ظاهر الحديث عن مثاله لله تسع وتسعون اسمًا من أحصاها أو من حفظها دخل الجنة بأنه هذه الأسماء لها خصوصيات، فلهذا ينبغي البحث عنها وطلبها حتى يعني تحفظ وتفهم، ويعتقد ما دلت عليه ويتوسل بها إلى رب العالمين.

العلماء -رحمهم الله- في حديث في الترمذي وفي مشترك الحاكم في ذكرها كاملة، لكن هذا الحديث الأكثرون من المحدثين على أنه حديث متصل أي: بما أن ذكر الأسماء مدرج في إدراجه، يدرج من الرواد.

والحافظ ابن حجر رحمه الله في (فتح الباري) بحث بحثًا طويلًا في هذا الموضوع، ونتيجة بحثه أن الأسماء كلها مدرجة، وليس لها ذكر في المرفوع، وبحث بحثًا مطولًا رحمه الله وذكر الأسماء يعني: من كتاب الله، كلها تسع وتسعون، وقد استخرجها من قبله من السلف -رحمهم الله- لكنه هو جلاها بوضوح، وعددها كما هو واضح في (الفتح) هي تسع وتسعون اسمًا، لكن هل هذا العدد المذكور في الحديث، والذي حاول العلماء أن يركزوا على هذا العدد في تأليفاتهم، وفي ما شرحوا به الأسماء الحسنى على هذا العدد هو المقصود، صحيح أنه ليس العدد، لذا هو نهاية الأسماء، يعني: لا يوجد من أسماء الله إلا هذا، فلهذا العلامة ابن القيم والعلامة ابن تيمية والحافظ وغيرهم من الباحثين، ومن المؤلفين يرون أن هذا العدد غير مقصود، ليس فيه حصر، وإنما لهذه الأسماء خصائص فقط، وغيرها كثير.

وابن حازم أيضًا ذكر في مقدمة (المحلى) بحثًا في هذا الموضوع حاول أن يلتزم بالوارد، لكن الصحيح خلاف ذلك؛ لأن النبي ﷺ صح عنه: ((اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب فهو عندك -بمعنى: أن الأسماء لا نهاية لها، ولا حصر لها- سميت به نفسك، وأنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب فهو عندك)) ثم علماؤنا يعني: فرعوا أمور كثيرة في قضية الاسم والمسمى، أو غيره، والإمام ابن جرير رحمه الله: اعتبر هذا الموضوع من الحماقات، ولا يرى البحث فيه لأنه تقريبًا الأصل فيه هو المباحث الكلامية، أهل الاسم والمسمى، ولابن تيمية رحمه الله بحثًا طويلًا، أيضًا نقلته عنه هنا في المفسرين.

وكذلك تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله له أيضًا بحث في (بدائع الفوائد) في هذا الموضوع، أي: الاسم هو المسمى هو غيره، لا بأس أن أذكر ما ذكره الحافظ ابن حجر في صدر التسع وتسعين اسمًا من باب نتبرك بذكرها، وأن نسمع أخواننا.

قال الحافظ في (فتح الباري): وهذا سردها لتحفظ، ولو كان في ذلك إعادة لكنه يُغتفر لهذا القصد، وقال الله: الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار التواب الوهاب الخلاق الرزاق الفتاح العليم الحليم العظيم الواسع الحكيم الحي القيوم السميع البصير اللطيف الخبير الهدي الكبير المحيط القدير المولى النصير الكريم الرقيب القريب المجيب الوكيل الحسيب الحفيظ المقيت الودود المجيد الوارث الشهيد والولي الحميد الحق المبين القوي المتين الغني المالك الشديد القادر المقتدر القاهر الكافي الشاكر المستعان الفاطر البديع الغافر الأول الآخر الظاهر الباطن الكفيل الغالب الحكم العالم الرفيع الحافظ المنتقم القائم المحي الجامع المليك المتعالي النور الهادي الغفور الشكور الغفور الرءوف الأكرم الأعلى البر الحفي الرب الإله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

إذًا هكذا ذكر الحافظ رحمه الله هذه الأسماء قال: لتحفظ وهي تسع وتسعون اسمًا، فأرى أن تُحفظ، والعلماء -رحمهم الله- قد أعطوا هذا الموضوع كثيرًا من الأهمية، وألفت فيها ربما عشرات الكتب، ونظمها مَن نظمها، فمن نظمها:

فيا الله يا رحمن إني لذو فقر ❖ وأنت رحيم مالك الخلق والأمر
بقدسك قدوس سلام ومؤمن ❖ مهيمن عزيز وجبار ويا متكبر
ويا خالق الخلق...... ❖ ....

إلى آخره، فهي منظومة نظمها أحمد بن عبد العزيز، ونظمها الدمياطي، ونظمها غير واحد، وشرحها الرازي، وشرحها الغزالي، وشرحها القرطبي، وشرحها ابن العربي، وشرحها المتأخرون، وأحسن شرح لها لمحمد محمود النجدي جزاه الله خير في كتابه (النهج الأسمى في شرحه أسماء الله الحسنى)، فهو شرح طيب خفيف سلفي، لمن شاء رجع إليه فهو قيم.

وكذلك في خلاف قضية الاسم الأعظم، وقد ذكرت أنا أيضًا ما ذكر في هذا الموضوع، وأحب أن أختصر كامل الاختصار لما لمباحث ينبغي أن يرجع إليها الطالب في التفسير، ونحن إن شاء الله نشير إلى ما ينبغي أن يشار إليه في رءوس المسائل وأمهاتها، والطالب يرجع بنفسه إلى مصنف المصدر، فإن ولله الحمد لمصدر جامع في باب الأسماء والصفات من حيث إن القواعد النظرية وتطبيقاتها العملية في المفسرين الذين وافقوا منهج السلف، وفي المفسرين الذين خالفوا منهج السلف والرّدّ عليهم، ويكفي أن نكتفي بهذا القدر في قضية القواعد في هذا الموضوع، وأحب أن أقول كلمة ذكرها ابن القيم رحمه الله في هذا الموضوع.

قال ابن القيم رحمه الله: إذا تبين هذا، فها هنا أصل عظيم يكشف سرّ المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يُناقض أسمائه وصفاته، ولهذا توعد الله سبحانه الظان به ظن السوء بمن يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣]، قال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:

٨٥- ٨٧] أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وما ظنكم به حين عبدتم معه غيره، وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى العبودية إلى غيره، فما ظننت به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه... إلى آخر ما ذكره الإمام ابن القيم في هذا الموضوع.

التعريف بالخلف وبعض فرقهم

عناصر الدرس

العنصر الأول : كلام ابن القيم في التعريف بالخلف، كيف حادوا عن منهج السلف الصالح ١٤٣
العنصر الثاني : كلام المقريزي في انحراف الخلف من الجهمية والمعتزلة والأشعرية عن منهج السلف في الاعتقاد ١٦٠

كلام ابن القيم في التعريف بالخلف، كيف حادوا عن منهج السلف الصالح

الخلف يقصد بهم: كل من خلف منهج السلف، فكل من خلف منهج السلف فهو الذي سُمي بالخلف، وهذا الموضوع أيضًا الذين هم الخلف له تاريخ، وله علماء، وله من رفع رايته في كل العصور أي: مذهب الخلف نحن نأخذ من الذهبي ومن ابن القيم ومن المقريزي في الخطط كلامًا.

قال ابن القيم رحمه الله كما في (الصواعق): لما أظلمت الأرض وبعد عهدها بنور الوحي، فكانوا كما قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: ((إني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما حللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وأن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب))، فكان أهل العقل كلهم في مقتهم إلا بقايا متمسكين بالوحي، فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان والصلبان والنيران والكواكب والشمس والقمر، والحيرة، والشك، أو السحر، أو تعطيل الصانع، والكفر به، فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلمة سراجًا منيرًا، وأنعم بها على الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم نعمة لا يستطيعون له شكر، فأبصروا بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونها، ورأوا في ضوء الرسالة ما لم يكونوا يرونها؛ فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ الٓرۚ

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إذًا الإمام ابن القيم رحمه الله يصوّر الحالة التي كان عليها أهل الجاهلية قبل بعثة الرسول ﷺ، وأن الأرض عمَّها الجهل وعمَّها الضلال، كما قال ((إلا بقايا من أهل الكتاب))، فعمت عبادة الأوثان وعبادة النيران وعبادة الكواكب وعبادة الأشجار، وعُبد كل مخلوق، حتى جاء الله -تبارك وتعالى- بنور الرسالة فأضاءت على الأرض بنور الوحي، والله -تبارك وتعالى- لم يترك على الأرض هملًا، بل بعث فيهم رسولًا جاء بهذا النور وبالوحي فأحيا الله -تبارك وتعالى- به الأرض، وأحيا به البلاد والعباد بعد ما كانت فيما وُصفت بعبادة النيران وعبادة الأحجار والأوثان، وأولئك لم يهتدوا بعقولهم، عقولهم لم تمكنهم من التوحيد، لم تمكنهم من الوحي من الإفراد، إفراد الله -تبارك وتعالى- بالعبادة، فحاجة أهل الأرض في ذلك الوقت وفي كل وقت إلى الوحي أكثر من حالتهم إلى الماء وإلى الأمطار، وإلى الغيث: فالغيث هو الوحي، وهو النبوة، والرسالة.

فرحمة الله على الإمام ابن القيم على هذا التصوير الذي صوره في قبل عهد النبي ﷺ وبعد مجيئه بهذا النور الذي أضاء واستضاءت به الأمم في كل مكان.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فمضى الرعيل الأول، وضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء، يعني: الصحابة والتابعون عصمهم من البداوة، وعصمهم من ضلالتها خصوصًا الصحابة، أما التابعون فمن هناك بدأت فتنة الأهواء

والبدع، ولم يلتبس بظلام الآراء، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا ذلك النور الذي اقتبسوه منهم، فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأمم.

يعني: هنا بدأ الانحراف وبدأت القدرية وبدأ الشعر وبدأ الخوارج، وظهرت هذه الرءوس، لكن مع ذلك لم تتمكن من الانتشار، ومن بث ما كانت عليه من ضلالات.

قال الشيخ رحمه الله: ومع هذا فلم يفارقوه بالكلية بل كانوا للنصوص معظمين وبها مستدلين، ولها على الآراء والعقول مقدمين، ولم يدِّعِ أحد منهم عقليات تعارض الوحي والنصوص، وإنما أتوا من سوء الفهم فيها فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر، ورموهم بالعظائم وتبرءوا منهم، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير يعني: هذه عبارات كلها عبارات عظيمة وطيبة وفصيحة، وتوصيف لبداية البدع، بداية الضلالات، وبداية الانحراف، فتلاحظ من كلام الشيخ ابن القيم رحمه الله في غاية الوضوح، وكانوا لا يرون السلام عليهم ومجالستهم، ولما كثرت الجهمية في آخر عصر التابعين كانوا هم أول من عرضوا الوحي بالرأي، ومع هذا فكانوا قليلين أذلَّاء مذمومين، يعني: أول معارضة للوحي كما سمعتم هم الجهمية الذين عارضوا النصوص، قالوا: وأولهم شيخهم الجعد بن درهم وإن ما نافق عند الناس؛ لأنه كان معلم مروان بن محمد وشيخه، ولهذا يسمى مروان الجعد، وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة وشتتهم في البلاد ومزَّقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة.

يعني: البدع كلها شعب عن الدول وعن الأفراد، وعن الجماعات فما دخلت دولة ولا دخلت وجماعة إلا وكانت سبب في تمزيقها وتشتيتها والعياذ بالله؛

لأنها كلها يعني: خلافات، وكلها أعوذ بالله انحرافات وتمزيق لصفوف الأمة التي تعيش على الوحي، وعلى النصوص السنة في البداية لا خلاف، هذا الشيخ ابن القيم رحمه الله يعني: يعبر على واقع أواخر بني أمية الذين ظهر فيهم الجعد بن درهم الذي قال: كان معلم مروان الذي يُلقب بالحمار، فسلب الله يعني: ملك بني أمية بسبب هذه بشؤم على الجعد بن درهم بسبب مروان الذي تعلم عنده، فكان سبب سقوطه انتهاء ملكه.

الإمام ابن القيم يصوّر الحالة العقائدية التي كان عليها الناس من بداية عصر المأمون:

قال رحمه الله: ولما اشتهر أمره في المسلمين طلبه خالد من عبد الله القصري وكان أميرًا على العراق حتى ظفر به، فخطب الناس في يوم الأضحى وكان آخر ما قال في خطبته: "أيها الناس ضحوا قبل الله ضحاياكم، فإني مضحي بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر وكان ضحيته.

ثم طفأت تلك البدعة والناس إذاك عنقًا واحدًا إن الله فوق سمواته على عرشه، باقٍ من خلقه موصوف بصفة الكمال، ونعوت الجلال، وأنه كلم عبده ورسوله موسى تكليمًا، وتجلى للجبل فجعله دكًّا هشيمًا إلى أن جاء أول المائة الثالثة وولي على الناس عبد الله المأمون وكان يحب أنواع العلوم، وكان مجلسه عامرًا بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حبّ المعقولات فأمر بتعريب كتب اليونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، فترجمت له، وعُرّبت فاشتغل بها الناس، والملك سوقه ما ينفق فيه، فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن

كان أخوه الأمين قد أقصاهم وتتبعهم بالحبس والقتل، فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه، فقبلها واستحسنها ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها، فلم تطل مدته، فصار الأمر بعده إلى المعتصم، وهو الذي ضرب أحمد بن حنبل، فقام بالدعوة بعده والجهمية تصوب فعله وتدعو إليه، وتخبر أن ذلك هو تنزيه الرب عن التشبيه والتجسيم، وهم الذين غلبوا على نفسه مجلسه وقربه والقضاة والولاة منهم، فإنهم تبع لملوكهم، فمع هذا فلم يكن يتكاثرون على إلغاء النصوص وتقديم العقول والآراء عليها، فإن الإسلام كان في ظهور وقوة وسوق الحديث نافقة، وإعلام السنة على ظهر الأرض، ولكن كانوا على ذلك يحومون وحوله يدندنون، وأخذ الناس بالرغبة والرهبة، فمن بين أعمى مستجيب، ومن بين مكرهٍ مفتدٍ بنفسه منهم بإعطاء ما سألوه، وقلبهم مطمئن بالإيمان، وثبت الله أقوامًا جعل قلوبهم في نصر دينه أقوى من الصخر، وأشد من الحديد، فأقامهم لنصر دينه وجعلهم أئمة يقتدي به المؤمنون لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون، فإنه الصبر واليقين.

فإن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

فصبروا من الجهمية على الأذى الشديد ولم يتركوا سنة رسول الله ﷺ لما رغبهم به من الوعد، ولا لما أرعبهم به من الوعيد ثم أطفأ الله برحمته تلك الفتنة، وأخمدت تلك الكلمة، ونصر السنة نصرًا عزيزًا وفتح لأهلها فتحًا مبينًا صُرح بها على رءوس المنابر، دعي إليها في كل بادٍ وحاضر، وصنف في ذلك الزمان في السنة ما لا يحصيه إلا الله، ثم انقرض ذلك العصر وأهله، وقام بعدهم ذريتهم

يدعون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على بصيرة إلى أن جاء ما لا قبل لأحد به، وهم سندوا إبليس حقًّا المعارضون لما جاءت به الرسل بعقولهم، وآرائهم وهم القرامطة والباطنية والملاحدة، ودعوهم إلى العقل المجرد، وأن أمور الرسل تعارض المعقول فهم القائمون بهذه الطريقة حق القيام بالقول والفعل، فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى وكثر عسكر الخليفة مرارًا عديدة، وقتلوا الحاج قتلًا ذريعًا، وانتهوا إلى مكة فقتلوا بها من وصل من الحجاج إليها، وقال: والحجر الأسود من مكانه وقويت شوكتهم واستفحل أمرهم وعظمت بهم الرذية، واشتدت بهم البلية.

إذًا هذا الكلام من شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تصوير للحالة العقائدية التي كان عليها الناس من بداية عصر المأمون الذي مع الأسف خلف منهاج أجداده وآبائه في محاربة البدع، فتبنى بدعة الجهمية ونصرها، وأقدم لها الكتب وعرَّبها، وجيَّش كل ما يملك لهذه البدعة، فالعلماء -رحمهم الله-: ما بين مستجيب على رغم أنفه وما بين واقف في وجه هذا السير الجارف، المعتدي الظالم، سير البدع، سير الجهمية الذين أخذوا الناس بالقوة، كما قال الشيخ رحمه الله: إما بالترغيب وإما بالترهيب، فمن رغب فيما عندهم أو خاف من سيفهم وسطوتهم قال بقولهم، ومن وفقه الله سبحانه وتعالى للثبات وقف في وجههم، والحقيقة أن العلماء هم أمناء الأمة، وهم كما وصف الرسول ﷺ والصحابة بأنهم أمانة للأرض في ذلك الوقت، وهو كان أمانة لأصحابه، والنجوم أمانة السماء، فهم أمانة الأمة، فإن ذهبوا ذهبت، وإن وقفوا وقفت، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفق علماء الأمة في هذا الزمان، ومن الوقوف في وجه كل بدعة وأن لا يلينوا مع البدع ويتبنوها أو يرفعوا رايتها ولواءها.

فهذا هو التصوير لابن القيم، ثم فرج الله -تبارك وتعالى- الكربة، فجاء المتوكل ورفع المحنة، ورجعت السنة إلى مكانتها لكن بعد ذلك جاء من ذكر الإمام ابن القيم فجاء القرامطة وجاء الرافضة فرفعوا راية المعقول، ودحضوا كل من يرفع حديث، أو يرفع السنة، أو يرفع القرآن، أو يرفع العقيدة فكان ما كان ثم وصلوا إلى مكة فقتلوا الحرير، وقلعوا الحجر الأسود، وهذه هي طريقتهم وتعاملهم مع أهل السنة في كل زمان ومكان، فما تمكنوا فعلوا بهم هذه الأفعال وواقعون الآن، فمن يعش يرى من هذه الأمثلة الكثير، فالله المستعان على حرب الكتاب والسنة، وعلى حرب أهلها، فالتاريخ يتكرر والوقائع تتجدد، والباطل إذا على كان خطر على الأمة كما هو واقع مع الأسف.

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: وأصل طريقهم أن الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام بين المشرق والمغرب، وكاد الإسلام أن ينهدم ركنه لولا دفاع الذي ضمن حفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم خمدت الدعوة هؤلاء في المشرق وظهرت في المغرب قليلًا قليلًا حتى استفحلت وتمكنت، واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب، ثم أخذوا يطئون البلاد حتى البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر، فملكوها وبنوا بها القاهرة، وقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم، وفي زمانهم صُنِّفت (رسائل إخوان الصفا)، و(الإشارات)، و(الشفا)، وكتب ابن سينا فإنه قال: كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية، وعُطلت في زمانهم السنة، وكتبها والآثار الجملة إلا في الخفاء، وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي واستولوا على بلاد الغرب، ومصر،

والشام، والحجاز، واستولوا على العراق سنة، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة بالمسلمين، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما ليس لأهل السنة.

فكم أغمد من سيوفهم في أعناق العلماء، وكم مات في سجونهم من ورثة الأنبياء حتى استنقض الله الإسلام والمسلمين من أيديهم في أيام نور الدين وابن أخيه صلاح الدين، فأبل الإسلام من علته بعدما وطن نفسه على العزاء وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء، أو ظهر هلاله بعد أن دخل في المحق، وثابت إليه روحه بعد أن بلغت التراقي وقيل من راق، واستنقذ الله بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب، وأخذ كل من أنصار الله ورسوله من نصرة دينه بنصيب، وعلة كلمة السنة وأذن بها على رءوس الأشهاد، ونادى المنادي أنصار الله لا تنكلوا عن الجهاد، فإنه أبلغ الزاد ليوم المعاد، فعاشوا الناس في ذلك النور مدة حتى استولت الظلمة على بلاد الشرق، فقدموا الآراء والعقول والسياسة والأذواق على الوحي، وظهرت فيهم الفلسفة والمنطق وتوابعهما؛ فبعث الله عليهم عبادًا أولي بأس شديد فجاثوا خلال الديار، وعاشوا في القرى والأمصار، وكاد الإسلام أن يذهب اسمه وينمحي رسمه، وكان مشار هذه الفئة وعالمها الذي يرجع إليه وزعيمها المعول فيها عليه شيخ الشيوخ المعارضين بين الوحي والعقل، وإمام في وقته، نصير الشرك والكفر الطوسي، فلم يعلم في عصره أحد عرض بين العقل والنقل معارضة رام بها إبطال النقل بالكلية مثله، فإنه أقام الدعوة الفلسفية واتخذ الإشارات عوضًا عن السور والآيات.

تعريف الخلف:

القصد بالسلف هو متابعة الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم من فهم صحيح، فالمتابعة شرط، والمخالفة هي التي تسمى بالانحراف عن منهج السلف، ولهذا سموا الخلف.

فهنا نذكر من كلام الذهبي رحمه الله لقد عقد مقارنة في كتابه عظيم (طبقات الحفاظ) وهو عبارة عن تراجم للمحدِّثين الأئمة الذين لهم قَدَم صدق في الحديث في السنة، ولاشك أن أهل الحديث من أصفى الناس منهاجًا وعقيدة، وما تلوَّثوا باعتزال ولا بتجهّم ولا بقدر إلا ما ندر، وقليل ما هم، والحمد لله إذ جعل هذا الدين محفوظًا بحفظ الله له، ثم بالصحابة، ثم من بعدهم ومن كانوا جنودًا وحراسًا لهذا الدين المبارك.

فالذهبي رحمه الله يذكر في طبقاته في الطبقة التاسعة من كتابه هذا العظيم، وعادته الذهبي في كثير من كتبه أنه يعلق على التراجم وعلى الفقرات، وقلما يفوته كما في كتابه (سير أعلام النبلاء) وغيره من الكتب، وفي تاريخه وفي (الميزان)، وفي غيرها من الكتب التي ألفها الإمام الذهبي، الذهبي رحمه الله كما قلت يذكر مقارنة بين السلف وبين الخلف فيقول في هذه الطبقة، وهي الطبقة التاسعة: ما ذكرت من المحدثين إلا القليل، وما ذكرته لا يبلغ معشار ما هو موجود، وقد ذكرت أكثر ذلك في كتابي تاريخ؛ لأنه الكتاب الكبير العظيم الذي طبع، وهو من أكبر كتب التاريخ، فقد ذكر ذلك لأن تواريخ القدماء كانت مملوءة بتراجم المحدثين، هناك ما خصص فقط للمحدثين كتاريخ ابن معين، وتواريخ البخاري رحمه الله، وابن أبي خيثمة، وغيرهم من الأئمة الذين خصصوا للمحدثين هذه الكتب، فيقول: في المقابل من هؤلاء المحدثين الذين ذكرتهم، ففيه من أساطين علم الكلام، ومن

أساطين هذه الآراء، ومن أساطين هذه الفلسفة، أي: من الخلف، والذين تبنوا منهاج الخلف وحملوا الآراء، ويقول: ضعف الإشهاد في ذلك الزمن، فالذهبي لا شك أنه يلفت النظر إلى القارئ على أن الأمور قد حصل فيها ما حصل من مقابلة للحق بالآراء، وبالجهمية وبالمعتزلة وبالمخالفين؛ فلفت نظر القارئ إلى هذه القضية.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ارفق بنفسك معنى كلامه: ارفق بنفسك في هذا الموضوع فيقول: وهو في لا شك من علماء القرن الثامن أنه من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو الحافظ ابن القيم وابن كثير فهو لتلامذة الشيخ فيقول: ارفق بنفسك، فيقول: فلعلك يبلغ بك العجب فترمي السلف بأنهم كانوا ليس عندهم علم أصول، وعلم البلاغة، وعلم المنطق، وعلم كذا، وعلم كذا من العلوم الآلية التي قد يفتخر بها من عاصر الذهبي.

فيقول: لعلك تقول: ومن الإمام أحمد؟ ومن ابن المديني؟ ومن -مثلًا- البخاري؟ ومن كذا، فهؤلاء ليسوا على علم بالأصول وبالبلاغة وبالمنطق، وبعلم النحو، وبغيرها من العلوم التي قد يفتخر بها من يفتخر، فيقول: إن أولئك نجوم وأقمار وشموس، فإن قارنت بنا، يعني: هؤلاء في زمان الذهبي ممن يعرفون المنطق ويعرفون البلاغة ويعرفون الأصول إن قارنتهم بالإمام أحمد، وقارنتهم بابن المديني، وقارنتهم بالسلف، فأنت قد أخطأت الخطأ الكبير، فهؤلاء لا يمكن أن يبلغوا إلى أولئك من العلوم، فأولئك أصحاب الفقه وأصحاب الفهم، وأصحاب المنهج الصحيح، وأصحاب المعتقد أي: الأئمة من التابعين ومن بعدهم من الأئمة من مثل مالك والشافعي وأحمد وسفيان والثوري وسفيان بن عيينة وأنت بتسلسل إلى يومنا هذا.

فهذه المقارنة لا تصح بين الخلف وبين السلف، فتلك درجة لا يمكن أن ينالها الخلف الذي تفتخر بهم وتقول فمن أحمد، ومن ابن المديني، ومن فلان، ومن فلان، فأولئك يقول في آخر المبحث يقول: هم أهل الفضل، وأهل الفضل لا يعرفهم إلا أهل الفضل، والذي يعترف بأهل الفضل فهو من أهل الفضل، فالشاهد من المقطع، وأنا أروه بالمعنى لا شك؛ لأني لا أقرؤه قراءة، وإنما أرويه بالمعنى فالشاهد أن الآراء الفلسفية والآراء الكلامية والآراء المخالفة قد ظهرت بالمقابل إلى رواية الحديث، وإلى عقيدة أهل الحديث، وإلى منهاج الحديث في ذلك الزمن؛ فلا شك أن هذه المقارنة بين السلف والخلف مقارنة طيبة، وما قاله الذهبي وهو يعيش في القرن الثامن طبعًا كان في السابع، فأولئك فقرن الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قرن العلم والعلماء والفحول والمتخصصين في العلوم الشرعية، فكيف لو رأى هذا الزمان الذي قلَّ فيه العلم وقل فيه العلماء، وأصبحت البضاعة مزجاة، فالمقارنة غير واردة بين هذا العصر الذي نحن فيه وبين العصور الأولى التي عاشت على العلم، وعلى الفقه، وعلى الفهم الصحيح، وكان ذلك العصر هو العصر الذهبي الذي انتشر فيه الإسلام والذي ظهر فيه الإسلام.

الجهمية:

والخلف لاشك هم: الفلاسفة، والجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية، فهم الذين حملوا راية المخالفة في باب الأسماء والصفات، الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بحث جيد في (الصواعق المرسلة) ذكر فيه التطور الذي حصل في المعتقد إلى زمانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أيضًا كما سبق من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية أي: مات في القرن الثامن.

ابن القيم رحمه الله ذكر مقارنة عجيبة ومختصرة من قبل النبوة إلى زماننا، وركز فيها الإمام ابن القيم رحمه الله على قضية الذين اهتموا بالعقل وتركوا النقل، ابن القيم يقول رحمه الله: لما أظلمت الأرض يقصد قبل النبوة وعمت الجاهلية، وكان ما كان من انحراف ويستدل ابن القيم رحمه الله بالحديث، ومعروف الذي يرويه رسول الله ﷺ أنه قال: ((إني خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب))

يقول ابن القيم رحمه الله: هؤلاء الذين كانوا قبل عهد النبوة كانت لهم عقول، وعقولهم لم تصل بهم إلى خير؛ فأوقعتهم في عبادة الأوثان، وعبادة النجوم، وعبادة النيران، وعبادة الصلبان، وعبدوا كل شيء، فعقولهم لم تهديهم العقل بمفرده لا يمكن أن يهدي صاحبه إلى ما يحبه الله ويرضاه، فلما جاءت يعني النبوة والرسالة وشاع نورها في الأرض وبسط الله بسبب هذه النبوة من النعم ومن الفضل، وأخرج الله البشرية من الظلمات إلى النور، فكانت هذه النعم الكثيرة التي -كما يقول الإمام ابن القيم- لا يستطيعون لها الشكر، نعم كثيرة؛ لأن نعمة الإسلام لا تضاهيها نعمة، الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، يخرجهم من الظلمات إلى النور ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الظلم إلى نور العدل، ومن ظلمات الفتك والقتل والتفجير إلى نور الأمن، فكلمة النور عام في كل خير، وما أحسن هذه الآية وما أجملها من آية.

وكما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ﴾ [إبراهيم: ١]، وكما قال الله -تبارك وتعالى- ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وغيرها من الآيات التي تدل على فضيلة الوحي، وفضيلة الإسلام، وفضيلة النبي ﷺ، وفضيلة السنة كثيرات آيات كثيرات، فهذا النور الذي شاع، وارتسم في قلوب المسلمين وفي قلوب الصحابة والرسول ﷺ يعلمهم بالليل والنهار، وفي السفر، وفي الحضر، ويعلمهم ما يحتاجون إليه، ويتعلمون منه بشغف، وبمحبة، وبحب، وبإقبال عليه ﷺ فكان أمرهم واحد، وقلبهم واحد على الإسلام، وعلى النبي ﷺ فلم يختلفوا في دقيق، ولا في جليل في أمر المعتقد، وكان ملجؤهم هو الوحي فلا يلجئون إلا إليه، والعقل هو وسيلة وآلة أكرم الله بها الإنسان يميز بها، ويفهم بها لا أقل ولا أكثر، فالعقل لا يهدي الإنسان إلى ما يحبه الله ويرضاه ولا يهديه إلى الخيرات الذي يهديه هو الله بواسطة الوحي المبارك؛ فكان الصحابة على هذا.

وكان الصدر الأول كله على هذا النور، وعلى هذا الإضاءة الكاملة، وعلى هذا الصفاء، وبقيت الأمور كذلك إلى أن غادر هذا الراعيل الأول، وأوصى من بعده بأن يعضوا بالنواجذ على الوحي من الكتاب ومن السنة، ثم ظهر يعني رءوس البدع التي بدأت تعكّر صفو الوحي وصفو الإسلام، فظهرت القدرية، وظهر الخوارج، وظهرت الشيعة، ومع ذلك كان هذا الظهور ضعيف، والصحابة والتابعون ومن أدركهم من الصحابة تبرأ منهم، والذي أظهر بدعة القدر هو معبد الجهني الذي صلبه الحجاج وقتله في سنة ٨٠، ولما بلغ عبد الله بن عمر هذا المبتدع تبرأ من هذا المبتدع، وكذلك تبرأ من الخوارج لما ظهروا وناقشهم

علي بن أبي طالب، وناقشهم عبد الله بن عباس، وناقشهم الصحابة و الخوارج هم الذين خرجوا على الأمة بطريقهم السيئ أي: تكفير المسلمين بالذنوب، وخرجوا بفتنهم، وكذلك الشيعة خرجوا بفتنة أخرى وأظهروا لعلي ما أظهروا له، وزعموا فيه أن الله أحل فيه جزء من الألوهية، وقتل ﷺ من قتل، وحفر لهم حفر، فأرداهم فيها وأحرقهم جميعًا.

المهم، ومع ذلك في هذا الزمان ما يزال الوحي محترم، والسنة قائمة، وهؤلاء ليس لهم السيطرة الكاملة على الأمة، ثم جاء الجهمية وظهر الجعد بن درهم في أواخر بني أمية، وهو كان أستاذ مروان السلطان في ذلك الوقت، ولهذا سمي مروان الجعد، وشؤم هذا المبتدع هو الذي كان خاتمة بني أمية، فكان شؤمًا عليهم بهذه البدعة، وفي هذا الوقت ظهر العقل وانتصر إلى حدّ ما، والجعد هذا يعني أخذه خالد القسري، وفعل به ما فعل، وانتهت فتنته في ذلك الوقت إلى زمن عبد الله المأمون يعني: في بداية القرن الثالث، فاجتمع الجهمية حول عبد الله المأمون سابع خلفاء بني العباس، فزيّنوا له هذا البدعة أي: بدعة الجهمية، فتبناها بقوة وأمر ولاته وعماله في كل مكان بهذه البدعة، وأن يجمعوا لها كل قوة لنصرها، وهددوا الناس بما هددوا به في هذا الزمان، وفيهم من استجاب، ومن استجاب تقية وخوفًا على نفسه، ومنهم من وقف وقفة رجل واحد، وجعل الله قلبه كالصخر وكالحديد يريد بذلك إعلاء كلمة الله، وإعلاء السنة، وكما قال الإمام ابن القيم رحمه الله في بحثه هذا، وكتب الله له الإمامة وجعله الإمامة؛ لأن الإمامة كما يقول ابن القيم تنال باليقين، وتنال بالصبر ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فصبروا على الأذى، وصبروا على المأمون ومن كلفه المأمون بتعذيب من عذب، ولم يمنعهم هذا ما هددهم به، ولما أوعدهم به من الوعد، أو لما جعلوه لهم من

الوعد أو الوعيد، فما هددهم فما غراهم وعد، ولا هددهم وعيد، فصبروا على الأذى الذي كان من هذا الخليفة.

المأمون لا شك أنه استعمل قوته وأرسل إلى ولاته وإلى عماله، وإلى كل من له به صلة أن يُجبروا الناس على القول بخلق القرآن، وترجم الكتب التي كانت باللغات غير العربية إلى العربية، فكانت لا شك وبالًا على الأمة فترجمت.

هذه الفتنة التي تبناها عبد الله المأمون تبنَّاها أخوه المعتصم، وهو الذي ضرب الإمام أحمد ﵀ وعذبه، وذهب في طريق أخيه المأمون في هذه الفتنة ثم تبنَّاها أخوه الواثق من بعده، ثم رفع الله هذه المحنة وهذه الفتنة بفضل الله ثم بفضل المتوكل، فرجعت السنة ورجعت الأمور إلى نصابها، وقُرئت في المنابر وفي الحلقات، وازدهرت السنة ازدهارًا كبيرًا بفضل الله، ثم بفضل هذا الخليفة العباسي المتوكل.

ابن القيم يذكر بأنه جاء القرامطة والشيعة وحملوا شعار معارضة العقل للنقل، وعاثوا في الأرض فسادًا، وتوجهوا في الأمصار وقلعوا الحجر الأسود من مكة، وقتلوا الحجيج ،وكانوا يهددون الخليفة وعسكره، وما تركوا وسيلة من وسائل الفتنة إلا واستعملوها في نشر هذه البدعة أي: بدعة معارضة العقل للنقل، واستمرت هذه الفتنة وانطفأت في المشرق، وذهبت إلى المغرب وبدأ هؤلاء يرحلون من مكان إلى مكة، ووصلوا إلى مصر وبنوا بها القاهرة، وجلسوا مدة من الزمن، واختفت السنة اختفاء كاملًا، وكانوا لا يدرسون السنة إلا خفية، ومن وجدوا عنده كتابًا من كتب السنة سجنوه وضربوه وفعلوا به الأفاعيل، واستمر وضعهم هكذا إلى أن جاء نور الدين وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فأنقذ الله به البلاد والعباد، وأنقذ به بيت المقدس من الصليبيين، ورجعت السنة أيضًا من جديد، ورفعت أعلامها في كل مكان.

ثم بعد هذا العصر -أي: عصر الأيوبيين- جاء جاءت فتنة الشيعة أيضًا من جديد، وفي الحقيقة من أكبر الفتن التي مرت على العقيدة فقتل فيها العلماء، ولم يبقَ إلا النادر القليل، وانقلبت الأوقاف التي كانت للمسلمين إلى السحرة وإلى المنجمين، وانقلب كل شيء، والذي حمل لواء هذه الفتنة هو من يُسمى بناصر الدين الطوسي، وهو كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله وغيره نصير الشرك والخذلان، وكاد الإسلام أن ينمحي على ظهر الأرض لولا أن الله -تبارك وتعالى- ضمن حفظه، وأنه يبقى محفوظًا إلى أن تقوم الساعة.

وبقي ورثة هذا المنهاج الباطل أي: يزعمون معارضة العقل والنقل، وبقي هذا الأمر كذلك إلى القرن السابع أي: أواخره وبداية الثامن الذي جاء فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فأنقذ الله به البلاد والعباد بيده وبلسانه وبكتبه، وألف في ذلك الكتب التي بيَّن فيها بطلان هذا الأصل الفاسد أي: معارضة العقل والنقل؛ لأن هذا الأصل كما قال الإمام ابن القيم: وهو الذي ركز عليه بحثه في هذا السرد التاريخي للعقيدة، لأن منهاج الجميع هو معارضة العقل والنقل يعني: كل الجهمية بجميع طوائفهم هذا زبورهم، وهذا قرآنهم أي: معارضة العقل للنقل، فهذه يرتكزون، وبه يستدلون، ولهذا يستدلون بكتب ابن سينا، والإشارات، وبكتب رسائل إخوان الصفا؛ لأن هذه كلها كتب زنادقة وما فيها إلا الزندقة، وكذلك كتب ابن عربي التي تُسمى بالحقائق، وكذلك الحسيات، وسماه ابن القيم حسيات العميدي.

إن ألفت كتب في هذا الباب كثيرة، وفي هذا التاريخ الطويل ألف كل أهل الباطل كتب ينصرون بها هذا الباطل الذي هو معارضة العقل للنقل، وجاء الإمام ابن تيمية رحمه الله فأرداهم في حفرهم وبين بطلان مذاهبهم، وألف كتابه المشهور

(تعارض العقل والنقل)، فكان هذا الكتاب دواء للأمة في ذلك الوقت، وسيبقى دواء إلى يوم القيامة؛ لأن هذه الفكرة ما تزال قائمة في يومنا هذا في الرجوع للعقل، والتخلي عن النقل بزعمهم، وكما في أصول الجهمية وفي تعارض العقل والنقل.

فهذا السرد إلى زمان الإمام ابن القيم، وهو -كما سبق- توفي القرن الثامن، ولا شك أن بالنسبة إلينا نحن فهذا نصف عصر النبوة؛ لأننا نعيش في القرن الخامس عشر فنصف قرن النبوة الذي هو القرن الثامن القرن السابع، فلا شك أنه بعد ذلك تنامت الأمور، وقل العلم وتنامت البدعة، ولا سيما هذه القرون غالبها خالية من العلماء ومن المدافعين عن السنة، ولا سيما القرن التاسع فإنه يكون يكاد يكون خاليًا فيه من العلماء الذين دافعوا عن هذا الموضوع، وإن كان ظهر في القرن التاسع الإمام الحافظ ابن حجر والإمام العراقي ومدرسة الحديث لكن اهتمامهم كان بالسند وبالمتون، وبغيرها، وكانت الصوفية وكانت الأشعرية، وكان العقل يعني: الفكرة التي ركز عليها ابن القيم -يعني: معارضة العقل والنقل- كان أمرها بارز في هذه القرون وكثرة الزوائع، وكثرة الخرافات في القرن التاسع، والعاشر، والحادي عشر إلى أن كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الله رحمه الله.

الذي يتتبع هذه القرون بعد قرن الإمام ابن تيمية رحمه الله الذي هو القرن الثامن يجد مصائب كثيرة وانحرافات طويلة عريضة في هذا الباب، في باب المعتقد سواء على مستوى الصفات، أو على مستوى السلوك والعبادات، وعلى كل مستوى، وعلى مستوى الرجوع إلى الكتاب والسنة، فمرت مع الأسف أيام مظلمة، وقرون مظلمة وما يزال الأمر في غالب الميلاد على هذا الأمر إلى ما شاء الله، إلا من وفقه الله -تبارك وتعالى- للرجوع إلى الكتاب والسنة، وموافقة العقل النقل

دون معارضة العقل للنقل ؛ لأن العقل دائمًا يوافق النقل ، والنقل وما جاء إلا للعقل ، يعني : لم يأت النقل لمعارضة العقل ، فهذا فهم خاطئ فهم ضالّ.

إن هذا السرد الذي سرده ابن القيم بين فيه واقع العقيدة من زمن النبوة إلى زمنه رَحِمَهُ اللَّهُ.

كلام المقريزي في انحراف الخلف من الجهمية والمعتزلة والأشعرية عن منهج السلف في الاعتقاد

وكذلك المقريزي في خططه ذكر ما ذكره ابن القيم إلا أن المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ ركز على أمر هام ، وهو أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا على إثبات الصفات والسلف بعدهم إلى أن جاء الجعد بن درهم الذي اخترع ، هذا الأصل الفاسد والذي اخترع التأويل ، وكذلك أخذ عن ذلك الجهم بن صفوان.

إن المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ في خططه وهو كتاب ذكر فيه بحث طويل على تاريخ العقائد لكن هو في هذا المبحث ركز على قضية أن الصحابة كانوا على الإثبات ، ولا علم عن أحد منهم تأويلًا ولا استشكال آيات الصفات ، فأثبتوا لله -تبارك وتعالى- ما أثبته لنفسه في كل آيات القرآن ، ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الوجه ، وذكر اليد ، وذكر كل الصفات ، فقال الصحابة -رضوان الله عليهم- ساقوا هذه الآيات -آيات الصفات- مساقًا واحد ، فلم يؤولوا صفة من الصفات ، ولا خطر ببالهم ذلك ، احتاج زمن الجعد ، وزمن بشر.

المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ في خططه ذكر بحثًا مطولًا في تاريخ العقيدة ، وبيَّن فيه على أن الصحابة ومن بعدهم أثبتوا الصفات وساقوها مساقًا واحدًا ، فلم يفرّقوا بين صفة ذات ولا صفة فعل ولا صفة خبرية ، ولا غيرها ، فأثبتوا إثباتًا واحدًا ، ولا شك

أن الصحابة هم أعلم الناس باللغة، وأعلم الناس بالفهم، وأعلم الناس بكل خير، فلم يلجئوا إلى ما لجأ إليه هؤلاء المتأخرون الذين لجئوا إلى التأويل، ثم المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر الفرق فرقة فرقة، وكما سبق عن ابن القيم في ذكر القدرية وذكر الخوارج وذكر الشيعة، وأن هذه الفرق ظهرت في وقت مبكر، وأن السلف -رضوان الله عليهم- كان لهم موقف من هذه الفرق؛ فردُّوا عليهم وباينوهم، وحذَّروا منهم، وكتبوا فيهم، وما تركوا وسيلة من الوسائل إلا واستعملوها مع هذه الفرق حتى يعلم المسلمون خطر هذه الفرقة، وهذا الفكر الذي خالفوا فيه الجماعة الإسلامية، وخالفوا فيه الأمة، وخالفوا فيه الصحابة والتابعين، وخالفوا فيه المحدثين الذين كانوا على علم بسنن رسول -الله صلى الله عليه وسلم.

فالسلف بذلوا الجهد الكبير، ولهذا الذي يرجع إلى تاريخ العقيدة يرى ذلك، وقد وفقنا الله فكتبت تاريخًا كبيرًا في هذا الباب، وبيَّنت مواقف السلف من بداية الصحابة إلى يومنا هذا في مجلدات عشر طُبعت -ولله الحمد- طبعتين في مصر سميتها (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات)، وقسمتها إلى ثمانية أقسام، وكان هذا القسم هو القسم السابع الذي هو مواقف السلف؛ لأن جعلت مواقف الأنبياء بمفردها، ومواقف الرسول ﷺ العقدية بمفردها، ومواقف السلف بمفردها؛ فالمواقف عندي ثلاثة، وهي تقريبًا ثلاثة أقسام، وإن كانت هي في سياق واحد عندنا عبارة عن مواقف بداية من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وختامًا برسول الله ﷺ فتلك المواقف ومواقف الرسول ومواقف السلف التي بلغت أكثر من ألف ومائة من الأشخاص الذين ذكروا مواقفهم من المبتدعة، مواقفهم من المشركين، مواقفهم من الشيعة، مواقفهم من الصوفية، مواقفهم من الجهمية، مواقفهم من القدرية، مواقفهم من المرجئة، مواقفهم من

الخوارج، مواقفهم من المقلدة أي: مقلدة المذاهب على مرّ العصور، فبلغت -ولله الحمد- مبلغ، فهذا الذي أذكره الآن هو إجمال وإلا التفصيل في هذا الكتاب شخصًا شخصًا بداية من صحابة رسول الله من حمزة، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعائشة، وغيرهم ممن ذكرت مواقفهم بالتفصيل، وعلقت على كثير من المواقف، وبيَّنت مقارنتها، ومطابقتها للوقت الحاضر.

فالمهم -ولله الحمد- استوفيت هذا التاريخ استوفيته، وأرجو الله -تبارك وتعالى- أن يوفقني لإعادة النظر في توسيع الأمر أكثر، والنظر فيه أكثر؛ لأن الكتاب دائمًا يحتاج إلى مراجعة، وإلى زيادة، وإلى نقصان على عادة الإنسان في تقصيره وفي وقوعه في الأخطاء، ووقوعه في الزلة، وهذا ليس منه أحد، فالشاهد تضافر كلام العلماء في هذا الموضوع، أي: في ذكر العقائد.

والإمام المقريزي له بحثٌ نفيس في هذا الكتاب، ونقلته -ولله الحمد- كاملًا، لكنني أشير هنا إشارة إلى ذلك فهو ذكر ﷺ ذكر فرق التي حصلت في هذا الزمان، فذكر فرقة المعتزلة وبيَّن عددها فذكر منهم عشرين فرقة، ثم ذكر المشبهة لأنني أذكر في هذا المبحث ما يتعلق بالصفات؛ لأنني لا أذكر الشيعة، ولا أذكر الخوارج يعني بفرقهم، لأن هذه الأمور يعني: الذي يهمني في كتابي المفسرون في هذه المباحث التي نستعرضها الذي يهمنا فيها ما يتعلق بالأسماء والصفات.

المشبهة:

ثم ذكر الفرقة الثانية في الصفات: المشبهة، المشبهة لا شك أنهم في مقابل المعطلة المؤولة، فالمعطلة الذين يعطلون الصفات وهم على درجات أيضًا فمنهم من ينفي

الأسماء بالمرة، ومنهم من ينفي الصفات بالمرة، ومنهم من يثبت بعض الصفات وينفي البعض أي: يؤول البعض وهم الأشاعرة، فهم أيضًا على درجات، وفي مقابلهم المشبهة يعني: فرقة المشبهة فهم في مقابل الجهمية المعطلة المشبهة الذين يشبهون الله -تبارك وتعالى- ويجعلونه كالمخلوق يعني: في صفاته، فيعني: امتاز كتاب المقريزي بذكر هذه الفرق.

قال ﷺ أي: المقريزي في كتابه (الخطط): واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرصة كانت من سعة الملك، وعلوِّ اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر في أنفسها؛ بحيث أنهم كانوا يسمون الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون الناس عبيدًا لهم، فلما امتحن بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب وكانت العرب

عند الفرس أقل الأمم خطرًا؛ تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتَّى، وفي كل ذلك يظهر الله تعالى الحق.

المقريزي يذكر بتوسع سبب خروج هذه الفرق، وهذه الطوائف -كما سبق- الخوارج، وكما سبق الشيعة، وكما سبق الجهمية، وكما سبق المرجئة، وكما سبق، طوائف كثيرة خرجت في التاريخ، وكل طائفة انقسمت على نفسها إلى فرق، فكما سبق المعتزلة يعني بلغوا عشرين فرقة، والمرجئة أيضًا إلى فرق، والخوارج أيضًا إلى فرق، ومنهم من يقارب الحق، ومنهم من يخرج عن دائرة الإسلام، ومنهم من أدنى من ذلك، وأكثر من ذلك والعياذ بالله؛ فالمقريزي ﷺ وهو مؤرخ كبير له كتب في التاريخ، وهذا كتابه الذي ينقل في التاريخ، لأن (الخطط) يقصد بها أحوال مصر من حيث الوجود، ومن حيث المساجد، ومن حيث الزوايا، ومن حيث كل ما يتعلق بمصر، من حيث الوجود بجميع

أشكالها وأنواعها ومذاهبها، وما مر فيها، فهذا من كتبه التاريخية، ومن أعظم كتب الخطط.

يبيِّن أن السبب في خروج هؤلاء هو قضية الانتقال، فهم ليسوا على غلط، أو ليسوا متأولين، وإنما هو أمر يريدون به القضاء على الإسلام، ويدخلون على المسلمين من حيث لا يشعرون، يدخلون عليهم بالتأويل، ويدخلون عليهم بالتكفير، ويدخلون عليهم بكثير من الأمور، وكان كذلك فأخذوا محبة أهل البيت وجعلوها فزعة يتوصلون بها إلى كل بغية يريدونها طيلة هذا التاريخ، فلهذا الذي تبنى مذهبهم في الأول هو عبد الله بن سبأ اليهودي، فجعل الوصية لعلي بن أبي طالب، وجعل الإمامة وقف عليه وعلى أبنائه، وجعلها أصل من الأصول وهي ركن من أركان الإيمان، وجعل الرجعة لعلي بن أبي طالب، وجعل فكرة المهدي المنتظر الذي يخرج، وجعل أن علي يظهر في السحاب، وأن الرعد صوته، وأن البرق يعني سيفه، وهكذا يعني من الأشياء الباطلة يعني: أصل لهم بها هذا المذهب الفاسد.

فالمقريزي عليه السلام يقرّر في هذا البحث الذين دخلوا في الإسلام بهذه الفتن يريدون إنهاءه، ويريدون القضاء عليه، فلهذا لا يؤمنون ولا يعتذر لهم، ولا يقال: إنهم متأولة، أو أنهم كذا، وأنهم كذا، فالذي يقرأ بحث الإمام المقريزي يرى هذا الأمر، ولهذا يقول لنا في بعض عبارته: وقد أظهر عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي الإسلام ليكيد أهله، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه وأحرق علي رضي الله عنه منهم طوائف أعلنوا بألوهيته، ومن هذه الأصول حدثت الإسماعيلية والقرامطة، والحق الذي لا ريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجوهر لا سر تحته، وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه، ولم يكتم

رسول الله ﷺ من الشريعة، ولا كلمة، ولا اطلع أخص الناس به من زوجة، أو ولد عن معنى، أو ولد عم على شيء من الشريعة كتمه، أو ولد عم على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود، ورعاة الغنم، ولا كان عنده ﷺ سرّ، ولا رمز، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتم شيئًا لما بلغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر بإجماع الأمة إن شاء الله.

المعتزلة:

الإمام المقريزي في خططه توسع في هذا الموضوع، وذكر الفرق فرقة فرقة، منطلق من حديث تفترق افترقت اليهود والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وعد هذه الفرق فذكر المعتزلة وذكر غيرهم. نتكلم على ما يتعلق بالأسماء والصفات.

كما سبق أن هذا من مباحث فيها الفلاسفة وفيها الجهمية وفيها المعتزلة، يقول الشيخ المقريزي يقول: الفرقة الأولى المعتزلة، قال الغلاة في الصفات الإلهية: القائلون بالعدل والتوحيد وأن المعارف كلها عقلية حصولًا ووجوبًا قبل الشرع وبعده، وأكثرهم على الإمامة بالاختيار، وهم عشرون فرقة، هذه هي الفرقة الأولى التي هي فرقة المعتزلة التي تفرع عنها عشرون فرقة لا شك أن المعتزلة لهم تاريخ مليء بالفتن، ومليء بالمحن، ومليء بالشغب على الجماعة الإسلامية.

هؤلاء المعتزلة أصلُّوا لهم أصول الأصل الأول وهو العدل، الأصل الثاني وهو المنزلة بين المنزلتين الفصل الأصل الآخر أو الرابع، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الفصل الآخر الذي الوعيد الأصل الذي يهمنا وهو ما أسموه بالتوحيد، هذا الأصل الذي هو التوحيد هو في الحقيقة يقصدون به هو

التعطيل، وهو نفي الصفات، وهم يثبتون الأسماء على خلاف بينهم، وعلى انحراف واعوجاج، ولا شك أن المعتزلة انتشر مذهبهم في كتب التفسير خصوصًا، ولا سيما ما ألف الزمخشري كتابه (الكشاف)، وذكر فيه مذهب الجهمية عند كل آية من الآيات، ومنه نقل كل المفسرين المؤولين، ولا سيما الرازي في تفسيره فإنه أخذ عبارة الزمخشري وطولها تطويلًا فقط، وإلا فهي عبارة الزمخشري في التأويل.

وانتقل مذهبهم إلى كتب الأصول، فكتب الأصول كلها شبكة من الفكر الاعتزالي، ومتأخرو الأشاعرة على مذهبهم، بل معظم كبار الأشاعرة تأثروا بالفكر الاعتزالي يعني: الجويني ومن جاء بعدهم ابن فورك، وغيرهم هم تأثروا بمذهب المعتزلة، وكذلك بعض شرَّاح الحديث، أما الآداب وغيره فكذلك انتقل مذهبهم، فالمهم أن مذهب المعتزلة انتقل وتبنى مذهبهم كل الفرق المخالفة يعني: تبناه الإباضية والخوارج، وتبناه الشيعة بجميع طوائفهم، والزيدية الذين أجبروا الزمخشري على كتابة (الكشاف) كما ذكر أبو حيان في تفسير سورة البقرة.

فمذهبهم خطير والمعتزلة في الحقيقة كما لا يخفى مذهبهم خطير وخطير جدًّا، قال الإمام: قال مؤلفو كتاب الإمام ابن تيمية: وموقفهم من قضية التأويل، قال: ولكي تسلم لهم هذه الأصول الخمسة عمدوا إلى النصوص فتأولوها على مذهبهم، فلكي يسلم لهم فلكي يسلم لهم مذهبهم في العدل أنكروا القضاء الأزلي الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] إلى أن قال: فالمعتزلة -وقد سموا أنفسهم في بأهل التوحيد- سلكوا في تفسير التوحيد مسلكًا غريبًا ومبتدعًا في الإسلام؛ حيث قالوا بنفي صفات الباري تعالى سواء في ذلك ما أسموه بصفات الذات أو صفة الأفعال، وجميع المعتزلة يُنكرون

الرؤية في الآخرة، وعندهم من قال: إن الله يرى في الآخرة، فلو صار على أي وجه فمشبه إلى أن قال: ولقد لجأ المعتزلة في تعليلهم لهذا المذهب إلى منطق غريب يدل على أنهم لم يفرقوا بين عالم الغيب والشهادة، وبين ما يجب في حق الله تعالى وحق الإنسان، فقالوا: إن الله لو وصف بصفة ما؛ للزم قبل هذه الصفة ناقص ومحتاج إلى من يكمله بهذه الصفة.

ثم قال: لو وصف بصفة ما لنتجَ عن ذلك تصور الكثرة في الذات الإلهية، ثالثًا لو وصف بصفة ما للزم تبعًا لذلك أن تشاركه هذه الصفة في معنى القدم، ولزم تعدد القدماء، ونتج عن تصور المعتزلة لصفات الله على هذا النحو إلى أن قالوا بنفيها عنه، حتى لا يلزم عنه من وصفه بها محال، وهم جميعًا متفقون على مقالات النفي إلا أنهم يختلفون في تحديد هذه الصفات، وتحديد العلاقة بينهما وبين الذات الإلهية.

إلى أن قال: وليس معنى ذلك أن المعتزلة يُنكرون الصفات الإلهية بمعنى أنهم يصفون الله بضدّ ما وصف به نفسه في كتابه، فمن قرأ عن أحد منهم أنه وصف الله تعالى بالجهل، أو بالعجز، أو بالصمم، لكنهم فسروا هذه الصفات تفسيرًا أتى بهم إلى تعطيلها، ولهذا بدا رأيهم خروجًا عن السنة، وشذوذًا عن الجماعة، وعرفوا في دوائر الفكر الإسلامي بالمعطلة والنفاة، يعني: هذا الكلام الذي ننقله من كتاب الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل.

قال المؤلف: لأن الجماعة الإسلامية تلقَّت الصفات الإلهية كما أخبر بها الرسول، والكتاب المبين بالرضا، والقبول؛ لأنهم لا يتصوروا ذاتًا بلا صفات إذ ما الذات بلا صفات إلا عدم المحض، ولا وجود لهم، ثم ماذا يقال في هذه الآيات المتكررة في القرآن التي جاءت فيها الصفات في أكثر من صورة، مرة في

صورة الفعل، ومرة ماضيًا أو مضارعًا، ومرة في صورة المصدر، ومرة في صورة اسم الفاعل وصيغ المبالغة ومشتقاتها، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، وعليم بذات الصدور، وعلام الغيوب، ويعلم ما تحمل كل أنثى، وهكذا في معظم الصفات.

ماذا يقال في ذلك؟ فماذا يقال في تلك الصفات، وماذا يقال عن تكررها، وتعدد مواردها وصورها في كتاب الله، وموقف المعتزلة من هذه الصفات يتمثَّل في نفيهم لها إلا أنهم قد أنكروا الصفات الخبرية جميعًا من استوائه تعالى على عرشه، وعلوِّه على خلقه ونزوله إلى السماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة، والملك صفًّا صفًّا كما أنكروا رؤيته يوم القيامة، وذهبوا إلى تأويل الآيات الخاصة بهذه الصفات كل مذهب، فعندهم أن الله لم يستو على عرشه، ولن يأتي يوم القيامة ولا يراه المؤمنون أبدًا، وكذبوا الأحاديث الصحيحة الثابتة في تلك الصفات.

لقد ركب المعتزلة متن اللجاج فتعسَّفوا في التأويل واضطربوا في التخريج، وحملوا آيات الكتاب العزيز على ما يمكن أن تحتمله؛ لكي تسلم لهم مقالة النفي والخطب يكون سهلًا لو أنهم صرَّحوا بمقالة النفي على أنها رأيهم الخاص قد توصلوا إليه بناءً على اجتهاد أنفسهم إلا أنهم قد أعلنوا أن ذلك هو حقيقة الدين وأصوله، وأعلنوها باسم الإسلام إلى أن قال: والمعتزلة والأشاعرة لم يقصدوا من وراء مقالاتهم في النفي والإثبات لله تحقيق معنى الكلام لله الذي تصوَّروه في حقه تعالى إلا أنهم جميعًا، قد أخطئوا في تصور هذا الكلام، وتفسيره بمعناه؛ إذ كان عليهم أن يفرقوا بين في تصورهم لهذا الكمال بين حقيقتين مختلفتين تمام الاختلاف، هما حقيقة الذات الإلهية وبين حقيقة الإنسان، وبين ما ينبغي تصوره في حق الله، وبينه في حق الإنسان، فلا ينبغي أن نتخذ المقياس الذي

نقيس به في عالم الشهادة، ونطبقه على عالم الغيب، وإذا كان الله أعلم بنفسه وبما يجب له من صفات الكمال فما علم في ذلك إلا تقبل ما وصف نفسه به بدون تأويل لمعناها أو تحريف لألفاظها، وإذا كان الله قد وصف نفسه بصفات ووصف عباده بصفات فليس معناها أن حقيقة الصفتين واحدة فيهما، بل العقل والمنطق يقرّران أن كل صفة تتبع موصوفها سموًّا وكمالًا ورفعة، وإذا كنا لا نعرف عن حقيقة الذات الإلهية إلا جهلنا بهذه الحقيقة، فلماذا لا نحاول تفسير صفاته تعالى في ضوء صفاته نحن وتصورنا له، أليس في ذلك مجانبة للصواب ومكابرة للعقل، وإذا كان الله قد أخبرنا عن الكمال الواجب اتصافه به في كتابه متمثلًا في صفاته التي ارتضاها لنفسه، فأيُّهما أكثر قبولًا لدى العقل أن نقبل ما وصف الله نفسه به مثبتًا كما ورد في كتابه، أم ننفيه كما أراد المعتزلة أن يتصوَّروه؟ وهل المعتزلة كانوا في ذلك أعلم بما يجب لله من الصفات منه بنفسه، أليس في مقالة النفي تهجم في حق الله تعالى وتجهلًا لرسوله؛ حيث يقول هو ورسوله بالإثبات، ويقولون هم بالنفي، لقد تابع المعتزلة في ذلك الفلاسفة وأخذوا في مقالة الجهم بن صفوان في النفي، وجذبوا إلى صفوفهم متأخري الأشاعرة والشيعة، وتأولوا جميع آيات الصفات إلى ما يؤدي إلى تعطيلها عما دلَّت عليه، انتهى من النقل.

القصد هو بيان أن المعتزلة ذهبوا في هذا الباب مذهبًا بعيدًا عن الصواب، وأن الذي أوقعهم في هذا الخطأ هو توهمهم التشبيه، وزعموا التنزيه، ورأوا أو وزعموا أن صفات الخالق تُشبه صفات المخلوق، وقاسوا على الغيب على علم الشهادة، وهذه هي الإشكالية التي وقعوا فيها، فما أثبته الله -تبارك وتعالى- في كتابه وما أثبته له رسوله ﷺ في سنته فيليق به، وما هو للمخلوق يليق -كما سبق- في القواعد التي مضت في قواعد السلف رضي الله عنهم في الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق، فلهذا نلاحظ أن المعتزلة ذهبوا في هذا الباب مذهبًا بعيدًا عن

الصواب، وحادوا عن الحق، وأولوا الصفات تأويلًا لا يليق بالله -تبارك وتعالى- فعلى المسلم أن يتجنَّب مذهبهم، وأن يحذرهم كما حذَّر منهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم، وبينوا خطأهم.

الأشاعرة:

الأشاعرة في الحقيقة ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، وأبو الحسن الأشعري شاع صيته، وانتشرت أخباره، وترجم له المؤرخون، وهو لا شك من العلماء المشاهير غير أن أبا الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ عاش في حضن المعتزلة، وتربَّى على فكرهم وعلى منهاجهم مدة طويلة، وكان زوج أمه أبو علي الجبائي هو الذي يشرف على دراسته، لكن أبا الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ انتبه إلى خطر المعتزلة، وحاول أن يتخلص منهم، وتغيَّب مدة على ما ذكر ابن عساكر في تبيين كذب المفتري وغيره، كل الذين ترجموا لأبي الحسن، ذكروا هذه القضية، وأن أبا الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تغيَّب مدة، ثم خرج إلى مسجد البصرة، وخطب فيهم، وذكر سبب غيبته، وأنه انخلع من المعتزلة كما ينخلع من ثوبه، وخلع ثوبًا كان عليه فتبرأ من المعتزلة في ذلك الوقت، وتصدى للرد عليهم، وعلى قضاياهم وانسلخ من فكرهم.

ثم رأى أقرب فكر له وهو الفكر الكلابي الذي يثبت الصفات الخبرية، فالتحق بابن كلاب، وبقي على هذا مدة، ثم تبين له أن ابن كلاب أيضًا لا يصلح له، فانتقل إلى المذهب السلفي وإلى العقيدة السلفية، وكان لأبي الحسن كما ذكر الحافظ ابن كثير في (طبقات الشافعية)، وكما نقل شارح (الإحياء) الزبيدي في كتابه الذي شرح به (إحياء علوم) الدين ذكر أن لأبي الحسن هذه الأطوار الثلاثة التي تقلب فيها، ولعل هذا الطور هو الذي ألف في هذا الكتاب الإبانة، ولعلها

آخر ما ألف و(الإبانة) في الحقيقة كتاب عظيم يدل على أن صاحبه انتهج المنهج السلفي، وهذا الكتاب حاول أن ينكره بعض المتأخرين، وأن يجعله ليس من كتاب أبي الحسن، وكل يعني المؤرخين الكبار والأئمة الكبار، ذكروا هذا الكتاب لأبي الحسن منهم الإمام ابن تيمية ﷺ والإمام ابن القيم، والإمام الذهبي، وابن عساكر، وكثير من العلماء القدماء والمعاصرين منهم العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ناصر الألباني، والشيخ صالح الفوزان، وقد كتب أخونا الشيخ الدكتور صالح العصيمي رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى في هذا الموضوع في كتاب (الإبانة)، وكتب قبله ناس منها الدكتورة فوقية المصرية، وكذلك كتبت رسائل كثيرة في هذا الموضوع وإشارات كثيرة.

وذكر الشيخ صالح العصيمي في رسالته هذه يعني أدلة كثيرة تثبت أن (الإبانة) هي لأبي الحسن، فأبو الحسن ﷺ ذكر في هذه الإبانة، ذكر عقيدة السلف مرتبة بأسلوب يسير وسهل، وهي تفارق كتب السلف في فحواها ولا في مجملتها، وهي كفيلة لمن أراد أن يرجع إلى عقيدة أبي الحسن رحمه الله، وقد أثبت وذكرت منها جملًا، وكذلك كلامه في المقالات، فقد ذكر عقيدة الإمام أحمد ﷺ، وقال: وبها نقول.

فالأدلة على إثبات الإبانة لأبي الحسن، وعلى أن أبا الحسن رجع إلى العقيدة السلفية، وإلى المنهج السلفي يعني: كبيرة في هذه الإبانة، فنحيل الطلبة والقراء، ونحيل الباحثين على هذا الكتاب، فنحيل على الدكتور الشيخ صالح العصيمي فإنها نافعة وجيدة جدًّا على الكتابة بابن عساكر، وتبيين كذب المفتري وعلى غيرها من الكتب، وكل الشُّبه التي ذكروا فيها دفع الإبانة عن أبي الحسن ذكرها الشيخ صالح، ودفع بما هو واضح في كتابه جزاه الله خيرًا.

وأيا ما كان فأبو الحسن هو سلفي وأخيرًا يعدّ من علماء السلف ومن السلفية، يعني: أحب من أحب وكره من كره، لكن مع الأسف التعصب بقي في هذه العقيدة وبقي الناس يريدون علم الكلام، ويريدون الفلسفة، ولا يحبون الرجوع إلى ما كان عليه الصحابة، وما كان عليه السلف الصالح إلى العقيدة الفطرية عقيدة الصبيان، وعقيدة الذين نشئوا على فطرتهم، ويريدون الحق فبقي الناس على ذلك، وبقيت الأشعرية على ما هي عليه في الطور الذي كان عليه أبو الحسن في نقل ابن كلاب، فيؤولون الصفات الخبرية، ويؤمنون باسم صفات زعم أن العقل أثبته، وقد نوقشوا في هذا، وناقش شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك ناقش شيخ الإسلام ابن القيم وناقشها الكثير من الباحثين الذين يردون على الأشاعرة.

العقيدة الأشعرية المعتمدة في كثير من بلاد العالم الإسلامي، وفي مدارسهم في جوامعهم، وفي كتبهم، وفي حلقاتهم هي هذه العقيدة التي سأقرأ نصها، وهي عقيدة كنت أقرؤها وأتعلمها وأنا صبي صغير يعني: العالم الإسلامي يتعلم هذه العقيدة على أنها هي التوحيد، وهي في الحقيقة قضايا كلامية سأقرأها على مسامعكم حتى تعلموا أن العقيدة الأشعرية في الحقيقة مجانبة لنصوص الكتاب والسنة، ولمنهاج السلف الصالح.

فهذه هي العقيدة التي كنت أحفظها وأنا صغر في صغر سني، وكنا نتعلمها في المسجد باسم التوحيد هذه العقيدة هي لأبي تُسمى بـ(أم البراهين)، وهي لأبي عبد الله بن محمد بن يوسف السنوسي، وهذا نصُّه، قال رحمه الله: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام: الوجوب، والاستحالة، والجواز، لا في كتاب ولا في سنة يعني: الحكم

العقل يعني: مسائل كل قضايا عقلية الله -تبارك وتعالى- قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهؤلاء يرجعون في مصادرهم إلى العقل، وأن العقل هو الذي يوجب، وهو الذي ينفي، وهو الذي يجوز، كما هو نص هذه العقيدة.

والأشاعرة ما يزالون يصرون على العقيدة الكلامية وأن أبا الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه العقيدة الكلامية، والحقيقة والحق ليس كذلك.

فباختصار هذه العقيدة كنت أدرسها وأنا صغير السن كعادة كثير من البلاد الإسلامية التي تدرس أبناءها العقيدة الأشعرية، وكما سبق في ترجمة نور الدين وصلاح الدين الأيوبي فإنهم كانوا يدرسونها، ويدرِّسُونها لأبنائهم، وبهم انتشرت هذه العقيدة دون الحكومات السابقة هي التي نشرت العقيدة الأشعرية، أو عقيدة الاعتزال -كما سبق- عن عبد الله المأمون وعن غيره ممن تبنوا هذا المسلك، وكما ذكرنا عن الشيعة وعن غيرهم ممن كان له دور كبير في نشر هذه العقائد الفاسدة الباطلة كما ذكر العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما سبق، وفيما ذكرنا.

هذه العقيدة هي لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، وهذا نصها: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام: الوجوب والاستحالة والجواز. يعني: تلاحظ أن الافتتاح بالعقل، وأن الإيجاب بالعقل ليس بالكتاب ولا بالسنة، فالواجب ما لا يتصوَر في العقل وجوده، كلها أمور ثابتة بالعقل وعدمه، ويجب على كل مكلف شرعًا أن يعرف ما يجب في حق مولانا عز وجل، وما يستحيل، وما يجوز، وكذا يجب عليه معرفة مثل ذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام، فمما يجب لمولانا عَزَّوَجَلَّ عشرون صفة وهي الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه

تعالى بنفسه أي: لا يفتقر إلى محن، ولا مخصص والوحدانية أي: لا ثاني له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهذه الست صفات الأولى نفسية وهي الوجود، والخمسة بعدها سلبية، ثم يجب له تعالى سبع صفات تُسمى صفات المعاني، وهي القدرة، والإرادة المتعلقات بجميع الممكنات، والعلم متعلق بجميع الواجبات والجائزات المستحيلات، والحياة وهي لا تتعلق بشيء والسمع والبصر بما يتعلق بالعلم من المتعلقات، ثم سبع صفات تُسمى صفات معنوية، وهي ملازمة للسبع الأولى، وهي كونه تعالى قادرًا ومريدًا وعالمًا وحيًّا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا.

ثم ذكر أضدادها، ثم ذكر الجائز على كل حال الذي يلاحظ أن هذه العقائد كما تقرءون، وكما تسمعون خالية من الأدلة من الكتاب ومن السنة، ففرق بينها وبين أن تقرأ مثلًا العقيدة الواسطية، كلها أدلة أو عقيدة الإمام، أو كتاب السنة كلها أدلة أو أصول السنة للالكائي أو كتاب التوحيد من صحيح البخاري كلها أدلة أو كتاب الإيمان من صحيح البخاري أو مسلم كلها أدلة من كتاب الله ومن سنة رسوله، فهذه العقائد كما يلاحظ جامدة، يعني: خالية من الأدلة وليس فيها ما يقرب إلى الله، ونلاحظ هذه التقسيمات التي ذكر هذا المؤلف أنها تقسيمات كلامية، وعليها ملاحظة، وفيها سوء أدب مع الله -تبارك وتعالى- كما قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله، فالشيخ الشنقيطي رحمه الله له بحث نفيس في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فنذكر ملاحظة الشيخ على هذه العقيدة التي هي بهذا التقسيم وبهذا الوصف قال رحمه الله: حيث إنه الشنقيطي رحمه الله في (أضواء البيان) قال رحمه الله: اعلم أولًا أن

المتكلمين قسموا صفاته جل وعلا إلى ستة أقسام: صفة نفسية، وصفة سلبية، وصفة المعنى، وصفة معنوية، وصفة فعلية، وصفة جامعة، والصفة الإضافية تتداخل مع الفعلية؛ لأن كل صفة فعلية هي من مادة متأتية إلى النفع كالخلق والإحياء والإماتة، فهي صفة إضافية، وليس كل صفة إضافية فعلية فبينهما عموم وخصوص من وجه يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة، وتتفرد الفعلية في نحو الاستواء وتتفرد الإضافية في نحو الاستواء، وتتفرد الإضافية في نحو كونه تعالى كان موجودًا قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا يخفى على عالم بالقوانين الكلامية والمنطقية أن إطلاق النفس على شيء من صفاته جل وعلا أنه لا يجوز، وأن فيه من الجراءة على الله -جل وعلا- ما الله عالم به، يعني: هذه الملاحظة الأولى على هذه العقيدة، إساءة الأدب مع الله، وبكل أسف من كان مثلنا في السن في ذلك الوقت وقس عليه الملايين من الناس الذين قرءوا هذه العقيدة كلهم يحفظون هذه العقيدة، ويتجرءون على الله -تبارك وتعالى- بهذه الجرأة جاهلين بذلك مع الأسف، والله المستعان، ففيه جرأة كما قال الشيخ.

إذًا هذا مأخذ كبير ولو لم يكن في هذه العقيدة غير ما ذكرنا من خلوّها من الأدلة، ومن وصفها بأنها عقيدة جامدة لا يشمّ منها رائحة الإيمان، ولا يشم منها رائحة الحلاوة، فيكفي هذا فلا تكسب فمن قرأ هذه العقائد لا يكسبه إلا القساوة؛ لأنها لا تزيد الإنسان إلا قساوة، ويكفيه أنه يقع في الحفظ، وفي القراءة لهذه العقيدة يقع في الخسارة وفي الجرأة على الله تعالى.

ثم قال الشيخ بعد بحث في هذا الموضوع يعني: ملاحظة أخرى فيما سموه بالصفة المعنوية، وأما الصفة المعنوية عندهم فهي الأوصاف والمشتقات من صفة المعاني السبب المذكورة، وهي كونه تعالى قادرًا مريدًا عالمًا حيًّا سميعًا بصيرًا

متكلمًا، قال ﷺ: والتحقيق أنها عبارة عن كيفية الاتصاف بالمعاني، وأعد المتكلمين لها صفات زائدة على صفات المعاني مبني على ما يسمونه الحالة المعنوية زاعمين أنها أمر ثبوتي ليس بموجود، ولا معلوم، والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذا الذي يسمون وهي الحالة المعنوية لا أصل له، وإنما هو مطلق تخيلات يتخيل منها؛ لأن العقل الصحيح حاكم حكمًا لا يتطرق إليه شكّ بأنه لا واسطة بين النقيضين البتة، فالعقلاء كافة مطبقون على أن النقيضين لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ولا واسطة بينهما البتة، فكل ما هو غير موجود فإنه معدوم قطعًا، وكل ما هو غير معدوم فإنه موجود قطعًا، وهذا لا شك فيه كما ترى.

إذًا العقيدة التي نحفظها والتي يحفظها أمثالنا في سننا في ذلك الزمان وبعدنا يقرءون شيئًا باطلًا، وشيئًا خياليًّا لا حقيقة له يسمونه الصفات المعنوية التي زعموا أنها مشتقة من صفات المعاني، وقد بيَّن الشيخ أن هذا مجرَّد خيال وتخيل، فلا واسطة بين الوجود والعدم، إما وجود وإما عدم، فما ذكروه فلا يمكن أن يتحقق إما أن يكون موجودًا وإما أن يكون معدمًا؛ فالجمع بين النقيضين لا يتسق ولا يمكن أن يكون موجودًا، وهو في العقل إما موجود وإما غير موجود، فالشاهد أن هذه العقائد عقائد باطلة، والتعليق عليها يطول ويكفي هذه التنبيهات اليسيرة من الشيخ الإمام الشنقيطي ﷺ، وسنجد هذا الأمر بيانًا.

الحقيقة يعني: هذه الأضرار من كلام كثيرة أضرار كثيرة منها ما سبق ومنها أن الإنسان يخرج على دراسة الكتاب والسنة إلى عقائد باطلة لا يعلم صحتها، ولا يعلم مصدرها؛ فعلم الكلام له أضرار كثيرة، نذكر ما ذكره الشيخ الوكيل شيخ من شيوخ الأزهر السابقين الذي تخرج من الأزهر، وله كتاب قيم اسمه (الصفات الإلهية)، وله الكتاب المعروف (هدي الصوفية) فهو كتبه قيمة، ورجل غيور على هذه العقيدة الطيبة المباركة.

الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذاهبهم (١)

عناصر الدرس

العنصــــــــر الأول : علم الكلام وأضراره، وموقف السلف منه ١٧٩
العنصــــر الثـــاني : من الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذهبهم (التأويل - رد خبر الآحاد) ١٩٢

علم الكلام وأضراره، وموقف السلف منه

علم الكلام وأضراره:

قلت: في هذا الكتاب (المفسرون): ولله درّ الشيخ عبد الرحمن الوكيل حيث صوَّر ما عليه الأزهر في تدريسه لهذه الكتب، قال في كتابه القيم (الصفات الإلهية): تحت عنوان موضوعات علم الكلام قال رحمه الله: إليكم بعض مسائل علم الكلام كما يدرس الآن تعريف العلم وتقسيمه إلى تصور وتصديقات، والكلام حول تلك التعريفات للعلم، وتعريف التصور، وتعريف التصديق الكلام في العلوم الضرورية، وفي النظر ووجوبه، وهو أول الواجبات معرفة الله، أو النظر فيها، أو القصد إليها... إلى آخر ما ذكر رحمه الله.

ثم قال بعد هذا الكلام: هذه بعض مسائل علم الكلام التي يفرض على رجال الدين أن يعتقدوا أن الإيمان يتوقف على معرفتها، وما زالت العقائد النسفية من شروحها وحواشي شروحها، وبالجدل العقيم حول ألفاظ متنها، وحول ما يريده المؤلف منها كأنما ألفاظها وحي إلهي مقدس، وما زالت تدرس ويفرض على الطلاب الإيمان بكل كلمة فيها، وبأنها تمثل العقيدة الإسلامية، قد ينقضي العام كله والطالب المسكين لم ينقض من فهم الفقرة الأولى من مثل العقائد النسفية، وهي قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة والعلم متحقق خلافًا للسفسطائية؛ إذ لا بد أن يعرف الطالب منهم أهل الحق ومفهوم كلمة الحق، والفرق بالحق، والصدق، وحقيقة الإضافة بين كلمة أهل وكلمة الحق، وأن يحيط بتعريفه كلمة شيء، والمراد بحقيقة الشيء: كل هذه ألفاظ سمجة لا يمكن أن يعرف الإنسان

منها، أو أن يستفيد الإنسان منها علمًا، يعني: مضيعة للوقت، يعني: الشيخ الوكيل رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر هذه الفقرات للتمثيل بمهازل علم الكلام، وبمضيعة الوقت فيه، وأن هذه العلوم ينبغي أن تهجر لا ينبغي أن تحيى يعني: الطالب يقضي فيها الأوقات، ويضيع فيها الأيام والأزمنة.

يعني من الطرف التي ذكرها الشيخ الوكيل رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه يقول: بل قد يقف طويلًا عن تعبيرات المؤلف نفسه؛ ليبين له أسرار العبقرية البلاغية في بيانه، فيسمع من شيخه لماذا عبَّر المؤلف بكذا، ولم يُعبِّر بكذا، ولماذا قدم ما قدم، وأخر ما أخر، واختار التعبير بالفعل دون الاسم، وقد يتبين للطالب المسكين بعد أسابيع قضاها في تعلم سريرة البلاغة في تعبير المؤلف، إن هناك أخطاء مطبعية في العبارة نفسها، وأن شيخه كان يحاول بيان الإعجاز في هذا الخطأ المطبعي؛ إذ هو يخاف من النقد حتى للخطأ البين، ولا يحاول اقترانه لكي لا تحل به لعنة المؤلف المقدس.

يعني: هذه مهازل حقيقة أن الشيخ والمدرس يحاول أن يبرز البلاغة في تعبيرات المؤلف يعني: بالتقديم وبالتأخير، وبالفعل وبالاسم، وبالمصدر، ويتبين في الآخر أن هذا أخطاء مطبعية، يعني: إلى هذا الحد وصل بهم الغباء ووصلت بهم البلادة، وهذا جزاء من ترك الكتاب والسنة يعني: الذي يترك الكتاب والسنة هذا جزاؤه أن يقع في مثل هذه الأخطاء، ومثل هذه المهاول السحيقة التي في الحقيقة يستحيي الإنسان من قراءتها، ويستحيي من ذكرها، وهذا مع الأسف ينافي الأزهر الشريف الجامعة العالمية الكبرى التي أسسها الفاطميون من قديم، والتي مضى عليها تاريخ كبير، ومع ذلك لم تستطع أن تتخلص من هذه الضحالة، ومن هذه العقائد الكلامية الفاسدة، والتي ذكر الشيخ الوكيل أنها تدرس في الأزهر، وهي العقائد النسفية.

ثم ذكر الشيخ قال: ويا ويح الشيخ حين يتجلله في وضوح أن أدلة المعتزلة في مسألة ما أقوى من أدلة الأشاعرة، وتبطل ما ذهبوا إليه، تُرى ماذا يفعل المفروض عليه أن يؤمن بأن كل دليل أشعري هو فوق كل دليل، وإن كان الدليل الأشعري تعبيرًا عن آفات الباطل وشحوب الاحتضار الفكري، والمفروض عليه أن يكون لطلابه كذلك، فكيف يستطيع الملاءمة بين باطن المتمرد يدعو إلى الثورة، وظاهر المستخدم والمستلم في صغار، وكيف يصمد أمام هذه النظرات التي تدل على معرفة، والتي يصوبها بعض طلبته إليه في تحدٍّ وإشفاق هو أقصى من السخرية.

إذًا هكذا تُدرس العقيدة الأشعرية في الأزهر، وبهذه الصورة البشعة وما ذكره الشيخ الوكيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولهذا يعني: سلبت الهبة من العلماء وظهر فيهم ما ظهر من الانحطاط واستحقارهم من هو تحتهم، وما بقي لهم ذلك الأمر، ولهذا لم تفيدهم هذه العقيدة بشيء، فذهبوا إلى المشاهد وذهبوا إلى الأضرحة، وحضروا الموالد، وحضروا البدع، وحضروا الضلالات؛ لأن هذه العقيدة لا تمكنهم من الفهم، ولا تمكنهم من أن يعرفوا السنة ويعرفوا الكتاب، ويعرفوا الله على حقيقته، ويعرفوا توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة، فهذه العقيدة لم تمكنهم من هذا؛ فلهذا سقطت هيبتهم، وسقط احترامهم، لأن هذا جزاؤهم من أن من اتبع علم الكلام، فينتهي به الأمر إلى هذا فالله -تبارك وتعالى- لا يظلم أحدًا، والعقيدة دائمًا لا يجوز أن تؤخذ إلا من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، ولهذا النموذج في العقائد هو ما كتبه المحدثون كما أشرت إلى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتب العقيدة التي رسم في صحيحه، وأبو داود في سننه، ومسلم في صحيحه، والطبراني في سنته، وابن ماجه في مقدمته، والدارمي في مقدمته، ومالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موطئه، وكل الذين

ألفوا في الحديث تجدهم يذكرون العقائد، وبالكتاب وبالسنة، والذين خرجوا عن هذا المنهاج وقعوا فيما سمعتم من هذا الانحراف العقدي، وهذا السقوط، وهذا النزول؛ بحيث لا بلاغة، ولا أسلوب، ولا كتاب، ولا سنة، وإنما ما ذكره الشيخ الوكيل رحمه الله في كتابه عن (الصفات الإلهية).

الأصول التاريخية لمقالات المتكلمين:

الأصول التاريخية لمقالات المتكلمين يعني: سبق فيما ذكره العلامة ابن القيم والمقريزي في ظهور البدع، وأن معبد ظهر في القدر أول من تكلم في القدر، وأن الجعد بن درهم أول من تكلم في الصفات، وأن عبد الله بن سبأ أول من ظهر بمذهب الشيعة وادّعاء حبّ آل البيت، فالآن نريد أن نجمع سند الجهمية كما يذكرهم ابن تيمية رحمه الله في كتبه كلها، فابن تيمية رحمه الله يذكر سند الجهمية يقول: بأن أول ما بدأ الجعد بن درهم مؤدب مروان، ثم أخذ عن الجعد أخذ عنه الجهم بن صفوان، ثم الجهم بن صفوان أخذ عفوًا بأن الجهم بن صفوان أخذ عن الجعد بن درهم، والجعد بن درهم أخذ عن أبان بن سمعان، وأبان بن سمعان أخذ عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وطالوت أخذ عن خاله لبيد الذي سحر الرسول ﷺ، فهذا هو السند الذي عند الجهمية، وتلاحظون أن السند ينتهي إلى اليهود؛ لأن لبيد هو الذي سحر الرسول ﷺ.

قال: إذًا هذا هو السند الذي ذكرنا، يقول ابن تيمية: فهذه أسانيد الجهم ترجع كلها إلى اليهود والصابئة والمشركين والفلاسفة الضالون، هم إما من الصابئة، وإما من المشركين، هذا كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله، ثم قال مؤلف إمامنا ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل.

موقف السلف من علم الكلام ومآخذه وموارده:

لا شك ولا ريب أن السلف الصالح -رضوان الله عليهم- بداية من الصحابة كانوا على نصحٍ كبيرٍ للأئمة، وأنهم نصحوا الأمة في كل ما تحتاج إليه؛ لأنهم بايعوا الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم، وسمعوا منه ﷺ: ((الدين النصيحة))، وواقعهم وحالتهم هي النصح، وهذا النصح ورثه بعدهم التابعون، ثم ورثه أتباع التابعين، وورثه كل مسلم صادق، فالنصح للمسلمين هو منهاجًا للإسلام، وواجب العلماء، ولا سيما الذين رسخوا في العلم فواجبهم النصح، ومن كتم شيئًا فإنه يحاسب به، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]، والعياذ بالله، هذا وعيد جديد في كتمان الحق، ((من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار الله)) والله المستعان.

فالتحذير من الشر، والتحذير من البدع، والتحذير من المخالفات، ومن المعاصي، ومن الشرك بالله، واجبُ العلماء، وواجب الأمراء والحكام الذين ينصحون لله ولرسوله، ومن تخلف عن هذا الأصل -الذي هو النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- فقد خان الله، وخان رسوله، وخان الأمة، وخان الإسلام والمسلمين، في كل زمان، وفي كل مكان، وفي أي وقت، ومن عنده شيء وبخل به فإنه يحاسب به، لا بد من بذل النصح والتوضيح للأمة، ولا بد من تحذيرهم من كل مصيبة، ومن كل بلية، ومن كل فتنة، وقيادتهم للخير، فكما سبق في تاريخ الجهمية، وتاريخ القدرية، وتاريخ الشيعة، وما جرّوه على

المسلمين من بلايا ومصائب في تاريخهم بداية وواقع ونهاية وحالًا، هذه كلها تستدعي الوقوف ضد هذه التيارات، وضد هذه الفتن وهذه المخالفات.

السلف الصالح -رضوان الله عليهم- ما قصروا في ذلك، تجد في كل مسألة مؤلفات خاصة، ألفها العلماء في التحذير من مخالفاتها، والتركيز على الآثار، وعلى السنة، وعلى الآيات والأحاديث، تجد في الرؤية، يعني رؤية الله -تبارك وتعالى- يوم القيامة، تجد في النزول، تجد في الصفات عمومًا، تجد في النبوات، تجد في كثير من أبواب المعتقد في الألوهية ومظاهر الشرك والبدع، الذين ألفوا في التحذير من البدع عدد هائل كثير، وكثير منهم من أئمة المالكية ابن وضاح، والشاطبي، وغيرهم من الأئمة الذين ألفوا في هذا الباب ابن الحاج، الطرطوشي، وغيرهم، ومالك نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد جمعت مواقفه العقائدية في كتاب مستقل، فيه من الكلام النافع ما نحتاج إليه في كل لحظة، كذلك غيرهم من أئمة الشافعية والحنابلة، فهم في هذا الباب -ولله الحمد- عدد كثير.

فالسلف على اختلاف عصورهم، وقد بينت ذلك في كتابي (المصادر العلمية في الدفاع عن العقيدة السلفية)، جمعت فيه كل الكتب التي دافعت عن العقيدة على حسب ما وقفت عليه من مطبوع ومخطوط، وموجود في المصادر حسب علم القصير والقليل.

فالشاهد أن هذا الباب مهم، ولا يُغفل، ولا عذر لأحد في التأخر عنه والتخلف عنه، ولا سيما إذا كثرت البدع وانتشرت، وتبناها طوائف وفرق وجماعات الآن، معظم الجماعات الآن تتبنى البدع وتدافع عنها بكتبها وبأشرطتها وبقنواتها الآن مع الأسف، وكثير من الحكام أيضًا يتبنون البدع، ويدافعون عنها، وينصرونها مع الأسف، فلا بد من العلماء الراسخين الصادقين من تبني الدفاع

عن السنة، فالعلماء -رحمهم الله- ولا سيما الأئمة الأربعة كانت لهم مواقف مشرفة في الدفاع عن هذا المعتقد، وفي هذا الباب بالخصوص ألف أبو إسماعيل الهروي كتابه (ذم الكلام وأهله) كتاب عظيم نفيس، كان مخطوطًا ثم طبع طبعات جيدة، وكذلك (أصول السنة) للالكائي، و(الإبانة) لابن بطة، و(الشريعة) للآجوري، و(السنة) لعبد الله بن الإمام محمد، وكتب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ سواء في الصحيح وفي غيره، وكتب الدارمي، وغيرها من الكتب النافعة التي ظهرت في هذا الباب كثيرة جدًّا.

سأقتصر على بعض النقول القليلة، وأترك الأبناء مع كتابي الذي ذكرت (مواقف السلف العقدية والمنهجية والتربوية)، فهو كتاب نافع أرجو أن ينفع الله به، وأن يكون لي شفاعة عنده يوم القيامة وحجة، هذا النقل عندي هنا في (المفسرون) كان قديمًا قبل طباعة كتاب الهروي، وكان عندي مخطوط في ذلك الوقت، لكنني آثرت أن أنقل من المطبوع الذي هو (صون المنطق) للسيوطي، رحم الله الجميع.

أقوال أئمة السلف في الحث على التمسك بالآثار وعلى طريقة السلف، والتحذير من كل بدعة وضلالة:

الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ كما في (صون المنطق): قيل له: ما تقول في ما أحدث الناس من كلام في الأعراض وفي الأجسام؟ فقال: مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة، هذا في (صون المنطق).

والآن في (ذم الكلام) هذا كلام السلف: عليك بالآثار وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة، فعلم الكلام من هذا، يعني السؤال عن علم الكلام،

هذه كلمة الأعراض والأجسام، هذه لغات الأشاعرة، ولغات المعتزلة، ولغات كل من ألّف في هذا المعتقد الباطل، "ما تقول فيما أحدث الناس من كلام في الأعراض" هذه كلها لغات، معنى هذه كلمة الأعراض، والآن انتهت بوجود الذرة، وهذه أصبحت خرافة لا قيمة لها، أصبحت هذه اللغة أصبح العلم يكذبها، فقال مقالة الفلاسفة، يعني بمعنى أن هذا علم الكلام أصلهم الفلاسفة وكذلك؛ لأن -كما سبق- المأمون لما ترجم هذه الكتب التي كانت بلغات مختلفة، ولعلها بلغة النصرانية، يعني الذي كتبها المنحرفون من النصارى، ومن اليهود، ومن غيرهم، فترجمت إلى العربية، فهي أصل علم الكلام، ولهذا -كما سبق- هذه الترجمة لعبت دورًا في إفساد عقائد المسلمين التي فعلها المأمون عليه من الله ما يستحق، يعني ترجمت، فلهذا قال رحمه الله الإمام أبو حنيفة: مقالة الفلاسفة، بمعنى أن هذا العلم مقالة الفلاسفة، فالفلاسفة لم يأخذوا عن الله، وعن رسوله، ولا عن الوحي، وإنما هي أهواء وضلالات ووساوس شيطانية اجتمعت تسمى فلسفة، ولا يسمى فلاسفة، وإلا كل علم لا علاقة له بالوحي فلا خير فيه، كل علم لم يأتِ به الوحي فلا خير فيه.

فالمهم أبو حنيفة رحمه الله بيّن أن علم الكلام أصله من مقالات الفلاسفة، وحث على التمسك بالآثار وعلى طريقة السلف، وحذر من كل بدعة وضلالة.

الإمام مالك رحمه الله:

نقل الإمام ابن عبد البر في كتابه الجيد القيم العظيم (جامع بيان العلم وفضله) بسنده إلى الإمام مالك، قال: كان مالك بن أنس يقول كلام في الدين أكرهه، وكان أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم، والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحتوي عمل، فأما الكلام في الدين وفي الله

ﷻ فالسكوت أحب إلي ؛ لأن رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا ما تحتوي عمل، يعني لا شك أن مالك رحمه الله من كبار فقهاء وقته، وأنه أدرك التابعين، وأنه من رواة الحديث، وكتابه (الموطأ) شاهد عليه، وكان في وسط العلم وفي مدينة الرسول ﷺ التي اعتصمت بالسنة قبله وبعده، وطهرها الله -تبارك وتعالى- من فتن الرفض في ذلك الوقت، ومن فتن الجهم، ولهذا الإمام مالك رحمه الله قال هذه الكلمة في نحو الكلام في رأي الجهم والقدر، أي: الجهمية: الانحراف في باب الأسماء والصفات؛ لأن الجهم -كما سبق- أخذ عن الجعد، فهو أصبح المصدر للجهمية، وللمعتزلة، وللأشاعرة.

قال أبو عمر -أي: ابن عبد البر- صاحب (الجامع): قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده، يعني العلماء منهم رضي الله عنهم، وأخبر أن الكلام في الدين نحو القول فيه صفات الله وأسمائه، وضرب مثلًا فقال: نحو رأي الجهم، والقدر، قالوا: الذي قاله مالك عليه جماعة الفقهاء، هذا كلام ابن عبد البر، والعلماء قديمًا وحديثًا من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع كالمعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة على ما قال مالك رحمه الله إلا أن اضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، وخشي ضلال عامة، ونحو هذا. انتهى، يعني هذا كلام الإمام ابن عبد البر يعلق فيه على قولة الإمام مالك رحمه الله.

فالشاهد أن رأي جهم رأي حذر منه السلف كما سمعتم، ورأي معبد حذر منه السلف كما سمعتم، وابن عبد البر رحمه الله ينقل الإجماع على ذلك، قال: وعلى هذا جمعت الفقهاء العلماء قديمًا وحديثًا من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع، ثم ذكر المعتزلة، وسائر الفرق.

المهم هذا كله يؤكد ما ذكرت، وأن العلماء تصدوا لهذه الفتنة تصديًا واضحًا، وجاء في المصدر نفسه أي: (جامع بيان العلم)، وقال مالك: أرأيت إن جاء من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟ إن المتكلم دائمًا يتنقل ويشك، ولهذا تجد عند الرازي، وعند ابن عبد الجبار، وعند رؤساء المعتزلة، وتجد عند الجويني، وتجد عندهم أقوال متضاربة متناقضة مضطربة، يعني كلما مر له قول كلما مر له رأي، في الآخر يقول:

نهاية إقدام العقول عقالُ ❖ وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ❖ وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ❖ سوى أن جمعنا فيه قيل وقالُ

ما كان عندهم شيء، يعني كلهم كانوا يتراجعون ويتقلبون، ويتنقلون من هذا الرأي إلى هذا الرأي، والعياذ بالله.

وهكذا لو تتبعنا أقوال الإمام ابن عبد البر في نقلها للإمام مالك نجدها كثيرة، وقد نقلت بعضها هنا في هذا الكتاب، وأما في كتاب الإمام مالك فهي مفصلة.

الإمام الشافعي رحمه الله:

وأما الشافعي يعني نرجع إلى الشافعي على سبيل الاختصار؛ لأن ظهرت عنه قول كل الأقوال ونعلق عليها يطول بنا المقال، فنذكر نماذج وأمثلة فقط، وهم يرجعون إلى المصادر بأنفسهم، ويستفيدون منها.

وذكر الهروي بسنده إلى أبي ثور قال: سمعت الشافعي يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام،

يعني هذا كلام صريح وواضح، ولا غموض فيه، وهذا حكم الإمام الشافعي، وهذا الإمام الشافعي الإمام العالم البحر، تلميذ الإمام مالك، وهو الذي برز في كثير من العلوم في اللغة، وفي الشعر، وفي الحِكَم، وفي الفقه، وفي القديم، وفي الجديد، وهو الإمام الذي كان يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورضي عنه.

قال: وأخرج من طريق آخر عن الشافعي، قال: مذهبي في أهل الكلام تقنيع رءوسهم بالسياط، وتشريدهم من البلاد.

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دل نصه على أن ما يعلل به تحريم النظر في علم الكلام كونه أسلوبًا مخالفًا لأسلوب الكتاب والسنة، أو كونه سببًا لترك الكتاب والسنة ونسيانهم، قلت -أي: المؤلف- وهذا مما يدل على أن الشافعي كان من المحدثين، فقد وقع ما ذكره هذا الإمام العظيم، فترك الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وصارت عقيدتهم عقيدة أهل اليونان، لا يستعمل في كتبهم إلا القضية الحملية والشرطية -يعني: هذه مصطلحات منطقية- والدور والتسلسل، ولو لم يكن كذلك لكان كذا، والجوهر، والعرض. قال ابن عاشر في هذا الصدد في منظومته في العقيدة التي ذكر في مطلعها أن هذا مما يجب على المكلف:

والتال في الست القضايا باطل ❖ قطعًا مقدم إذًا مماثل

وهكذا في المواقف العضدية وغيرها من كتب الأشعرية من قرأها لم يتذوق حلاوة الإيمان، ولا يذكر القرآن والسنة في هذه الكتب إلا لرده وتأويله وتحريفه، أعاذنا الله مما، وقع فيه هؤلاء المبتدعة الذين صدوا أنفسهم عن الرجوع إلى

الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ اللذان فيهما النور والهداية، وموافقة الخلقة الإلهية التي خلق الله عليها العباد.

إذًا هذا هو تعليق على مقولة الإمام الشافعي رحمه الله، وهو تعليق واضح في أن عقيدة السلف هي الحق، وأن ما سواها يجب تجنبه.

الإمام أحمد رحمه الله:

وجاء عن الإمام أحمد رحمه الله كما في كتاب عبد الحليم الأجندي في كتاب (الرد على الجهمية) يقول الإمام أحمد لأحد طلابه عندما سأله رأيه في هؤلاء أصحاب الكلام: لا تجالسهم، ولا تكلم أحدًا منهم، وقال له: إني ربما ردت عليهم، قال: اتق الله، ولا ينبغي أن تنصب نفسك وتشهر بالكلام، لو كان في هذا خير لتقدمنا فيه الصحابة، هذه كلها بدعة، قال الطالب: إني لست أطلبهم، ولا أدق أبوابهم، ولكني سمعتهم يتكلمون بالكلام، ولا أحد يرد عليهم، ولا أصبر حتى يرد عليهم، قال أحمد: إن جاءك مسترشد فأرشده، وكررها مرارًا، إذًا هذا هو كلام الإمام أحمد رحمه الله في كتابه (الرد على الجهمية) الذي نقل منه هذا المؤلف -الذي هو عبد الحليم الجندي- المسمى كتابه بـ(أحمد بن حنبل).

إذًا كلمة الإمام أحمد رحمه الله في المتكلمين التي ذكرها في كتابه (الرد على الجهمية) تدل بأنه يمنع من الرد على المتكلمين نزاهة يعني تنزهًا، يعني يخاف أن يشتغل بالرد عليهم فيلتصق في ذهنه ما يمكن أن يلتصق، أي ربما تدخل عليه الشبه بسبب الرد، وهذه كان ورع الإمام أحمد رحمه الله يعني تورعه وورعه كان يرى ألا يشتغل بالرد على المتكلمين فضلًا على تبني مذهبهم ونشره والدفاع عنه، فقد

نقلت أنا في كتاب (العقيدة السلفية) في موقف الإمام أحمد رحمه الله صفحات كثيرة في هذا الموضوع في تحذيره من علم الكلام، فمن شاء رجع إليه، فقراءة مواقفه العقائدية فيه تربية وفيها نفع كثير، فنرجو الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

هنا ملاحظة أحب أن أذكرها، وهو أن الذي اشتهر الآن في العالم الإسلامي هو متابعة الأئمة في الفروع، يقول: أنا مالكي، أنا شافعي، أنا حنبلي، أنا حنفي، ويقصد بذلك أنه على مذهب الإمام مالك في الفروع، والحقيقة ينبغي أن يتبع الأئمة قبل الفروع أي: في الأصول، يعني في العقائد، فنكون على مذهب مالك في العقيدة، وعلى مذهب أحمد في العقيدة، وعلى مذهب الشافعي في العقيدة، وعلى مذهب بقية أئمة العلم الأوزاعي، والثوري، والزهري، وغيرهم في العقيدة، وعلى مذهب الصحابة، يعني نكون على عقيدتهم، ولهذا ذكر شيخ الإسلام رحمه الله (مجموع الفتاوى) ذكر أبو الحسن الكرجي رحمه الله له كتاب سماه (الأصول في مذاهب الأئمة الفحول)، ويقصد بذلك العقيدة، وذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله نقلًا عن أبي الحسن، نقل مجموعة من عقائد الأئمة، يعني: الشافعي ومالك -رحمهما الله- وأحمد.

فالمهم ينبغي أن نكون على طريقة هؤلاء الأئمة في المعتقد، والحمد لله أنا في كتابي (مواقف السلف العقدية) ذكرت عقائد الأئمة، وغيرهم يعني المحدثين والأئمة، حوالي ألف ومائتين إمام كلهم في المعتقد، فالحمد لله على هذا الخير وعلى هذا الفضل، وأن الإنسان ينبغي له أن يقتدي بسلفه، بالصحابة وبالتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين.

من الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذهبهم (التأويل - رد خبر الآحاد)

الأصل الأول: التأويل:

الخلف لهم أصول بنوا عليها منهاجهم، وانحرافهم العقدي، وهذه الأصول لا شك أنها مجرد شُبه، وانحرافات، فقد رصدت في كتاب المفسرون ستة أصول الأول: تعارض العقل والنقل، ثم المجاز، ثم من ذكر أن آيات الصفات أو أحاديث الصفات من المتشابه أي: المحكم والمتشابه، ثم التفويض ليس منهاج السلف أي: التفويض في الكيف، ثم أخبار الآحاد ثم التأويل.

هذه هي الأصول التي سنأخذها أصلًا أصلًا في شيء من الاختصار.

فلعلي أبدأ بالتأويل الذي هو عنوان الكتاب (المفسرون بين التأويل والإثبات) التأويل هذه الكلمة يُراد بها عند السلف معنيان: المعنى الأول: ما يؤول إليه الأمر. والمعنى الثاني: هو التفسير هل ينظرون إلا تأويله يوم يأت تأويله أي: بمعنى يوم يأت وقته أي: ما يؤول إليه الأمر، فالتأويل له هذان المعنيان. أما المعنى الثالث الذي هو اصطلح عليه المتأخرون، وهو صرف اللفظ عن ظاهره لمعنى غير الظاهر مرجوح لقرينة مانعة من المعنى الأصلي، كما هو معرف عنده.

قال الأزهري رحمه الله وهو صاحب (التهذيب): وقال أبو عبيدة التأويل المرجعي والمصيري مأخوذ من آل يؤول إلى كذا أي: ما يصير إليه، وقال: ليس التأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصح إلا ببيان، وقال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في (أضواء البيان): اعلم أن التأويل يُطلق على ثلاثة إطلاقات: الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، وهذا معناه في القرآن.

الثاني: التفسير هو البيان ومنه قوله ﷺ في ابن عباس: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))، وقول ابن جرير وغيره من العلماء القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا أي: تفسيره وبيانه، وقول عائشة الثابت في الصحيح: ((كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي))، يتأول القرآن تاني يمتثله ويعمل به.

الثالث: معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين، وهو صرف النظر عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل المرجوح، وذكر الإمام ابن القيم أن هذا الأخير هو قول المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين. إذًا التأويل الصحيح هو ما ذكرنا من أن الذي يؤول إليه الأمر، والثاني التفسير، والثالث الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره.

ويكفي أن ابن القيم رحمه الله ذكر أن هذا الأخير هو قول المعتزلة والجهمية، وهو قول الأشاعرة، وهو الذي إذا أطلق على لفظ التأويل ينصرف إليه.

إذًا هذا هو تعريف التأويل، والقولان الأولان فقلَّ من يعرفهما، والذي شاع وانتشر هو القول الأخير، وهو صرف اللفظ عن ظاهره الحقيقة باب التأويل هو البوابة الذي دخل منه كل مبطل في عقيدته، واتسع في كما يقولون الخرق على الراقع، وأول صفات الجهمية، وأول آيات المعاد للفلاسفة، وأول الأوامر والنواهي، والباطنية، وأصبحت عندهم لا معنى إلى الرمز إلى شيء يفسرونه هم؛ فالصيام هو كتمان أسرارهم، والحج هو الحج إلى مشايخهم، وكتب ابن العربي، وكتب التفسير الذي مُلئت بهذه التفسيرات الباطلة كثيرة جدًّا؛ فلا شك أنه معول من معاول الهدم هُدمت به النصوص، وهدم به الإسلام كله حسب منظوره إلى هذا المعنى.

الإمام ابن القيم رحمه الله ذكره في (الصواعق) واعتبره أحال طواغيت، وبالغ رحمه الله في إيضاحه، وذكر التأويل الباطل والتأويل الصحيح، وذكر أمثلة للتأويل الباطل، وأخذت منه تلك الأمثلة وسجلتها في كتابي (المفسرون)، أما التأويل الصحيح فقد ذكر أنه هو الذي يؤيده الكتاب والسنة، قال في التأويل العاشر رحمه الله تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه المعنى من سياق ولا قرينة تقتضي، فإن هذا لا يقصد المبين الهادي بكلامه؛ إذ لو قصده لحفّ بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع في اللبس، فإن الله تعالى أنزل كلامه بيانًا وهدًى، فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل آحاد لم يكن بيانًا ولا هدى، ما إن ذكر هذه التأويلات الباطلة وهي عشرة، فنحيل القراء عليها.

ثم قال رحمه الله كما سبق: والتأويل ما دلت عليه آيات الكتاب وسنة رسول الله ﷺ، ويقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل في (الصفات الإلهية) بعد أن ذكر معنيين للتأويلين السلف غير أن الخلفية أو علماء الكلام أَبَوا إلا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، ويقترفوا إفساد المعاني، ويقترفوا إفساد المعقول والمنقول، فتفسد القلوب والعقول؛ لهذا ابتدعوا للتأويل معنًى آخر لا صلة له بلغة القرآن، وهو صرف اللفظ عن معناه إلى معنًى آخر بدليل، وقد يكون الدليل وهمًا وهوًى.

إذًا الشيخ الوكيل رحمه الله كما سمعتم يشدّد النكال على المؤولة الذين جاءوا بهذا التعريف للتأويل، وبهذا المنهاج الذي بينه وبين أنه إفساد للعقول، وتحريف في النصوص، وما أسوأ هذا إذا كان إفساد هذه العقول وتحريف للنصوص فلا خلاف.

وأيًّا ما كان فعلماء الحق والسنة تتابعوا على ذمِّ هذا النوع من التأويل، والذي تبطل به النصوص، ولهذا قال: وعلى الآخذين بهذا التحريف لكلمة التأويل

واجبة، ولهما إقامة الدليل على أن اللفظ يحتمل المعنى الذي صرفوه إليه، لا شك الدليل لا بدَّ أن يحاسب وأن يحاكم لا بد من السؤال إقامة الدليل على أن اللفظ يحتمل المعنى الذي صرفوه إليه. يعني: أنت لم تقل في اليد في يد الله بأنها قدرته، وفي محبة الله بأنها إرادته، لا بد أن تقيم الدليل على هذا التأويل، وإلا تكون كاذبًا. قال والآخر: إقامة الدليل على وجوب صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى المعنى الآخر الذي اقترفوه له يعني كذلك ما الدليل على هذا التأويل أيضًا من جديد على أن ما يجب أن نصرف هذا اللفظ عن ظاهره لهذا المعنى الذي صرفته إليه؛ فلا الأول، ولا الأخير، يعني: يصعب إقامة الدليل على أن اللفظ يحتمل هذا المعنى، وعلى إقامة الدليل على وجوب صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى المعنى الآخر.

إلى هذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أفعند المؤولة هذه الإحاطة الشاملة بلغة العرب بمعنى هذا من المستبعد ومن المستحيل، فلهذا تجد كل تأويلات الجهمية باطلة؛ لأنها لا يتوفر فيها هذان الشرطان إقامة الدليل على أن اللفظ يحتمل المعنى الذي صرفوه إليه يعني: هل هذا اللفظ يحتمل حقيقة هذا المعنى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، يحتمل ما نزه اسمه والدليل على ذلك، يحتاج إلى دليل، وعلى إقامة الدليل على وجوب صرف اللفظ على معناه والحقيقي إلى المعنى الآخر الذي اقترفوه إليه، يعني: لا بد من الدليل على وجوب صرف اللفظ؛ لأن هذا دين لا بد أن تقيم الدليل عليه، ولا دليل على المعنى الذي يحتمله اللفظ ولا على وجوب صرف اللفظ الذي يريد أن يصرفه عن المعنى الأصلي لهذا اللفظ.

فأنت ترى أن كلام شيخ الوكيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بابه وعلى حقيقته وما ذكره من الكلام كلام ذهبي طيب، يعني: لا بد من إقامة الدليل على أن هذا اللفظ يحتمل هذا

المعنى، ثم إقامة الدليل على وجوب صرف اللفظ إلى عن ظاهره الذي يدل عليه المعنى الحقيقي، يعني: كل لفظ فيه تأويل لا بد أن نسأل هذا السؤال، فلا بد من إعداد الجواب، فمن استطاع أن يقيم الأدلة على أن هذا اللفظ الذي يريد أن يصرفه عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر يعني: عنده دليل على هذا، ثم ما هو الدليل على وجوب صرف هذا اللفظ يعني: ما هو الدليل الذي يستدل به على أنه يجب أن نصرف هذا اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، فهذا اللفظ.

أولًا: يتحمل هذا المعنى الذي يريد أن يصرفه إليه.

ثانيًا: هل من ما هو الدليل على وجوب صرف هذا اللفظ إلى المعنى الذي يريد، فلا الأول ولا الأخير، ففي الحقيقة الذي يأخذ هذه الميزان في كل آيات الصفات، وفي آيات المعاد، وفي كل ما أوله الصوفية، وأوله الرافضة، وأوله الجهمية يعني: إذا أخذ بهذين الدليلين فلا بد أنه يصل إلى الحقيقة بعد إذا عمى الله بصره وبصيرته، أعيد هذان الدليلان لأهميتهما؛ لأنها في الحقيقة تثلج الصدر، وتدل على فهم السلف، وأنهم أصحاب فهم وأصحاب علم.

أعيدها وإن كان فيها تكرار وكررت، ولهما إقامة الدليل على أن اللفظ يحتمل المعنى الذي صرفوه إليه اللفظ يحتمل المعنى الذي صرفوه إليه، الذي هو في الوجه الذات، وفي اليد القدرة، وفي المحبة إرادة الثواب، وفي الغضب إرادة الانتقام، وأنت على هذه المحنة، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أي: جاء أمره، إقامة الدليل على وجوب صرف اللفظ على معناه الحقيقي إلى المعنى الآخر الذي اقترفوه إليه أي: صرفوه إليه، فهذان يعني: الدليلان دائمًا هما في شوكة كل مؤول لا يستطيع أن يثبت أصلًا عندما تقول: أقم لي الدليل على أن هذا المعنى الذي تريد أن تصرفه تصرف اللفظ إليه، بماذا يستدل بالهوى بالوساوس، بماذا

يستدل، ثم يقيم الدليل على وجوب صرف اللفظ يعني: أن يصرف هذا اللفظ يعني: معناه الحقيقي إلى المعنى الذي يريد أن يصرفه إليه، فاللفظ يحتمل المعنى الذي صرفه إليه، والآخر على وجوب صرف اللفظ على معناه الحقيقي إلى المعنى الآخر الذي اقترفه، يعني: في الحقيقة هذه الفائدة تُكتب بماء الذهب التي قالها الوكيل رحمه الله يعني: هذه يعني في الحقيقة قاعدة أساسية في قضية التأويل يعني قليلة التعبير، ولكنها كبيرة الفهم والمعنى.

قاعدة ابن تيمية: "إن كثيرًا من الناس يتوهَّم في بعض الصفات أو كلها أنها تُماثل صفات المخلوقين":

الإمام ابن تيمية رحمه الله له في (التدمرية) قواعد، ونذكر قاعدته فيما تكلم عليه في التأويل، فهي قاعدة مهمة القاعدة الرابعة: وهو أن كثيرًا من الناس يتوهَّم في بعض الصفات، أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها أنها تُماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير، يعني: الشيخ رحمه الله يُبيِّن في هذه القاعدة يعني: الآفات التي تلحق المؤول:

أحدها: كونهم سلم فهمه من النصوص بصفة المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل، هذا الأول في فهمه أنه مثل صفات الله بصفات المخلوقين، فيريد أن ينزِّه الله تعالى عن هذا التشبيه، فيريد أن يصرف اللفظ حتى ينزه الله -تبارك وتعالى- عن التشبيه والتمثيل.

الثاني: أنه جعل ذلك هو مفهومها، وعطله بقية النصوص، وعطله -هكذا في المطبوع- معطلة بقية النصوص، معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع الجناية على النصوص، وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله؛

حيث ظن أن الذي يفهم من كلامه ما هو التمثيل الباطل قد عطل ما أوضع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفة لله، والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى.

الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله ﷻ بغير علم فيكون معطلًا لما يستحقه الرب.

يعني هذا يكفي الإنسان جريمة أنه يتجرأ على الله -تبارك وتعالى- فينفي الصفات الذي أثبتها الله، هذا جرم وظلم أن الله تعالى أثبت شيئًا وأنت تنفيه، فهذا شيء فيه إشكال كبير فلهذا لو يعلم المئول ما في تأويله من مفاسد ما تجرأ على هذا.

الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات والصفات المعدومات، فيكون قد عطل به صفات الكمال التي يستحقها الرب، ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات فيجمع في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحدًا في أسماء الله وآياته.

المحذور الرابع أو الآفة الرابعة: يعني جمع مساوئ التأويل وكل ما سبق من محاذير.

فلا شك أنك لما تنفي أي صفة من الصفات فإنك تعطل الله -تبارك وتعالى- منه، وتمثل بالجمادات التي لا تتصف بهذه الصفات، فأنت لما تعطله من صفة اليد، ومن صفة الوجه، ومن صفة الغضب، ومن صفة الرضا، ومن صفة المحبة، ومن صفة المجيء، ومن صفة الرؤية، فماذا بقي؟ فما هو هذا الإله الذي تعتقده؟ أنت مثلته بالجمادات ومثلته بالمعدومات لا شك! فبدل أن أن تصف الله -تبارك وتعالى- وأن تكتمل في ذهنك أسماؤه وصفاته حذفت كل ذلك

وعطلته، يعني عطلت الصفات، ومثلت ربك -تبارك وتعالى- بالجمادات وبالمعدومات وعطلت النصوص عن مدلولها، وقلبت كل الحقائق.

فرحمة الله على الإمام ابن تيمية فيما ذكر.

المحاذير التي تلحق المؤول إذا أوّل أية صفة من الصفات، وأيّ اسم من الأسماء، وأيّ فعل من الأفعال:

قال الشيخ رحمه الله: مثال ذلك: أن النصوص كلها دلت على وصف الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات واستوائها على العرش، فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع، وأما استواؤه على العرش فطريق العلم به هو السمع، وليس في الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينه ولا مداخله، فيظن المتوهم أنه إذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

فيتخيلوا لو أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فلو غرقت السفينة لسقط المستوي عليها، ولو عثرت الدابة لخرّ المستوي عليها، فقياس هذا: أنه لو هدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى.

ثم إن الشيخ رحمه الله توسع في هذا الموضوع توسعًا موفقًا مناسبًا فنحيل القراء على بقيته.

المهم: أن المؤول دائمًا يتوهم التشبيه والتمثيل، فكلما جاءت صفة من صفات الله توهم فيها أنها مثل صفة المخلوق، فيقيس الشاهد على الغائب فيقع في آفات التعطيل.

من هذا -كما سبق- أن الله -تبارك وتعالى- له أسماؤه وصفاته وأفعاله تليق به، والمخلوق له صفاته وأسماؤه وأفعاله تليق به، فلا قياس، ولا نقيس الله -تبارك وتعالى- بخلقه، ولا نقيس خلقه عليه -تبارك وتعالى- فنثبت له ما أثبته لنفسه، ولا نكيف ولا نمثل ولا نعطل ولا نشبه. فكلام الشيخ رحمه الله في هذا السياق كلام واضح، وهو طويل.

فائدة الخطاب هي الإفهام والبيان:

نحن نعلم أن فائدة الخطاب هي الإفهام والبيان، وذلك يتوقف على أمرين:

الأول: حسن بيان المتكلم عما في نفسه من معانٍ بالألفاظ الدالة على ذلك، يعني الذي لا يبين البيان الواضح الفصيح يكون في بيانه خلل؛ إما نقص في الكلام، وإما عدم فصاحة في النطق، أو أي خلل يمكن أن يحلق المتكلم في بيانه لما يريد.

الثاني: تمكن السامع من الفهم وحسن تقبله للخطاب، يعني: السامع الذي يسمع الخطاب يتمكن من الفهم الكامل للخطاب الذي يلقى إليه.

فإذا اكتمل البيان في المتكلم، واكتمل الفهم في السامع، والتقى حسن الفهم وكمال الفهم لحسن البيان وكمال الخطاب، فلا شك أنه إذا كان ذلك كذلك فما بقي إلا القبول أو الرد، كفار قريش لما جاءهم الرسول ﷺ كان عندهم حسن البيان وحسن الخطاب، وكفار قريش سمعوا وتمكنوا من سماعه لكن لم يقبله خطابه وردوا عليه، فقالوا: تبا لك ألهذا جمعتنا؟ ففهموا خطابه، وهو ﷺ بلغه، الخطاب الكامل.

وهكذا لما جاء موسى إلى فرعون فخاطبه بلسان فصيح واضح، لكن فرعون رد عليه قال: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩] لم يقبل فرعون خطاب موسى، وهكذا كل الأمم الذين خاطبهم أنبياؤهم فهموا خطابهم لكنهم ردوا عليهم، وهكذا كل داعية إلى الله ينبغي أن يكون فيه حسن البيان وحسن الخطاب، وكمال الخطاب وكمال البيان، وكمال الحكمة حتى لا يرجع اللوم عليه، فإذا اجتمع حسن البيان وحسن الفهم من السامع فما بقي إلا القبول أو الرد.

ولهذا قال هذا المؤلف: فإذا افتقد أحد هذين الأمرين لم يحصل المطلوب ولا يكون للخطاب فائدة، وكان الخطاب نوعًا من العبث، والقول بالتأويل يتضمن الأمرين جميعًا، وذلك لأن القائلين بالتأويل على اختلاف مذاهبهم متفقون على أن ألفاظ الآية المؤولة لا تدل على حقيقتها المرادة، وإنما هي رمز وتخييل للسامع بالمراد كما قال البعض، أو هي مجاز عن المراد كما قال البعض الآخر، وحقيقة المراد ليس لنا سبيل إليه إلا بالتأويل.

وحقيقة الأمر أنه ليس في ذلك شيء من الصواب؛ لأن أي متكلم إذا لمست ما في خطابه ألفاظًا دالة على مراده كان ذلك دليلًا على عيِّه في خطابه، وعلى تعميته وإلغازه على السامع وكلا الأمرين محال على الله ورسوله، ولو أراد الله من خطابه خلاف ظاهره المألوف لدى المخاطب؛ لكان قد كلفه في ذلك أن يفهم مراده بلفظ لا يدل عليه لا نصًّا ولا ظاهرًا ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فإذا كان الله قد خاطب عباده بأنه في السماء وأراد منهم أن يفهموا أنه لا داخلها ولا خارجها، أو أنه في كل مكان، أو أنه هو عين الموجودات أو هو حال فيها؛ لكان قد كلفهم في ذلك ما لا قبل لهم بالوقوف عليه.

وإذا كان القرآن في جميع آيات الصفات على الإثبات قولًا واحدًا، وكان الحق في ذلك كما يقوله النفاة؛ لكان القرآن في ذلك قد دل على ما ظاهره الكفر والضلال، ويكون الله قد أنزل كتبه وأرسل رسله؛ لتضليل الناس وجرهم إلى التشبيه والتمثيل؛ فيكون ترك العباد في ذلك بلا كتاب ولا رسول أولى وأهدى لهم.

إن القول بالتأويل وصرف اللفظ عن ظاهره بدعوى أنه ليس مرادًا يتضمن حالات كثيرة ولوازم باطلة.

المهم سبق ما قاله الشيخ ابن تيمية، والقصد من هذا: أن التأويل هو اتهام لله واتهام لرسول الله ﷺ بأن خطابهم غير واضح، وأن الدلالة غير واضحة؛ فلهذا ينبغي أن يراجع المؤولة فهمهم وعلمهم وحساباتهم في هذا الموضوع؛ فإن هذا أمر خطير كما سبق في كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله. وجرأة على الله في كلام الشيخ الوكيل رحمه الله وفي كلام الإمام ابن القيم.

الأصل الثاني: رد خبر الآحاد:

هذا الأصل في الحقيقة أصلٌ لا يقل أهمية عما سبق في الموضوع، لا شك أن السنة تنقسم إلى قسمين؛ متواتر وآحاد، والمعطلة المؤولة بنسبة لخبر الآحاد يردونه بسنده ومتنه، وأما المتواتر: فيردونه في الدلالة والظن على حد تعبيرهم، فهم يردون السنة ويردون القرآن كما سبق، فإنهم يؤولون آيات الصفات، ويصرفونها عن ظاهرها وعن مدلولها الحقيقي التي تدل عليه.

والحقيقة أن هذه مكيدة ومؤامرة على السنة، دبرها المعتزلة والأشاعرة ومن صار في ركبهم؛ لأن السنة -ولله الحمد- هي محفوظة بحفظ الله وبحفظ القرآن، فحفظ

السنة مضمون بحفظ كتاب الله، والذي يدرس تاريخ السنة يعلم ذلك بالتفصيل، يعني من عصر التدوين ومن عصر عمر بن عبد العزيز إلى يومنا هذا والعلماء يحرسون السنة حراسة ما بعدها حراسة؛ في أسانيدها وفي متونها، وفي علل ما تطرق لها من علل، وفي إبعاد الموضوع منها، وبيان الضعيف منها، وبيان المنقطع، وبيان المرسل، وبيان المدرج، وبيان الموقوف، وبيان المعلق، ما تركوا بابًا من أبواب العلل إلا وصنفوا فيه ودرسوه دراسة مفصلة وتجده في مؤلفاتهم الكثيرة.

فلهذا رد الخبر في الحقيقة هذا يفعله من لا علم له، ولهذا إن الذي رده لا خبرة له بالسنة ولا بالحديث، فلهذا المحدثون رحمهم الله لا يفرقون بين آحاد ولا متواتر مع أن التفرقة بين الآحاد والمتواتر هي تفرقة اصطلاحية، وكل حديث متواتر مهما بلغ عدد رواته فإنه يرجع في الأخير إلى آحاد، فمثلًا: إذا قلت إن السيوطي حكى التواتر، والحافظ ابن حجر حكى التواتر، أو العراقي حكى التواتر، أو المزي حكى التواتر، أو الذهبي حكى التواتر؛ فإنك ترجع التواتر إلى واحدٍ إلى الحافظ وإلى السيوطي وإلى السخاوي وإلى العراقي وإلى غيرهم، بمعنى أن كل متواتر يرجع إلى الآحاد، ثم التواتر هو نسبي، ثم خلاف العلماء في عدد التواتر، كل هذه إيرادات، وكلها ينبغي أن يحسب لها الحساب.

وعندما نلجأ إلى الطرق العملية نجد أن المحدثين -رحمهم الله- لم يفرقوا في تأليفهم بين الآحاد ولا بين المتواتر؛ لهذا تجد لهم كتبًا في العقيدة، البخاري جمع فأوعى في العقيدة؛ كتاب الإيمان كتاب التوحيد كتاب الاعتصام كتاب بدأ الخلق كتاب الأنبياء كتاب القضاء كتاب الفتن، كتب كثيرة كلها تضم المعتقد، فكتاب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من أجمع الكتب في باب المعتقد، فهل كل هذه الكتب التي ألفها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ نجدها متواترة في جميع أبوابها؟ لا.. لا يوجد ذلك.

وهكذا أبو داود في كتابه السنة، وهكذا الإمام مسلم من أكبر كتبه: كتاب الإيمان والقدر، وهكذا النسائي في كتابه (السنن الكبرى) الصفات، وابن ماجه أيضًا، والإمام أحمد في (المسند) جمع كل أبواب المعتقد بالترتيب، والطبراني في معاجمه روى أحاديث المعتقد، والإمام مالك في موطئه، والإمام اللالكائي والإمام البغوي، وجميع أئمة الحديث الأولون والآخرون كلهم على هذا الطريق.

أي جمعت أحاديث المعتقد دون تمييز بين متواترها ولا بين آحادها، فلهذا الذي يرجع إلى مؤلفات المحدثين وإلى مصنفاتهم يجد أن هذا ماثلًا واضحًا فيها، فلا يحتاج إلى أن يلتفت إلى هذا الشغب من هؤلاء الباعدين عن عن السنة، يعني المعتزلة أقل الناس حظًّا في دراسات السنة، والأشاعرة -أكثرهم- أقل الناس حظًّا في دراسات السنة، ولا سيما مثل الجويني، ومثل غيرهم ممن يتعرض إلى دراسات السنة مثل الغزالي ومثل الرازي. ولهذا الغزالي كان يقول: "بضاعتي في الحديث مزجاة" يعني قليلة وضعيفة.

فالشاهد أننا إذا أردنا أن ندرس دارسة ميدانية على كتب السنة وعلى مصنفات السنة، وعلى الأجزاء التي ألفت في العقائد؛ في الصفات وفي الوجود وفي الرؤية وفي القدر وفي البعث وفي النشور نجد كلها روايات آحاد أو معظمها روايات آحاد، والمتواتر قليل حسب الموازن؛ لأن ليس هناك موازن معينة في في تعريف المتواتر، وإنما يُقال: رواية جمع عن جمع، يعني يكونون أربعة خمسة ستة...

وأكثر أحاديث الآحاد متعددة الطرق، يعني من الندرة أن تجد حديثًا ليست له طرق متعددة إلا قليلًا الذي يسمونه غريبًا، فالشاهد أن أكثر الأحاديث لها طرق متعددة، ولهذا مثلًا لما تقرأ في الكتاب تجد شواهد للحديث، مثلًا لما تقرأ في (فتح

الباري) أو تقرأ مثلًا حديث الحوض في شرح ابن عبد البر تجد له سبعين سبعين شاهدًا، وحديث ((ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)) فتجد الأحاديث متعددة الطرق متعددة الشواهد.

ففي الحقيقة هذا القول يقوله من لا خبرة له بالسنة، ولا دراية له بها، فالذي يرجع إلى المحدثين يجد هذا ماثلًا في مؤلفاتهم وهم أهل الاختصاص.

فنذكر بعض الأدلة التي ذكرها ابن القيم، وظني أنه جعلها أيضًا في (صواعقه) وغيره؛ لأن هذا الباب كتبت فيه كتب كثيرة في الرد على المخالف في خبر الآحاد، ابن القيم ذكره، وابن حازم في (إحكام الأحكام) والشيخ ناصر الدين الألباني رسالة، وآخر كتاب وأحسن كتاب من مما رأيته هو كتاب القاضي مروان المغربي فهو كتاب جمع صاحبه كل ما سبق، وهو كتاب نفيس أحق بالعناية وبالاقتناء وبالترحيب وبالدراسة، كتاب الدكتور الشيخ القاضي مروان، وهو من أهل الدار البيضاء في المغرب، فالموضوع أعطي حقه من البحث.

فنذكر على سبيل المثال بعض الأدلة للطلبة وللأبناء، ونحيلهم على الرجوع إلى المصادر التي اعتنت بهذا الموضوع، والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته كان من عنايته هو الدفاع على هذا الموضوع؛ لأن أهل الفتنة -وهي رد السنة- ظهرت في عهده رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومما يبين أن خبر الواحد العدل يفيد العلم أدلة كثيرة:

الأول: أن المسلمين لما أخبرهم الواحد وهم بقباء في صلاة الصبح أن القبلة قد حولت إلى الكعبة قبلوا خبره وتركوا الحجة التي كانوا عليها، واستداروا إلى القبلة، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ بل شُكروا على ذلك، وكانوا على أمر

مقطوع به من القبلة الأولى، فلولا حصول العلم لهم بخبر الواحد لم يتركوا المقطوع به المعلوم لخبر لا يفيد العلم، والحديث الصحيح من الأدلة.

هؤلاء كانوا في صلاة وجاءهم المخبر بتحويل القبلة وهم في الصلاة تحولوا من الاتجاه إلى بيت المقدس إلى الاتجاه إلى بيت الله الحرام فقبلوا خبره، فأين التواتر في هذا الخبر؟ مع أنه -كما قال الإمام ابن القيم- كانوا على أمر مقطوع به، ومع ذلك قبلوا خبر هذا الواحد، والرسول ﷺ لم ينكر عليهم؛ بل قال الشيخ ابن القيم: شكرهم على ذلك، أي على الامتثال؛ لأن الشكر على الامتثال وعلى حبهم لمتابعة النبي ﷺ ولطاعة الله في أمره.

فاحتجاج الشافعي ﷺ قال: أخبرنا سفيان عن عبد مالك بن عمير عن أبي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ((نضر الله عبدًا سمع مقالتي، فحفظها، ووعاها، وأدَّاها؛ فرب حامل فقهٍ إلى غير فقيه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه)).

يعني: هذا الحديث احتج به الشافعي في هذا الوعد المبارك أن الرسول ﷺ في مبلغ السنة، ولم يذكر عددًا من الناس يقرأه، فقال: ((نَضَّرَ اللهُ امْرَأً)) يعني واحد و اثنين و ثلاثة، وأقل، وأكثر؛ فَكُلُّ من بلغ سنة رسول الله ﷺ فهو داخل في بركة هذا الوعد المبارك "النضارة" -الله تبارك وتعالى- يضيء وجهه، ويضيء قلبَه، ويضيء حياته ببركة سُنَّةِ رسول الله ﷺ وببلاغها.

فلا شك أن الحديث عن البلاغ، فالمبلغ قد يُبَلِّغُ حديثًا في الصفات، ويُبَلِّغُ حديثًا في الأسماء، ويُبَلِّغُ حديثًا في القدر ويُبَلِّغُ حديثًا في أخبار النار، وأخبار الجنة، ويُبَلِّغُ حديثًا في الحوض ويُبَلِّغُ حديثًا في الحدود، ويُبَلِّغُ حديثًا في البيع، وفي الشراء، ويُبَلِّغُ حديثًا في النكاح.

يعني الحديث عامة، وليس فيه خصوص لبلاغٍ معين؛ فالرسول ﷺ يعني أطلق البلاغ لواحدٍ ولأكثر من ذلك وإلى أن تقوم الساعة.

فمثال هذه النصوص كيف يتعامل معه المخالفون هل هي صحيحة؟ هل هي أخبار آحاد تفيد الظن؟ ترد فلا أدري. الحقيقة أن هذا أمر يجب جدًّا أن يكون في الأمة من أولها أمثالُ هؤلاء الذين يردون النصوص؛ لأنها أخبار آحاد، وهي بالوضوح بمكانٍ، وهي -يعني الأصل الثاني في التشريع فلا أدري.

المهم الشافعي احتج بهذا الحديث في الرد عليهم، وأن النبي ﷺ ذكر هذا للإيمان بالله واحدًا أو أكثر؛ فيفهم.

من الأدلة عن إسحاق، رواه مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الموطأ) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك، قال: كنت أسقي أبا عبيدة الجراح، وأبا طلحة الأنصاري، وأُبَيَّ بن كعب شرابًا من فضديخ، فجاءهم آسنًا، فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قُم يا أنس إلى هذه الجِرَار، فاكسرها فقمت إلى مهراسٍ لنا، فضربتها بأسفلِه حتى كسرتها".

إذًا هذا أبو طلحة، وأنس، وأُبَي بن كعب كلهم قبلوا خبرَ هذا الآسن في تحريم الخمر، مع أنهم كانوا يشربونها حلالًا طيبًا وشربوها في مكة، وشربوها في المدينةِ قبل تحريمها.

فهذا آتٍ واحد، ليس هو خبرٌ تواترٍ كما يقولون؛ فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأبو طلحة، ومن معهم في هذه الجلسة التي يشربون فيها الخمر، كلهم قبلوا خبر هذا الآتي.

وهذا إن دلَّ على شيء؛ فإنما يدل على فضيلة أصحاب رسول الله في سرعة امتثالهم بالتحريم، وللأمر، فهذا مثل الحجاب ومثل ما سبق في حديث القبلة؛ فتجدهم في السبْقِ لامتثال سنة رسول ﷺ

يقول الإمام ابن القيم: بعد ما ذكر الأدلة وأوصلها إلى عشرين دليل: إن الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- كانوا يقبلون خبر الواحد، ويقطعون بمضمونه؛ فقبله موسى من الذي جاءه من أقصى المدينة قائلًا له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] فجزمَ بخبرِهِ، وخرج هاربًا من المدينة، وقَبِلَ خبرَ بنت صاحب مدين، لما قالت: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] وقَبِلَ خبر أبيها في قوله: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ﴾ [القصص: ٢٧] وتزوجها بخبره.

الشاهد: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبِلَ خَبرَ الرجلِ الناصح له. وقال ابن القيم: وكذلك قَبِلَ خبر ابنة رجل مدين لما جاءت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]. فلم يقل لها: حتى يكون عدد التواتر، ثم آتيك وآت والدَكِ فبمجرد أن أخبرتْهُ ذَهَبَ مَعهَا.

وهكذا كان رسول ﷺ يُخْبَرُ فَيُصَدِّق، فكم أخبره الصديق، وكم أخبره عمر، وكم أخبره أبو هريرة، وكم أخبرته عائشة، وكم أخبره بلال، وكم أخبره عبد الله بن مسعود لو تتبعنا ذلك؛ لوجدنا أن العدد الهائل من إخباراتِ الآحاد للرسول ﷺ ويصدقُ بذلك. فلماذا هذا الاعتراض؟!.

والنبي ﷺ أرسل كتبه إلى الرسل مع واحدٍ أرسل إلى قيصر، وأرسل إلى كسرى، وأرسل إلى غيرهم من ملوك ذلك الوقت يدعوهم إلى الإسلام، وما أرسل العددَ، وأرسل معاذَ إلى اليمنِ؛ ليبلغَ عَنْهُ. وأرسل عليَّ بن أبي طالب، وأبا بكر ليؤذن في الناس: لا يحج بعدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطوف بالبيت عريان.

إذًا الأمور التي يتتبع هي كثيرة كتب الرسول ﷺ ألفت فيها مؤلفات، وكانت من مناهجِ دعوتِهِ ﷺ ومعظم غزواته التي قام بها كانت من هذا القبيل كان يُخْبَرُ

بخَبَرٍ فيخْرُج، كما وقَعَ في قصةِ بدر، وفي غيرها من الغزوات، وما سأل عدد التواتر ولا غير ذلك.

فأرى أن هذا الموضوعَ واضحٌ، ولا يحتاج فيه إلى إلى كبيرِ تحكم.

وذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصةَ أبي بكر في في فرض الجدة في السدس: إنه قبل خبر المغيرة، وجعله من الفرائض، وجعل فرض الجدة السدس هذا الموضوع موضوع واضح.

الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذاهبهم (٢)

عناصر الدرس

العنصـــــــــر الأول : من الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذهبهم (التفويض في المعاني، المجاز) ٢١٣
العنصـــــر الثـــــاني : من الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذهبهم (المحكم والمتشابه، تعارض العقل والنقل) ٢٢٦

من الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذهبهم (التفويض في المعاني، المجاز)

الأصل الثالث: التفويض في المعاني:

قد وقع خلط أو لبس، وهو أن بعض الناس يظن أن السلف يفوضون الكيفية والمعاني، وهذا غلط، السلف رضي الله عنهم يثبتون، ويفوضون الكيف والكل، فيثبتون الوجه، ويثبتون اليد، ويثبتون المعية، ويثبتون كل الصفات التي جاءت في القرآن، المحبة والغضب، والرضا، والاستواء، لكن لا يكيفون، كما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم، هو ثبت الأثبات لا مانع، قال: والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، ولهذا بعضُ الخلفِ يقول: بأن السلف هو وجهه، في معناه، وفي الكيف، وهذا الذي يجد في الكتب المتأخرين من الأشاعرة، والماتريدية، وغيرهم من المعتزلة. وهذا غلط؛ فمذهب السلف: هو الإثبات، فهم يفوضون الكيفية، ولا يفوضون المعاني. المعاني لا بد من فهمها.

قال ابن القيم رحمه الله فصل في انقسام الناس في نصوص الوحي إلى أصحاب تأويل، وأصحاب تخييل، أصحاب التمثيل، وأصحاب التجهيل، وأصحاب سواء السبيل، والذي يهمنا هو الصنف الثالث، الذين سماهم أصحاب التجهيل، الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا يدرى ما أرادَ الله ورسوله منها، ولكن نقرأها ألفاظًا لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلًا لا يعلمها إلا الله، وهي عندنا بمنزلةِ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١]، و﴿ حمٓ ١ عٓسٓقٓ ﴾ [الشورى: ١، ٢]، و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ [الأعراف: ١].

فلو ورد علينا منها ما ورد؛ لم نعتقد فيها تمثيلًا، ولا تشبيهًا، ولم نعرف معناه، وننكر على من تأوله، ونَكِلُ علمه إلى الله تعالى، وظن هؤلاء: أن هذه طريقة السلف، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائقَ الأسماءِ والصفات، ولا يفهمون معنى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وقوله ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] وقوله ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ومثال ذلك من نصوص الصفات.

وبنوا هذا المذهب على أصلين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه.

والثاني: أن للمتشابه تأويلًا لا يعلمه إلا الله.

فنتج من هذين الأصلين؛ استجهال السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار، وسائرِ الصحابة، والتابعين لهم بإحسان وأنهم كانوا يقرءون هذه الآيات المتعلقة بالصفات، ولا يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به.

ولازم قولهم: إن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض، فقالوا: تجري على ظواهرها، وتأويلها بما يخالف الظواهر باطل. ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله.

فكيف يثبتون لها تأويلًا، ويقولون: تجري على ظواهرها، ويقولون الظاهر منها مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها، وفي التناقض أقبح من هذا.

إذًا يعني كلام الشيخ ابن القيم رحمه الله في هذا الفهم الذي فهمه هؤلاء الخلف في قضية التفويض فهمٌ خاطئ، وكما قالوا فهم متناقض، ثم هذا يتنافي مع مقاصد القرآن، وما جاء القرآن من أجله، إن القرآن جاء ب لِيُتَدَبَّرَ وليفهم، هو كتاب،

اسمه كتاب: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] فهو كتاب أنزله الله تعالى على عبده، ونبيه محمد ﷺ للتدبر وللفهم، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فالمهم: أن المبتدع دائمًا عنده تناقض، فيقول: نقرأها وتمر، ولا نفهم معناها، ولا يعلم معناه إلا الله، ولها معاني كل هذا فيه تناقض؛ ولهذا قالوا: هؤلاء غلطوا في المتشابه، وفي جلال النصوص من متشابه، ويكون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله.

فأخطئوا في المقدمات الثلاث، واضطرهم إلى هذا التخلص من تأويلات الموطئين، وتحريفات المعطلين، وسدوا على أنفسهم الباب، وقالوا: لا نرضى بالخطأ، ولا وصول لنا إلى الصواب، فتركوا التدبر المأمور به، والتعقل لمعاني النصوص، وتعبدوا بالألفاظ المجردة، التي أنزلت في ذلك، وظنوا أنها نزلت للتلاوة التعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها، والتفكر فيها، وأولئك جعلوها عرضةً للتأويل والتحريف، كما جعلها أصحاب التخييل أمثالًا لا حقيقةَ لها.

قلت: هذا ومثله الذي حَدَا ببعض المفسرين الضالين، وهو الصاوي في حاشية على الجلالين حيث قال عند قوله تعالى من سورة الكهف ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤] ما لفظه: إن الأخذ بظواهر الكتاب، والسنة من أصول الكفر والعياذ بالله.

الشاهد: أن أهل السنة يثبتون ولا يفوضون، والسلف يثبتون ولا يفوضون؛ ولهذا نقلنا كثيرًا من النقول في هذا الموضوع، ونقلنا على المصنف ابن تيمية، وكذلك نقلنا على الشيخ الوكيل، وعلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في

(الفتوى الحموية الكبرى) قالوا: وأما الصنف الثالث وهم أهل التجهيل، فهم كثير، منهم منتسبون إلى السنة وإتباع السلف.

يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني الآيات، ولا السابقون الأولون يعرفون ذلك، ثم استرسل الشيخ رحمه الله في الرد عليهم، بالتوسع، فمن شاء رجع إليه.

وقال الشيخ عبد الرحمن الوكيل في كتابه القيم (الصفات الإلهية من السلف والخلف) يزعم بعض الناس: إن دين السلف في الأسماء والصفات الإلهية، هو إقرار ألفاظها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، ثم يزعم هؤلاء بعد ذلك: أن دين السلف هو دين الخلف؛ فالفريقان متفقان، هكذا يزعمون على أن هذه الآيات، والأحاديث لا تدل على صفة الله سبحانه.

فلا خلاف إذًا بين الفريقين، إلا أن السلف أمسك عن التأويل مخافة أن يكون المراد معنى آخر، أما الخلف: فرأوا المصلحة في تأويلها، وتعين المراد منها، وهذا تصوير لمذهب السلف مخالف للحقيقة، وقد نتج إما عن سوء فهم. وإما عن سوءِ نية، وكذبٍ.

إذًا الشيخ أيضًا الوكيل -رحمه الله -أيضًا يتابع مشايخ السنة، ومشايخ السلف في الرد على هؤلاء الذين يقولون: بأن السلف كانوا يفوضون المعنى، واللفظ، والحقيقة -كما سبق-: أن السلف يثبتون المعنى، ويفوضون الكُنْهَ، والكيفية وفيه رسالة لأخينا الدكتور رضا نعسان في هذا الموضوع، رسالة صغيرة نافعة، ذكر فيها كل الأدلة التي ترد على هؤلاءفي قضية الإثبات والتفويض، فقال:

الدليل الأول: الآيات القرآنية هي التي تضمنت هذه الصفات الكريمة لله تعالى من الاستواء، والمجيء، والرضا، والغضب والمحبة إلى آخره؛ فإن لم يكن المراد

إثبات هذه الصفات، كما يليق بجلال الله تعالى، وعظمته؛ فما هو المقصود منها؟ ثم إن الأحاديث النبوية الكثيرة في الصفات، ومطابقتها للآيات الكريمات، واستنطاق النبي ﷺ لبعض الصحابة، وسؤاله لهم عن هذه الصفات لله -جل وعلا- يدل على أن المقصود منها إثبات ذلك. وذكر بقية الأدلة.

الدليل الثاني: الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من علماء السلف التي تدل على أن مذهبهم، هو إثبات الصفات لله سبحانه.

الدليل الثالث: ما نقله كثيرٌ ممن صنف في العقائد من المتقدمين أن مذهب السلف هو الإثبات.

الدليل الرابع: إن الذين صنفوا في العقيدة من المتقدمين قد ذكروا الأحاديث والآثار التي تتعلق بالصفات ضمن أبواب رسائلهم؛ حتى إن ابن خزيمة أطلق على كتابه في ذلك اسم (كتاب التوحيد، وإثبات صفات الرب -عز وجل) وقال: باب في إثبات وجه الله، وباب: ذكر إثبات العين لله -جلا وعلا- وباب: ذكر استواء خالقنا العلي الأعلى. وباب: صفة تكلم الله بالوحي، وهكذا فعل كثير ممن صنف في العقيدة السلفية، مثل: الدارمي، والإمام أحمد، وابن أبي عاصم، والأثرم، وابن العربي، وابن زكريا، والآجري، والبيهقي، وأبو حسن الأشعري، وابن بطة، وغيره ممن لا يحصون قدرًا.

إذًا كل هذه أدلة على أن السلف أثبتوا، ولم يفوضوا يعني نقل هذا الأستاذ في رسالته وهي واضحة بحمد الله؛ لأن المحدث رحمه الله يعني: أدرى بهذا الموضوع فابن خزيمة كما ذكر في كتاب (التوحيد) ذكر أبوابًا باب في إثبات الوجه، باب في إثبات اليد، باب في إثبات العين، باب في إثبات المجيء.

الدليل الخامس: تبويب المحدثين لأحاديث الصفات في كتبهم دليل قاطع أيضًا على أن مذهب السلف هو إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه به رسوله، وهذه بعض أبواب كتاب (صحيح البخاري) وذكرها كلها لمن أراد الرجوع إليها وقال إمام أهل المغرب ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بهذه الصفة الواردة في الكتاب والسنة، ولم يكيفوا شيئًا منها.

وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فقالوا: من من أَقَرَّ بِهَا فهو مُشَبِّهٌ فسماهم من أَقَرَّ بها معطل. إذًا ابن عبد البر والطلمنكي وغيرهم على هذا المنهاج، يعني منهج الإثبات والنقول في هذا الموضوع كثيرة، قال:

الدليل السادس: ما ذكره المفسرون من الأحاديث والآثار عند آيات الصفات التي وردت في القرآن الكريم.

الدليل السابع: لم يثبت أن أحدًا من السلف صرَّح بنقيض هذه الصفات، لا من قريب ولا من بعيد، ومثال ذلك: أنه لم ينقل عن أحد منهم: أنه نفى أن يكون الله -جلا وعلا- في السماء، أو أن له وجهًا، بل أنهم صرحوا أن من نفى ذلك فهو جهمي ضال مبتدع.

الدليل الثامن: إجماع علماء السلف على وصفِ من نفى صفات الله تعالى بأنهم معطل جهمي، وتابع في معتقده للجهم بن صفوان. فإنه أولُ من أظهر القول بنفي الصفات، وأما الذين أثبتوا لله تعالى بعض الصفات، ونفوا بعضها؛ فقد سلك هؤلاء منهجًا عقليًّا مع أنه يلزمهم في الصفات التي أثبتوها ما يلزمهم في الصفات التي نفوها.

الدليل التاسع: الإيمان بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ إنما يكون إثبات جميع جزئيات ما يجب الإيمان به، وفي ذلك زيادةٌ في الإيمان على من فوض

الصفات؛ لأن إيمانه بها يكون مجملًا لا تفصيلَ فيهِ، ولا تفريقَ بين صفةٍ، وأخرى. وغاية القول: أن مذهب السلف، هو الإثبات، وليس التفويض.

المهم: أن هذا الأصل أصل واضح في مذهب السلف، وأن الذي يزعم أن السلف كانوا مفوضةً في المعاني فقد أخطأ، والحمد لله في هذا البحث ذكرنا الأدلة من كل جهة ومن كلام العلماء المعتبرين، وفي مقدمتهم: الإمامان شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وبقية المتأخرين الذين كانوا على منهج السلف الصالح.

الأصل الرابع: المجاز:

المجاز في الحقيقة: انتشر خبرُه، وكتب فيه الكاتبون، واتخذ منهاجًا للتدريس في البلاغة، فيما يسمى بعلم البيان، وعلم البيان أكثره يركز على ما يسمى بالمجاز، وهو يعني حذف طرفي التشبيه تقول: زيد كالبدر فإذا حذفت طرفي التشبيه يصبح الكلام على حد تعبيرهم مجازًا. زيد كالبدر كأنك قلت: رأيت بدرًا مثلًا في الشارع، فهذا هو المجاز.

هذا المجاز انتشر في الكتب -كتب التفسير- كما ثبت في هذا المؤلف المبارك، وانتشر في شروح الحديث، وانتشر في كتب الأصول، وانتشر في كتب الأدب، وانتشر في مفردات القرآن اللغوية، وهو الآن من المناهج في الكثير من المدارس التعليمية، يدرس تبعًا لدراسة مادة البلاغة في ما يسمى بعلم البيان.

المعتزلة والأشاعرة هم الذين اخترعوا هذه الكلمة -كلمة المجاز- والذي بحثه بحثًا واسعًا بالنفي والإثبات، هو شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الإيمان) وكذلك تلميذه، والعلامة ابن القيم في مختصر الصواعق، والمطبوع من الصواعق ناقص؛ لأنه لا يعلم إنه هناك نسخة كاملة من (الصواعق) الأصل؛ فالمتداول الآن هو

(مختصر الصواعق) وقد حقق تحقيقًا طيبًا من طرف أخينا الحسن الأهلوي. دكتوراه في الجامعة الإسلامية في قسم العقيدة وقد طبع وسماه ابن القيم في (الصواعق) سماه طاغوت، الطواغيت عنده هو المجاز والتأويل، وتعارض العقل والنقل، وسماه -أي المجاز الطاغوت؛ لأن طغوتيته تتجلى؛ في أنه استعمل آلةً لهدم النصوص وردِّها؛ فلهذا كان الطاغوت عنده الإيمان باليقين.

الإمام السيوطي له رسالة في المجاز، وحقق بأنه لا مجاز في القرآن، ولا في اللغة؛ لأنه خلاف المتقدمين الذين نفوا أن يكون مجازًا في اللغة، والذين نفوا أن يكون مجازًا في القرآن؛ لأن المجاز يجوز نفيه عند القائلين به.

تقول: رأيت أسدًا يرمي في الميدان، ثم تنفي أن يكون هذا الأسد، بل هو رجل؛ فيجوز النفي، والقرآن لا يجوز أن ينفى فيه شيء وأيا ما كان حسب بحث الإمام ابن تيمية رحمه الله أنه لا تاريخَ له.

يقول: بأن القرون الثلاثة لم يثبت أن أحدًا نطق بهذه الكلمة، بمن على الصحابة، ولا التابعون، ولا أتباع التابعين، ولا الأئمة، ولا الشافعي، ولا المالكي ولا غيرهم. وقال: أول من نطق بالمجاز هو أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه (مجاز القرآن) وهو كتاب مطبوع ومتداول. وهو في هذا الكتاب لا يقصد المجاز بالمعنى المتعارف عليه الذي هو حذف أحد طرفي التشبيه، وإنما يقصد أن هذا يجوز في القرآن.

إن بعض التعبيرات الموجودة في القرآن تجوز من هذا الباب، لا أن المقصود بالجواز بالمجاز الذي هو قبيل الحقيقة؛ وكما قال ابن القيم وغيره: إن الذي استعمله هم المعتزلة، والأشاعرة هم الذين أصلوا هذا الأصل، يعني تأويل الصفات، وأحاديث الصفات هذا هو من ناحية التاريخية.

أما من الناحية اللغوية: فالشيخ ابن تيمية رحمه الله يقرر في صفحات كثيرة في الرد على المرجئة الذين قالوا: بأن الحقيقة هو في الإيمان، هو التصديق والأعمال كلها مجاز؛ فيرد عليهم بأن لا يُعْلَم في كلام العرب أن هناك شيء اسمه الحقيقة وهناك شيء اسمه المجاز؛ لأن أي كلام في اللغة العربية لا بد أن يقيد، إما بالإضافة، أو بالوصف، أو بالخبر، أو بالفاعل أو بالمفعول. فهذا التقييد هو الذي يبين الكلام، أما أن يقال هذا مجاز، وهذا حقيقة. يقول الشيخ ابن تيمية رحمه الله أن هذا الأمر أن هذا التقسيم لا أصل له في اللغة لا يعرف، ولا يعرف أن أئمة اللغة اجتمعوا في يوم من الأيام واتفقوا على تقسيم الكلام إلى حقيقة وإلى مجاز.

ويقول: حتى أن قدماء اللغة مثل سيبويه والخليل وغيرهم من أئمة اللغة لم ينطقوا بهذا المجاز، ولا الحقيقة، ولا عرفوه؛ فالمهم أنه من حيث اللغة أيضًا لا أصل لها يعني لا يعرف في كلام العرب يعني كلمة اسمها الحقيقة ولا كلمة اسمها المجاز.

فأحيانًا قد يطلق الكلام، ويراد به شيء، ويقيد، ويراد به شيئًا آخر فلو قال أحد: رأيت أسدًا، وأطلق فينصرف إلى الحيوان المفترس، لكن القيادة هو بأنه أسد، مثل في الرمي، أو في الشجاعة، أو في أي شيء، يعني القيادة هو به لما قيدت به الكلمة، وكذلك لو وصف امرأة بالجمال، وقال: رأيت بدرًا في الدار فهذا التقييد مما يقيد بأن المنظر الذي رآه هو امرأة، وهكذا لو قال: رأيت تمرًا وأكلت عسلًا لو قال: أكلت عسلًا، يعني بلون كذا، ونوع كذا، يعني هو يقصد به تمرًا، فيقيد على أنه تمر أو أن هذه النخلة يعني تنتج عسلًا، والنخل لا ينتج عسلًا، ينتج تمرًا، لكن حلاوته التمر أشبهت العسل، فإذا قيده بالنخلة يصرفه إلى إلى التمر ولا يصرفه إلى العسل.

فالمهم: أن التقييد دائمًا يعين المراد؛ فلهذا لا يوجد كلام لا مقيد؛ فلهذا آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ كلها تجدها من أجله؛ فلهذا الكلام المطلق يعني كلمة مطلقة لا لا تفيد المعنى؛ لأن الكلام لابد أن يكون مركبًا من فعل وفاعل والقيود كلما كثرت اتضح المراد، والكلام غير المقيد لا يوجد.

فالمهم: أن المجاز بجميع الأشكال، والنظر إليه تجده في الحقيقة غير ثابت من حيث الأصل اللغوي، ومن حيث تاريخ الوجود، ومن كل ناحية تجد أن هذا التقسيم لا أصل له.

الشيخ ابن تيمية رحمه الله ذكر الأمثلةَ التي احتجَّ بها من احتج على وجود المجاز، مثلًا في الجدار ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ هذه هي أمثلة يدعَى فيها المجاز؛ فالشيخ رحمه الله يجيب على هذه الأمثلة كلها إجابةً علميةً واضحةً. فيقول: إن الإرادةَ هي الميل فما أن يكون هذا الجدار يميل، تقول مثلًا: ما لهذا الجدار، وأراد هذا الجدار أن ينقض، فكل إرادةٍ فهي ميل؛ فلماذا تكون حقيقةً في الإنسان، وتكون مجازًا في الجدار الذي يريد أن ينقض، فتلك إرادة مقيدة بالجدار، وهذه إرادة مقيدة بالإنسان؛ فكل له إرادة والإرادة هنا بمعنى الميل فالشاهد: أن الشيخ رحمه الله يجيب على هذه الأمثلة التي يدعَى فيها المجاز. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢] فهذه أيضًا مما مُثِّلَ به في المجاز، وقالوا فيه: إنه مجاز مرسل بالحذف، ويقصدون به واسأل أهل القرية.

الشيخ رحمه الله يقول: لا يقال: قرية إلا إذا كان فيها سكان كانت معمورة. والقرية فقط لا تطلق على المِحْل؛ فتطلق على الحال والمحل، فمثلًا الصحراء فارغة لا يقال فيها قرية لا يقال قرية إلا للمكان المسكون.

أمثلة لمن يثبت المجاز في القرآن، ومن ينفيه:

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن: ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] قالوا: المراد به أهلُها؛ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ فقيل لهم: لفظ القرية، والمدينة والنهر والميزاب.

وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحل، قيل: و"ما" داخل في الاسم، ثم قد يعود الحكم على الحال، وهم السكان، وتارة على المحل، وهو المكان كما سبق ووضحت: بأن القريةَ تطلقُ على السكان، وتطلق على المحل، وكذلك في النهر، يقال: وحفرت النهر، وهو المحل وجرى النهر، وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل، وجرى الميزاب وهو الماء.

وكذلك القرية قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ [النحل: ١١٢] وقوله: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤، ٥] وقال في آية أخرى ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧] فجعل القرى هم السكان، وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣] وهم السكان، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩] قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. فهذا المكان لا السكان.

لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكونًا، فلا يسمى قرية إلا إذا كان قد عُمِّرَ بالسكنى، مأخوذ من القَرْي، وهو الجمع. ومنه قولهم: قريت الماء في الحوض إذا جمعته. يعني جواب الشيخ على هذا الإيراد واضح، هو أن القرية تطلق على

الحال الذي هو الساكن، وعلى المحل وهو المكان، ونظير ذلك لفظ الإنسان يتناول الجسد والروح، ثم الأحكام تتناول هذا تارةً، وهذا تارة لتلازمِهم، فكذلك القرية إذا عُذِّبَ أهلُهَا خَرِبَتْ فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر، كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقوله ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] مثل قوله: ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ [النحل: ١١٢] فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار، ولا حذف، فهذا بتقدير: أن يكون في اللغة مجاز، فلا مجاز في القرآن، بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث، لم ينطق به السلف.

والخلف فيه على قولين: وليس النزاع فيه مقضيٌّ بالمقابل نفس هذا التقسيم، بل نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا؛ ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق تبين أنها فروق باطلة، وكلما ذكر بعضهم فرقًا أبطله الثاني كما يدعي المنطقيون إلى أخر كلامه.

وقولهم: اللفظ إن دلَّ بلا قرينةٍ فهو حقيقة، وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز، قد تبين بطلانه، وإنه ليس في الألفاظ الدالة ما يدل مجردًا عن جميع القرائن، ولا فيها ما يحتاج إلى جميع القرائن. وأشهر أمثلة المجاز لفظ الأسد، والحمار والبحر، ونحو ذلك مما يقولون: إنه استعير للشجاع، والبليد والجواد، وهذه لا تستعمل إلا مؤلفةً مرتبةً مقيدةً بقيود لفظية كما تستعمل الحقيقة، تقول: أبي بكر الصديق عن أبي قتادة لما طلب غيره سلب القتيل لها الله. إذًا يعمد إلى أسدٍ من أسودِ الله يقاتل عن الله ورسوله، فيعطيك سلبه.

فقوله: يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله، وصفٌ له بالقوة للجهاد في سبيله، وقد عينه تعيينًا أزال اللبس، كما قال النبي ﷺ: ((إن خالدًا سيف من سيوف الله سلَّهُ الله على المشركين)).

وأمثال ذلك: وإن قال القائل: القرائن اللفظية موضوعةٌ ودالة على المعنى حقيقة، لكن القرائن الحالية مجاز، قيل: اللفظ لا يستعمل قط إلا مقيدًا بقيود لفظية موضوعة وحال المتكلم المستمع لا بد من اعتباره في جميع الكلام؛ فإنه إذا عرف المتكلم؛ فهم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرفه؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه.

واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم، وهي عادته، وعرفه التي يعتادها في خطابه. والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مشى على هذا المنوال، وهذا البحث القيم الطيب؛ فالمجاز لا أصل له، وإنما هو شيوع اخترعه المتكلمون ليردوا به النصوص.

والسخاوى يتكلم عن هذا الموضوع بكلامٍ واضحٍ، ثم قال في آخر الكلام: ولهذا تجد المعتزلة، والمرجئة، والرافضة، وغيرهم من أهل البدع، يفسر القرآن برأيهم، وعقولهم، وما يتأوله من اللغة ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين؛ فلا يعتمدون لا على السنة، ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثور، والحديث، وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤسهم. وهذه طريقة الملاحدة أيضًا.

إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة، وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن، والحديث، والآثار فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم، بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه.

وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجهله طريقة أهل البدع، وإذا تدبرت حججهم وجدت دعوى لا يقوم عليها دليل. والقاضي أبو بكر الباقلاني وسار كل جهد في مسألة الإمام؛ متابعة لأبي حسن الأشعري.

المهم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بين مصادر المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع أنها ليست مرجعيتهم في كتب السنة، وكتب الآثار، وكتب الحديث، وما يمكن أن يستفاد من العلم الصحيح النافع، ولكن مراجعهم هي كتب الأدب، وما وضعه أئمتهم من كتب الآراء، والأهواء.

ويخترعون من حين إلى آخر أصلًا من الأصول الفاسدة، وهذه الأصول التي ندفعها، ونقررها في منهج الخلف هي منهج الباب، اخترنا منها ستة أصول، فهي أمهات هذه الأصول؛ فمن فهمها وفهم كيف يردها، فإن شاء الله يتجرد لقبول منهج السلف، وإقباله ويحبه؛ فالكلمات في هذه النقول المبارك الطيبة من هؤلاء الأئمة يجعلنا نستفيد العلم النافع، في رد هذه الأصول.

فهذه الأصول ذكرناها؛ ليعلم أنها هي شُبَهٌ، وتهدم العقيدة من أساسها؛ فلهذا نحاول ونجتهد قدر ما نستطيع في تربية إخواننا أهل السنة على القرآن، وعلى فهم السلف، وعلى التعلق بأئمة السلف.

من الأصول التي بنى عليها أهل الكلام مذهبهم (المحكم والمتشابه، تعارض العقل والنقل)

المحكم والمتشابه:

إذا رجعنا إلى كتب المتأخرين ولا سيما الأشاعرة والماتريدية وغيرهم نجدهم أنهم يعدون آيات الصفات وأحاديث الصفات من المتشابه، وإذا ورد عندهم المتشابه

فهم إما بالتأويل أو التفويض ؛ فلهذا نحاول أن نبين أن آيات الصفات ليست من المتشابه ؛ لأن المتشابه إما أن تكون آيات يشبه بعضه بعضًا ، أو تتشابه في الأحكام ، أو غيرها من الأقوال التي يمكن توجيهها ، أما آيات الصفات فبمفهوم الخلف لها من متجربه ، فهذا لا شك أنه غير صحيح ، كما سنقول -إن شاء الله- من كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله في رده على هذا الزعم : إن آيات الصفات من المتشابه ، فآيات الصفات وأحاديث الصفات ليست من المتشابه ، وإنما هي من المحكم ، والمعتقد كله من المحكم ليس فيه متشابه ، المعتقد في باب القضاء والقدر لكن هناك شيء ينبغي أن نذكره وهو الإيمان بالكونه وبالكيفية ، يعني الكونه والكيفية لا شك أنها مجهولة عندنا ، وهي من المتشابه ، فنؤمن بها ولا نكيفها.

أما معاني الآيات فهي مفهومة ومعروفة ، وإذا جاء الاستواء فهمنا معناه ، وإذا جاءت اليد فهمنا معناها ، وإذا جاء الوجه فهمنا معناه ، وهكذا ، فهي ليست من المتشابه ، يعني نأخذ أمثلة من واقع الكتب ومن المؤلفات ، فهذا كتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ، وهو من أكبر الكتب في هذا الموضوع ، يعني في علوم القرآن ، وهو جامع لكل ما يتعلق باللغة وبالبعث وبالنار ، وبالناسخ والمنسوخ ، وبالعام وبالخاص ، فيه مباحث كثيرة ، لكن يهمنا أنه جاء بنوع سماه النوع السابع والثلاثون في ذكر الآيات المتشابهات الواردة في الصفات.

ثم ننقل من شرح لابن عاشر الذي هو مصدّر بالعقيدة الأشعرية في أخذ الأشعري ، ونقرأ ما قاله ابن القيم في شرحه على منظومة ابن عاشر هذه المنظومة التي افتتحها صاحبها بأبيات نظم فيها العقيدة الأشعرية ، قال ما نصه : فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية النافية للمماثلة بينه وبين كل شيء أي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١]، وبين بعض الآيات والأحاديث المثبتة لما يحصل

به الشبه من الأعضاء والجهة نحو: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]، هذا في القرآن، يعني كل هذه آيات على حد تعبيره توهم الشبه من الأعضاء والجهة، فالأعضاء عندهم مثلًا: الوجه، والعين... إلى أخره، و ﴿ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، والجهة هي الاستواء: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾، أو ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك: ١٦]، قال: وفي الحديث: ((إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه كيف شاء))، ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل))، وفي التنزيل: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك: ١٦]، هذه كلها من الآيات والأحاديث المتشابه على حد تعبيره، وأنها توهم الجهة، وتوهم الحيز، هكذا يفهمون -مع الأسف- المعتقد الباطل.

قلت -أي: المؤلف-: أجمعوا على تنزيه تعالى عن الظاهر المفضي إلى التشبيه، ثم ما كان له محمل واحد مجازي تعين المصير إليه كقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أي: بعلمه، وسمعه، وبصره، وإحاطة قدرته، كذا قوله: ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي: سلطانه، وأمره، وقيل بذات ما لا يليق به من غير تكيف، ومثل: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] أي: أمره، وسلطانه، يعني مع الأسف هذا هو مستوى المؤلف، وهذه هي الكتب التي تقرأها الأجيال من قديم مع الأسف وتتربى عليها، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي: عذابه، وما له محامل

قال السلف: فوض، ونقول: أمنا بالله، وما جاء عن الله على مراد الله، وهو السميع، يا ليت قلنا كذا.

وقال في الحاشية: ذكر الشارح منها عشر آيات وحديثين، ويدخل ما بقي في قوله نحو: والحاصل أن كل نص أوهم التشبيه يجري فيه ما يأتي على ما في (الجوهرة):

وكل نص أوهم التشبيه ❖ أوله أو فوضه ورم تنزيها

ثم إن هذه الآيات والأحاديث ونحوها مما استدل به القائلون بالجسمية، والجهة، والحيز، ونحو ذلك.

قال السعدي في (شرح المقاصد): والجواب أنها ظنية سمعية في معارضة إقطاعيات عقلية، فيقطع بأنها ليست على ظاهرها، ويفوض العلم بمعانيها إلى الله تعالى مع اعتقاد حقيقتها جريًا على الاسم الموافق للوقف ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، هكذا يسوق هذا الكلام، وكله فيه تضليل، وفيه اضطراب، وأحيانًا يقول فوض، أحيانًا أول، أحيانًا يقول نزه، أحيانًا يقول نثبت المعية، أحيانًا يقول لا تجد هناك طريقة مؤصلة مرتبة، هذا كله يدل على ضعف في فهم آيات الصفات، الشاهد الذي جئنا بهذه الأمثلة: أن هؤلاء يسمون آيات الصفات وأحاديث الصفات يسمونها بالمتشابه.

فننقل كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله في هذا الموضوع حتى يعلم القراء، ويقارنون بين منهج السلف والخلف، وأحب من الطلبة أن يعكفوا على هذه الأمور حتى يتقنوها، ويعلموا الفرق بين مذهب السلف ومذهب الخلف، فصل -هذا كلام الشيخ في كتابه (رسالة الإكليل) إنه رسالة ضمن مجموعة رسائل نفيسة لمن أراد الرجوع إليها وقراءتها-: وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه

الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله كما يقوله كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين رحمه الله: الأول: من قال: إن هذا من المتشابه، وأنه لا يفهم معناه، فيقول: أما الدليل فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة، ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية.

إذًا الشيخ هنا يجزم جزمًا باتًا أنه لا يعلم أن أحدًا جعل هذه الآيات والأحاديث من المتشابهات، ونفى أن يعلم أحد معناه، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، ولا قالوا: إن الله ينزل كلامًا لا يفهم أحد معناه، وإنما قالوا كلمات لها معاني صحيحة، قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت، ونهوا عن تأويلات الجهمية، وردوها، وأبطلوها، التي مضمونها تعطيل النصوص على ما دلت عليه، ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد، والفضائل، وغير ذلك، وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات: تمر كما جاءت في أحاديث الوعد مثل قوله: ((من غشنا فليس منا))، وأحاديث الفضائل، ومقصوده من ذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه، كما يفعل من يحرفه، ويسمي تحريفه تأويلًا بالعرف المتأخر،

تعارض العقل والنقل:

بعد الحديث على المحكم والمتشابه، وأحيل القراء على قراءة رسالة شيخ الإسلام وعلى ما سطرته في المفسرين من كلام المخالفين، حتى يقارن بين مذهب السلف

وبين مذهب الخلف الذي نحاول رده في كل أصوله التي نبرزها للطلبة وللقراء؛ لأننا نؤمن إيمانًا جازمًا بأن الحق هو الجري وراء مذهب السلف، وأنه هو المذهب الحق، فالحديث على المحكم والمتشابه طويل، ولهذا اقتصرت على أمثلة يسيرة في ذلك، وإلا فالحديث عنه طويل، وكل بقية الأصول نقتبس منه جمل يسيرة فقط؛ لأن الوقت قد لا يمكننا من الاستيفاء، ومن البسط في كل أصل من الأصول.

بالنسبة لتعارض العقل والنقل لا شك أننا إذا تذكرنا السرد الذي قام به شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في (الصواعق) على تاريخ العقيدة بداية من عهد الجاهلية وإلى عصره، وأن الزلازل التي لحقت العقيدة كلها بهذا الأصل الفاسد، الذي نصبه أعداء الدعوة السلفية، أو أعداء الإسلام لرد الإسلام، وبكل أسف تبنى هذا الأصل جماعة من المنتسبين إلى السنة إما عن حسن ظن، وإما عن تقصير فيه لعلم السنة والكتاب، مع أن الذي أبرزه في تاريخ الأمة الإسلامية أكثر هم: القرامطة، والفلاسفة، وورثة الفاطميين كابن سينا الذي ذكر أن أباه كان من أهل هذه الدعوة في كتبه كلها.

فابن القيم رحمه الله سرد ذلك السرد في تاريخ العقيدة، وبين هدم الإسلام بهذا الأصل الذي هو تعارض العقل والنقل؛ لأن الذي سماه هو نصير الشرك الطوسي، كان هو شعاره أن العقل عارض النقل، ولهذا محا السنة، ومحا أهلها، وكذلك الفاطميون في القاهرة، وفي مصر، وفي المغرب كان هذا هو شعارهم، والآن أيضًا هو شعار الكثيرين من الموجودين، من المفكرين، ومن المثقفين، ومن المنتسبين للجماعات الإسلامية، مثلما فعل الغزالي مصري، وغيره ممن عرض العقل عرض به السنة، ورد كثيرًا من نصوص السنة، وكذلك فكرة المستشرقين، وفكرة الآن الكثيرين ممن انتشروا في العالم الغربي والشرقي والإسلامي بهذا

الفكـر، وأن الإسـلام الآن يعـارض الحضـارة القائمـة تكنولوجيـات، ويعـارض كثير من تناسبات، فهذا الأمر له خطره الكبير.

فابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بين خطره في سرده إلى زمن شيخ الإسلام ابـن تيمية، لكـن مـن زمن شيخ الإسلام ابن تيمية وإلى يومنا هذا والأمور اتسعت أكثر، واتسعت أكثر في هذا الوقت، وسبق فيما ذكرناه في المحكم والمتشابه في كلام الطيب شارح ابن عاشر: أن هـذه النصـوص التـي سماه الأعضـاء، لأنها تعـارض العقـل، وكلما رجعت، وكذلك في أمس لما قرأنا العقيدة الأشعرية أن تقسيمه هو تقسيم عقلي، وإثبـات الصـفات السـبع التـي أثبتهـا الأشـاعرة بالعقـل عـلى حـد تعـبيرهم، ولم يقولوا أثبتها السمع ولا الدليل، أما المعتزلة فلا شك أن هذا هو ديدنهم، وبه يـرد كل الأثر، وكل النصوص، وكـل الأحاديـث في هـذا الأصـل، هـذه هـو تعـارض العقل والنقل.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أعطى لهذه المسألة حقها، ونذر حياته للـدفاع عن الإسلام، والقرآن، والسنة، فبين تهافت هـذا الفكـر؛ لأن أصـلًا لا يمكـن أن يتعارض مع النقل بأي صفة مـن الصفات يستحيل؛ لأن الـذي خلـق العقـل هـو الـذي أنـزل النقـل فيسـتحيل؛ فلهـذا شيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللَّهُ ألّـف كتابـه الـذي الآن طبع، وهو مؤلف من إحدى عشر مجلد وجزء، وشيخ الإسلام ابن القـيم أدرجـه في (الصـواعق)، وجعلـه مـن الطواغيـت كمـا سـبق؛ فلهـذا هـذا الموضـوع خطـير وخطير جدًّا، وإذا فهمـه النـاس عرفـوا خطـره، والمعاصرون مـع الأسـف لعلـهم أصحاب هذا الأصل، ويهدمون به الكثير من السـنن، والكـثير مـن أنـواع الفقـه، ولهذا تجاوز الكثير من الأحكام، ولجئوا فيها إلى العقل وإلى القوانين، وتركـوا مـا عليه السنة، وما عليه الإسلام، وزعمـوا أنهـم فهمـوا كـذا، وأنهـم فهمـوا كـذا،

وأن هذا لا يساير كلام، وهو يحاولون مسايرة الحضارات التي أصلها جاءت من بلاد غير إسلامية، والتي لا تخضع لمقاييس الإسلام؛ فلهذا لا بد من العناية بهذا الأصل.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أكثر ما رد في التعارض وبدأ به هو قانون الرازي؛ لأن الرازي أخذ هذا المنهج عن الغزالي عن أبي حامد، لكنه توسع فيه، وعرف به أكثر من غيره، و تسلسلوا تبع الأشاعرة آخذين هذا الأصل من المعتزلة، فكل الذين ألفوا في التأويل، وألفوا في المجاز، وألفوا... كلهم يلجئون إلى هذا الأصل، وما ألجأهم إلى هذه الأصول إلا هذا الأصل الفاسد الذي هو تعارض العقل والنقل، فالجزء الأول من الكتاب تبدأ بقانون الرازي فبه بدأ، وكذلك (تلبيس الجهمية) الذي هو رد على الرازي، وكذلك (نقض أساس التقديس) كل كتب الرازي تلهج بهذا الأمر، والكاتب الذي كتب الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل لخص هذا الموضوع تلخيصًا طيبًا جيدًا أنا استفدت منه، ونقلت كلامه في كتابي (المفسرون)؛ لأن وجدته لخصه تلخيصًا طيبًا، فجزاه الله خيرًا، أنا استفدت منه ونقلته إلى كتابي هذا.

الرازي في كتابه (نهاية العقول في دراية الأصول)، حيث يقول الرازي: وذلك أن لو قدرنا قيام الدليل العقلي القاطع على خلاف ما أشعر به ظاهر الدليل السمعي، فلا خلاف بين أهل التحقيق أنه يجب تأويل الدليل السمعي؛ لأنه إذا لم يكن الجمع بين ظاهر النقل وبين مقتضى العقل، فإما أن يكذب العقل أو يؤول النقل، فإن كذبنا العقل مع أن النقل لا يمكن إثباته إلا بالعقل، فإن الطريق إلى إثبات الصانع ومعرفة النبوة ليس إلا بالعقل، فحينئذ تكون صحة النقل متفرعة على ما يجوز فساده وبطلانه، هذا هو فهم الرازي لهذا الأصل، ويؤصله ويدافع عنه، ويبين على أن النقل لا يمكن اعتماده؛ لأن بالأصل النقل في نظره

لا يثبت إلا بالعقل ؛ فلهذا إذا تعارض العقل والنقل ، فإما أن يكذب العقل وإن كذبنا بالعقل فمعناه أنه لا قيمة للنقل ؛ لأن النقل أصله معتمد على العقل.

ويستمر في هذا التأصيل ، فيقول في كتابه (المطالب العالية) : إن آيات التشبيه كثيرة لكنها لما كانت معارضة بالدلائل العقلية لا جرم وجبنا صرفها عن ظواهرها أيضًا ، فعند حصول التعارض بين ظواهر النقل وقواطع العقل لا يمكن تصديقهما معًا ، وإلا لزم تصديق النقيضين ، ولا ترجيح النقل على القواطع العقلية ؛ لأن النقل لا يمكن التصديق به إلا بالدلائل العقلية ، فترجيح النقل على العقل يقتضي الطعن في العقل والنقل معًا ، وإنه محال ، فلم يبق إلا القسم الرابع ، وهو القطع بمقتضيات الدلائل العقلية القطعية ، وحمل الظواهر النقلية على التأويل ، هكذا يقرر الرازي أن النقل إذا عارض العقل فإننا نؤول النقل حتى ينسجم مع العقل ، وهكذا يصور الرازي موقفه من الأدلة السمعية في كثير من كتبه على هذا النحو السابق الذي يجعل في العقل أصلًا لقبول النقل أو بتأويله ، ولقد وضع كتابه (أساس التقديس) على أساس تقديم العقل على النقل عند التعارض بينهما ، وبنى على ذلك رأيه في التأويل.

فإذًا هذا الموضوع هو موضوع كبير ، لكن الخلاصة فيه أن الشيخ ابن تيمية رحمه الله بين تهافت هذا الفكرة ، وأن هذا القضية لا أصل لها ، وأنه لا يمكن أن يوجد دليل صحيح في الكتاب وفي السنة يعارض العقل ، لا يوجد دليل صحيح يعارض في الكتاب والسنة يعارض العقل.

ويقرر الشيخ ابن تيمية رحمه الله أن العقول التي نريد أن نزين بها النقل ما هي؟ هل عقل الرازي ، أو عقل الغزالي ، أو عقل ابن العربي ، أو عقل ابن الباقلاني ، أو عقل أبو هاشم ، أو عقل الجبائي؟ فالعقول تختلف من شخص إلى آخر ، بل الشخص نفسه عقله يختلف من حين إلى آخر ، ومن زمن إلى آخر.

التفاسير السلفية في باب الأسماء والصفات (١)

عناصر الدرس

العنصـــــــــر الأول :	تفسير باب الأسماء والصفات عند ابن جرير الطبري	٢٣٧
العنصـــــر الثـــــاني :	تفسير باب الأسماء والصفات عند أبو المظفر السمعاني، الإمام البغوي، الإمام ابن كثير ، الشيخ الصديق حسن خان	٢٤٧

تفسير باب الأسماء والصفات عند ابن جرير الطبري

تمهيد:

ننتقل إلى القسم الثالث وهو الحديث على المفسرين السلفيين، الذين سلكوا منهاجَ السلف في باب الأسماء والصفات، وكان الحديث قد انتهى بنا على الأصول التي اعتمدها الخلف في تأويل الأسماء والصفات، وذكرنا من ذلك ستةَ أصولٍ، وكان قد انتهى بنا الحديث إلى آخر أصل منها، وهو ما يسمى بتعارض العقل والنقل هذا الأصل في الحقيقة -كما سبق أن ذكرنا- عن الإمام ابن القيم في سرده لتاريخ العقيدة، هو الأصل الذي ركز عليه إبليس في عدم الاستجابة لربه في أمره بالسجود لآدم.

وبينَّا أن المحن التي أصابت تاريخ العقيدة كانت من هذا الأصل؛ فركز عليه الجهمية لما ظهروا، وركز عليه المأمون لما كان خليفةً وسخر كل وسائل الدولة؛ لتحقيق هذا الأصل الباطل وتبعه على ذلك إخوانه، المعتصم والواثق، ثم لما جاء القرامطة وقويت شوكتهم كان شعارهم هو هذا الأصل، أي: أن العقل يعارضه النقل، ودخلوا مكة وأخذو الحجر الأسود، وقويت شوكتهم في كل مكان، فرفعوا هذا الشعار، وفي هذا الحين أُلِّفَت رسائل (إخوان الصفا) و(الإشارات) وغيرها من الكتب التي كانت تحمل هذا الأصل الباطل.

ثم لما جاء نصير الشرك الذي سماه ابن القيم بهذا الاسم الطوسي، الذي رفع هذا الشعار، وحاول أن يقضي على الإسلام قضاءً لا رجعةَ فيه، ورفعه أيضًا الفاطميون في مصر لما ملكوا مصر، وبنوا القاهرة؛ وانتشر في بلاد المغرب؛ فكان

هو أصلهم الذي صدوا به كتاب السنة، وأصبح الناس لا يدرسون السنة إلا عن طريق الخُفْيَةِ. وبقي هذا الأصل وهو أصل انتشر أكثر اليومَ في أكثر المثقفين، والمفكرين كما سبق، أحببت أن أكرر هذا لأهميته وهذا الأصل ناقشه شيخ الإسلام ابن تيمية نقاشًا واسعًا في كتابه (تعارض العقل والنقل) والذي دافع عنه بعد المعتزلة هم الأشاعرة، ابتداء من الغزالي، ثم أبو بكر بن العربي ثم الرازي، محمد بن عمر الرازي. وهو الذي توسع فيه وفسر له أكثر، وأسس عليه معظم كتبه، وهو الذي تولَّاهُ شيخُ الإسلام والرد عليه في طريق تعارض العقل والنقل، وبالرازي بدأ في هذا الكتاب.

هذا الأصل الوهمي الذي اعتمد عليه من اعتمد عبارة عن وساوسَ، وشبهاتٍ لا حقيقةَ لَهَا؛ لأن لا يمكن أن يعارض العقلُ النقلَ. ويستحيل أن يعارض النقلُ العقلَ فالعقل خلقه الله، والنقل أنزله الله، ولا يمكن أن يتعارضا. فلهذا كل ما فعله الرازي، ومن سبقه كله في ضلال، وكله باطل، وكله أوهام لا حقيقة له؛ لأن النقل ثابت في نفسه إذا كان النقل أنزله الله تعالى من فوق سبع سماوات كتاب وسنة، فهو ثابت؛ فلا يمكن أن يتعارضَ مع العقل أبدًا، وإذا وقع خلل ففي العقل؛

والعرب الذين كان يأتون الرسول -عليه الصلاة السلام- ويسلمون على الفطرة، ويثبتون كل ما أخبرهم به الرسول ﷺ من صفات ومن أحكام ومن كذا، ما كانوا يعرفون هذه الضلالات، ولا خطرت ببالهم، ولهذا مَن درس تراجم العلماء وتراجم الحكماء، ودرس تراجم الأخيار؛ لا يجدوا لهذا الأصل وجودًا وإنما هو يوجد عند المتكلمين، وخصوصًا ما ذكرت من متكلمي المعتزلة والأشاعرة، ومن برز من الأشاعرة.

فالمهم أن العناية بهذا الأصل، وبتفنيده، وبأبعاده، ومحاولة ربط الناس بكتاب الله، وبسنة رسول الله، وأنها هي الأصل الأصيل، وأن هذه مجرد شبهات ووساوس، وأن فيها من المصائب والبلايا ما يجب على الإنسان أن يتجنبه؛ ففي الحقيقة هذا أمر حببت أن أقدم به، وأن أختم به البحث السابق، أي: الكلام على الأصول التي أعتمدها الخلف.

واليوم نتكلم على المفسرين السلفيين: لا شك أن الذي يرجع إلى كتب التفسير عمومًا يجد المشارب قد اختلفت، والتخصصات من الكتابة في التفسير قد تنوعت، ويجد كل مفسر نَحَا منحىً في فكرِهِ؛ فلا شك أن الذي غلب عليه اللغة كانت تفسيره مليئًا باللغة، والذي غلب عليه الفقه كانت تشير إلى علم الفقه والفروع والذي غلب عليه الحديث والسنة كانت تفسيره كذلك.

فالتفاسير اختلفت في تصانيفها، وفي مناهجها، وفي محتواها والملاحظ في هذه التفاسير: أن معظمها لا تجد فيه العناية بدراسة السنة، وأن السنة، ونصوصها في كتب التفسير قليلة وإن وجدت باقي التفاسير فتجد فيها الغث والثمين.

فكما سبق في مناهج المفسرين اختلفت -كما قلت- ولا سيما في الاتجاه العقدي. الاتجاه العقدي لا شك أنه له دورٌ كبيرٌ في التأليف، وفي تأليف التفاسير فالذي تشبع للسنة، وبآثار السلف وبمنهاج السلف، ظهر ذلك في مصنفه، والذي تشبع بعلم الكلام، وبالقضايا الكلامية؛ ظهر ذلك في مصنفه. والذي تشبع بالتصوف ظهر ذلك في كتابه، والذي تشبع بالتشييع ظهر ذلك في كتابه، والذي تشبع بالاعتزال ظهر ذلك في كتابه.

وهكذا تجد الأثر العقدي في كتب التفسير واضحًا، فاخترت من كتاب (المفسرون) نماذج في باب الأسماء والصفات من الذين سلكوا طريقَ السلف،

ومنهج السلف، ونماذج من الذين أولوا الصفات، وسلكوا طريقة الخلف فإن شاء الله نبدأ بذكر نماذج من الأسماء والتفاسير حتى نحاول أن نطبق القواعد التي ذكرناها في القسم الأول، لَّما ذكرنا تاريخ السلف، وبفضائلهم، ومناقبهم ذكرنا قواعدهم في باب الأسماء والصفات.

فهذا القسم الثالث هو تطبيق للقسم الأول، الذي فيه قواعد السلف؛ فذكر ما نسميه قواعد نظرية وهذه الكتب نماذج تطبيقية للقواعد نظرية التي سبقت.

الإمام ابن جرير الطبري:

نبدأ بالإمام ابن جرير رحمه الله فلعل هذا المؤلف هو من أقدم من أَلَّفَ في التفسير، ولعل أقدم مؤلف الآن في التفسير هو تفسير الإمام ابن جرير لأنه عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع؛ لأنه توفي سنة ثلاثمائة وعشر.

الإمام ابن جرير الطبري هذا الإمام في الحقيقة تضلع في علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وسلك طريقًا كان موفقًا فيه رحمه الله جمع في تفسيره جمعًا هائلًا كبيرًا هذا الكتاب الذي يرجع إليه تحيا فيه طريقة السلف؛ لأن هذا الكتاب ليس فيه إلا أقوالُ الصحابة والتابعين، والنصوص الحديثة التي يسوقها المؤلف، وهو يروي بسنده رحمه الله في التفسيرِ فهو يصدر الآية بمقدمة، يوضح فيها الآية توضيحًا، ثم يذكر الأقوال في الآية المختلفة يعني يكون اختلافَ تنوع. وأحيانًا كان يمكن أن يكون اختلافَ تباين وتضاد.

ومن ميزاته: أنه يرجح، أي: لا يسوق الخلاف، ويتركه بدون توضيح فهو رحمه الله يرجح للطالب لكن هذا التفصيل يحتاج إلى متخصصٍ في السنة حتى يعرف الأسانيد التي يسوق بها ابن جرير في تفسيره.

الشيخ شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ حقق من الجملة كبيرة إلى سورة إبراهيم وقد طبع، وإن كانت هوامشه واسعة، وثقيلة على كثير من القراء.

والمهم: أن قد حقق بتحقيقات طيبة فابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ فيه الغث، وفيه الثمين، لكن هو في الجملة هو مصدر للمفسرين الذين جاءوا بعده؛ ولا سيما الحافظ ابن كثير؛ فقد اعتمد عليه اعتمادًا كُليًّا في نقل أقوالِ السلفِ، وابن كثير هو لا يقلد الطبري في أقواله ولا في ترجيحاته، بل كثيرًا ما يوافقهُ، وكثيرًا ما يخالفه، ويبين وجهَ المخالفة له في ذلك.

فالمهم: أن الطبري يضمُّ مادةً علمية واسعة في الآثار في أقوال السلف يعتبر من أهم المصادر التفسيرية التي ينبغي أن يُهتم بها في هذا الموضع الذي فيه التفسير. إن الذي يهمنا من أيِّ مفسرٍ هو عقيدته في باب الأسماء والصفات هذا الذي ركزنا عليه في هذا الكتاب. وفي هذه المادة على الخصوص التي نحاول توضيحها، وذكر رءوس المسائل فيها لأنها مادةٌ واسعةٌ ومهمة.

فعلى المسلم أن يستوعبها إن استطاع، وإن أمكن له ذلك فإن فيها من العلوم الكثير، ويكفي للذي يهتم بها أنها يتخلص من شبهات المشبهين الذين عاشوا عصورهم على هذه الشبه، وكرسوا جهودهم لنصرة هذه الشبه، كما سبق في الأصول التي ذكرنا، والتي ذكرها القاضي عياض ما كان عليه هؤلاء من شبه، ومن انحراف ومن ضياع، ومن ضلال، وهو عبر عن ذلك من قبل الآمدي، وكما قال الرازي.

وكما قال غيرهم:

نهاية إقدام العقول عقالُ ❖ وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ❖ وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ❖ سوى أن جمعنا فيه قيل وقالُ

فإذا كان نهاية إقدام العقول وهو عِقَال، فهذه مصيبة، ويصرف الإنسان أعمار وأيام، وأذهان وجهود، ومجهودات، وفي الآخر تبين له أنه أفنى عمُرَهُ في الشبهات، وفي نصرتها، هذا الذي حصل لمعظم علماء الكلام.

وقد ذكروا تراجعهم وتوبتهم، الرازي، والغزالي، وغيرهم، والآمدي والجويني أبو عبد المالك، وغيرهم مِمَّن تراجع عن عقيدتِهِ فهم كثير.

فكتب الرازي منتشرة، وكتب الغزالي منتشرة، وغيرهم من الذين كانت لهم هذه الاتجاهات الباطلة في باب المعتقد، انتشرت، واعتمدها الناس ونقلوا منها، ودافعوا عنها، وحسبوها حقًّا وهي في واقع الأمر لا حقَّ فيها، ولا خير فيها.

الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ يعني له كتاب في عقيدة أهل السنة والجماعة سماه (صريح السنة) ذكره ابن تيمية، وهو يستشهد ببعض ما فيه، فقال في بداية النقل: وكما ذكره أبو جعفر الطبري في الجزء الذي سماه (صريح السنة) وأخذ منه اعتقاده الحافظ اللاكائي، فذكر بسندِهِ إليه، إلى أن قال: قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: فأول من نبدأ به القول في ذلك كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وتنزيله؛ إذ كان من معاني توحيدِهِ؛ فالصواب من القول في ذلك عندنا أنه كلام الله عَزَّ وَجَلَّ غير مخلوق.

كيف كُتِبَ وكيفَ تُلِي، وفي أي موضعٍ قُرِئَ؟ في السماء وجد وفي الأرض حُفِظ، في اللوح المحفوظ كان مكتوبًا، وفي ألواح الصبيان الكتاتيب مرسومة إلى آخر ما ذكر في توصيفِهِ لكلامِ الله تعالى كلامًا نفيسًا؛ فالذي يحب أن يرجعَ إلى الكتاب فهو كتاب مطبوع موجود، ولعلي أخذتُ بعض الفقرات؛ لأن قراءةَ كل ما كتب يأخذ بالوقت، وليس عندنا من الوقت ما يمكننا لذلك.

فذكر في هذا الكتاب أي (صريح السنة) بعض رءوس المعتقد، وبَيَّنَ منهجَهُ فيه، مع عقيدته في التفسير فهو في الحلول لا يجارى. نَصَرَ مذهبَ السلف، واحتج له، ودفع عنه في غير ما صفة؛ ولا سيما في صفة اليد، والرؤية، والاستواء، وقَلَّ تأويلُ الصفات في تفسيره كما وقع في صفة الغضب، وفي صفة الحياء عن بعض أهل العربية.

المهم: الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ وكثيرٌ من المفسرين قد تقع لهم بعض الهفوات في بعض الصفات، لكن نعتمد في كتابنا هذا (المفسرون) يعني الغالب المفسر الذي غلب عليه، بل وقع في هفوات، كما هو حاصل في كثير من المفسرين؛ فنغض عنه الطرف، ونعتمد المنهج العام للمفسر؛ لأنك إذا أردت أن تأخذ بكل في كل خطأ أخطأه المفسر قد لا يسلم لك أحد.

فلهذا نمشي على الغالب في باب الأسماء والصفات في المنهج السلفي؛ فابن جرير في باب الأسماء والصفات؛ الغالب عليه الإثبات، وقد يقعُ في كلامُهُ بعض التأويل، لكنه بالنسبة لمنهجه العام فهو قليل.

يمكن أن نأخذ من تفسيرِهِ أحدَ الصفات، فنقرأها كاملةً حتى يُعلم أن ابن جرير من المدافعين عن عقيدة السلف، وعلى المثبتين لعقيدة السلف -رحمه الله تعالى، فنأخذ مثلًا صفةَ اليد ونقرأها من (تفسير الإمام ابن جرير).

لقد ذكر الإمَام ابن جرير في تفسيره: بحثًا نفيسًا في صفة اليد وذكر أقوال المؤولين، ورجح مذهبَ السلف، وهذا ما ذكره في كتابه بلفظه، قال عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ [المائدة: ٦٤] قال: وهذا خبر من الله -تعالى ذكره- عن جرأة اليهود على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفاته، توبيخًا لهم بذلك، وتعريفًا منهم

بنبيه ﷺ قديمَ جهلهم واغترارهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم، وكثرة صَفْحِهِ عنهم، وعفوِهِ لعظيم إجرامهم، واحتجاجًا للنبي محمد ﷺ بأنه له نبي مبعوث، ورسول مرسل إن كانت هذه الأنباء التي أنبأهم بها كانت من خفي علومهم، ومكنونها التي لا يعلمها إلا أحبارهم، وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود؛ فضلًا عن الأمة الأمية من العرب الذين لم يقرءوا كتابًا، ولا وعوا من علوم أهل الكتابِ علمًا، فأطلع الله على ذلك نبيه محمد ﷺ لِيُقَرَّرَ عندَهُم صدقه، ويقطع بذلك حجتهم.

يقول -تعالى ذكره-: وقالت اليهود من بني إسرائيل يد الله مغلولة، يعنون أن خير أن خيرَ الله مُمْسَك، وعطاءه محبوس عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى ذكره في تأديب نبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وإنما وصف -تعالى ذكره اليد- بذلك، والمعنى: العطاء؛ لأن عطاء الناس، وبذل معروفهم، الغالب بأيديهم، فيجري استعمال الناس في وصفِ بعضهم بعضًا إذا وصفوه بجودٍ وكرمٍ، أو ببخلٍ وشحٍّ، وضيقٍ؛ بإضافةِ ما كان من ذلك من صفةِ الموصوفِ إلى يديه فأضافَ ما كان صفة صاحب اليد من إنفاقٍ وإفادةٍ إلى اليد.

ومثل ذلك من كلام العرب في أشعارها، وأمثالها أكثر من أن يحصى، فخاطبهم الله بما يتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤] يعني بذلك إنهم قالوا: إن الله يبخل علينا، ويمنعنا فضله؛ فلا يفضل كالمغلولة يده، الذي لا يقدر أن يبسطها أن يبسطها بعطاء، ولا بذل معروف -تعالى الله عما قال أعداء الله- فقال الله، مُكذبهم ومخبِرُهم بسخطٍ عليهم: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤].

يقول: أمسكت أيديهم عن الخيرات، وقبضت عن البساط بالأعطيات، ولعنوا بما قالوا، وأبعدوا من رحمة الله وفضله، بالذي قالوا من الكفر، وافتروا على الله، ووصفوه به من الكذب والإفك ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] يقول: بل يداه مبسوطتان بالبذل، والإعطاء، وأرزاق عباده، وأقوات خلقِهِ؛ غير مغلولتين، ولا مقبوضتين، ينفق كيف يشاء.

واختلف أهل الجدل في تأويل قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] فقال بعضهم: عُنِي بذلك نعمتيه، وقال: نعمه عليهم، وقال: إن العرب تقول: لك عندي يد يعنون بذلك نعمة.

وقال آخرون منهم: عني بذلك القوة، وقالوا: ذلك نظير قوله -تعالى ذكره-: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥] وقال آخرون منهم: بل يداه مُلْكُه، وقال معنى قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] ملكه وخزائنه، قالوا: وذلك كقول العرب للملوك: هو ملك يمينه، وفلان بيده، عقدة النكاح، أي: فلان أي يملك ذلك.

وكقوله -تعالى ذكره-: ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢] وقال آخرون منهم: بل يد الله صفة من صفاته وهي يدٌ غير أنها ليست بجارحة كجوارح بني آدم، قالوا: وذلك أن الله -تعالى ذكره- أخبر عن خصوص آدم، بما خصه به من خلقه إياه بيده. قالوا: ولو كان معنى اليد النعمة، أو القوة، أو الملك ما كان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم؛ إذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته، ومشيئته في خلقه، نعمةً وهو لجميعهم مالك.

قالوا: وإذا كان -تعالى ذكره- قد خص آدم بذكره خلقِهِ إيَّاه بيدِهِ دون غيره من عباده كان معلومًا أنه إنما خصه بذلك لمعنى به فَارَقَ غيره من سائر الخلق، قالوا:

وإذا كان ذلك كذلك بطل قول من قال: معنى اليد من الله القوة، أو النعمة أو الملك في هذا الموضوع، قالوا: وأحرى أن ذلك لو كان كما قال الزاعمون: إن يد الله في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] هي نعمة، لقيل: بل يده مبسوطة، ولم يقل: بل يداه؛ لأن نعمة الله لا تحصى، وبذلك جاء التنزيل يقول تعالى ذكره ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قالوا: ولو كانت نعمتين كانتا مُحْصَاتَيْنِ، قالوا: فإن ظنَّ ظانٌّ أن النعمة بمعنى النعم الكثيرة، فذلك منه خطأ، وذلك أن العرب قد تخرج الجميع بلفظ الواحد، لأداء الواحد عن جميع جنسه، وذلك كقول الله -تعالى ذكره-: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] وكقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الحجر: ٢٦] وكقوله ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

قال: فلم يرد بالإنسان والكافر في هذه الأماكن إنسانًا بعينه، ولا كافرًا مشارًا إليه، حظرًا، بل عني به جميع الإنسان، وجميع الكفار، ولكن الواحد أدَّاه عن جنسه، كما تقول العرب: ما أكثر الدرهم في أيدي الناس، وكذلك قوله: وكالكافر معناه، وكان الذين كفروا قالوا: فأما إذا ثني الاسم؛ فلا يؤدي عن الجنس، ولا يؤدي إلا عن اثنين بأيهما دون الجمع، ودون غيره.

قالوا: وخَطَر في كلام العرب أن يقال: ما أكثر الدرهمين في أيدي الناس، بمعنى: ما أكثر الدراهم في أيديهم، قالوا: وذلك أن الدراهم إذا ثُنِّيَ لا يؤدي في كلامها إلا عن اثنين من أيهما، قالوا: وغير محالٍ ما أكثر الدرهم في أيدي الناس، وما أكثر الدراهم في أيديهم؛ لأن الواحد يؤدي عن الجميع، قالوا: ففي قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] مع إعلامِهِ عبادَهُ: أن نعمَهُ لا تُحْصَى، مع ما وصفنا من أنه غيرُ معقولٍ في كلامِ العربِ: أن اثنين يؤديان عن

الجميع، ما ينبئ عن خطأ قول من قال: معنى اليد في هذا الموضع النعمة، وصحة قول من قال: إن يد الله هي له صفة، قالوا: بذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ وقال به العلماء، وأهل التأويل.

الملاحظ في هذا المقطع أن ابن جرير رحمه الله يرجح الصفة، ويرد الأقوالَ التي جاءت في اليد: أنها النعمة، أو أنها القدرة، وبَينَّ بالأدلة اللغوية أن هذه التثنية الموجودة في الآية، يعني مما يدل على الصفة، ولا يدل على النعمة؛ لأن لا يمكن أن تثنى النعمة بنعمتين، فنعم الله كثيرة، واستدل بالآية: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ولو ذكر بلفظ الإفراد لأدت إلى الجنس، واستدل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢] ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٥] فالمهم: الإمام ابن جرير رحمه الله في تقرير صفة اليد يعطينا أنه على منهج السلف: أنه يثبت الصفة، وأنه يدافع عن ذلك. وهذا الذي ذكره ابن جرير في هذا المبحث هو الذي اعتمده العلامة ابن القيم والعلامة ابن تيمية في إثباتهم صفة اليد.

تفسير باب الأسماء والصفات عند أبو المظفر السمعاني، الإمام البغوي، الشيخ الصديق حسن خان

١- أبو المظفر السمعاني:

أبو المظفر السمعاني تفسيره قد طبع وانتشر، وأبو المظفر السمعاني من أئمة السلف له كتاب كبير اسمه (الانتصار لأهل الحديث) نقل منه السيوطي في (أصول المنطق) مقطعًا كبيرًا جميلًا جدًّا، ونقل منه أيضا العلامة ابن القيم في (الصواعق في أخبار الآحاد) نقلًا جميلًا في تأييد مذهب أهل الحديث.

ولا بأس أن نذكر ما ذكره الذهبي في (سير أعلام النبلاء) نقلًا عن عبد الغافر في (تاريخه) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو اسمه منصور بن محمد أبو مظفر السمعاني، ينتهي نسبه إلى قبيلة تميم العربية، ولد في مدينة مرو بخرسان في سنة ٤٢٦ وتوفي سنة أربعمائة وتسعة وثمانين، أي: في القرن الخامس

قال الذهبي: هو وحيد عصره في وقته فضلًا وطريقة، وزهدًا وورعًا، من بيتِ العلمِ والزهدِ، تفقَّهَ بأبيهِ، وَصَارَ من فحول أهل النظر، وأخذ يطالع كتبَ الحديث، وحجَّ ورجعَ، وترك طريقته التي نَاظَرَ عليها ثلاثين سنة، وتحول شافعيًّا، وأظهر ذلك في سنة ثمانٍ وستين، فاضطرب أهل مرو، وتشوش العوام، حتى وردت الكتب من الأمير ببلخ في شأنه، والتشديد عليه، فخرج من مرو، ورافقه ذو المجدين أبو القاسم الموسوي، وطائفة من الأصحاب، وفي خدمته عدةٌ من الفقهاء، فصار إلى طوس، وقصد نيسابور، فاستقبله الأصحاب استقبالًا عظيمًا.

وقال الذهبي: تعصب لأهل الحديث، والسنة والجماعة، وكان شوكًا في أعين المخالفين، وحجةً لأهل السنة.

وذكر حفيده أبو سعد السمعاني في (الأنساب) وجدنا الإمام أبو المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني إمام عصره بلا مدافع، وعديم النظير في فنه ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه. ومن طالع تصانيفه و انصف؛ عرف محله من العلم.

صنف التفسير الحسن المليح الذي استحسنه كل من طالعه، وأمَّ المجالس في الحديث، وتكلم على كل حديث بكلمات مفيد وصنف التصانيف في الحديث مثل: (منهاج السنة) و(الانتصار) و(الرد على القدرية) وغيرها.

المهم: من هذا الترجمة نرى: أن هذا الإمام السمعاني أبو المظفر كان على علم واسع، وعلى مكانةٍ كبيرةٍ في بني أمته، وما سمعتم في العناية به، ومتابعة تلامذته له من مكان إلى مكان.

وأما عقيدة أبو المظفر: فهي عقيدة السلف الصالح، ومما يدل على ذلك ما ذكره أبو سعد السمعاني عنه، وعن أخيه أبي القاسم عليه في (الأنساب) قال: ولما انتقل أخوه جدنا الإمام أبو المظفر من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي -رحمهما الله- هاجره أخوه أبو القاسم، وأظهر الكراهية، وقال: خالفت مذهب الوالد، وانتقلت عن مذهبه، فكتب كتابًا إلى أخيه، وقال: ما تركت المذهب الذي كان عليه والدي رحمه الله في الأصول بل انتقلت عن مذهب القدرية؛ فإن أهل مرو صاروا في أصول اعتقادهم إلى رأي أهل القدر.

وصنف كتابًا يزيد على العشرين جزء في الرد على القدرية، ويدل أيضًا على عقيدته السلفية كتابه التفسير من خلال دراسة موقفه من آيات الصفات.

وقال ابن كثير في (البداية) وسئل عن أخبار الصفات، فقال: عليكم بدين العجائز، وصبيان الكتاتيب، وسئل عن الاستواء فأجاب بأن ما قاله السلف؛ فنأخذ من من ذلك الاستواء من تفسيره حتى يكون نموذجًا من تفسير السمعاني، كما أخذنا نموذجًا من (تفسير الطبري) رحمه الله نأخذ الآن صفة الاستواء عند السمعاني قال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] أول المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا فيه:

قد استوى بشرٌ عَلَى العِرَاقِ ❖ من غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

هذا كله كلام السمعاني رحمه الله في تفسيره.

وأما أهل السنة: فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفةٌ للهِ تعالى بلا كَيْفٍ، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس وغيره من السلف أنهم قالوا في هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، أي: الكيف.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير سورة يونس قد بيَّنَّا مذهب أهل السنة في الاستواء وهو أنه نؤمن به، ونَكِلُ علمه إلى الله تعالى من غير تأويل، ولا تفسير. وأما المعتزلة: فإنهم أوَّلُوا الاستواءَ بالاستيلاء، وهو باطل عند أهل العربية.

حكي عن أحمد بن أبي دؤاد، وكان من رؤساء المعتزلة أنه قال لابن الأعرابي: أتعرف العرب الاستواء بمعنى الاستيلاء؟ فقال: لا. ويحكى: أن هذه المسألة جَرَتْ في مجلس المأمون فقل بشر المريسي: الاستواء بمعنى الاستيلاء، فقال له أبو السمراء: وهو رجل من أهل اللغة: أخطأت يا شيخ؛ فإن العرب لا تعرف الاستيلاء إلا بعد عجز سابق.

ابن أبي دؤاد كان من جلساء العباسيين الذين دعوا إلى فتنة القول بخلق القرآن، وكان يبحث عمن يسنده في هذه الفتنة؛ فسأل ابن الأعرابي فأجابه بالصواب، وأن العرب لا تعرف هذا المعنى في هذا السياق، الاستيلاء كونه بعد العجز. وقال في تفسير سورة طه: يعلم أن مخارج الاستواء في اللغة كثيرة، وقد يكون بمعنى العلو، وقد يكون بمعنى الاستقرار، وقد يكون بمعنى الاستيلاء على بُعْدٍ، وقد يكون بمعنى الإقبال.

والمذهب عند أهل السنة أنه يُؤْمَنُ به، ولا يكيف، وقد رووا عن جعفر بن عبد الله وبشر الخفاف قالا: كنا عند مالك فأتاه رجل وسأله عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك مليًّا و وعلاه الرحضاء، ثم

قال: الكيف غير معقول، والاستواء مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالًّا، ثم أمر به، فأخرج.

ونقل أهلُ الحديث عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك: أنهم قالوا في الآيات المتشابهة: أَمِرُّوهَا كما جاءت. وقال بعضهم: تأويله الإيمان به.

وأما تأويل الاستواء بالاستقبال: فهو تأويل المعتزلة. وذكر الزجاج والنحاس وجماعة من النحاة من أهل السنة: أنه لا يسمى الاستواء الاستيلاء في اللغةِ إلا إذا غلب غيره عليه، وهذا لا يجوز على الله تعالى. إذًا نلاحظ أن أبو المظفر السمعاني يدافع على مذهب السلف في باب الأسماء والصفات ويثبتها، وكلما جاءت كلمة فيها انحراف أجاب عنها كما سمعتم في هذا المقطع الذي قرنه في صفة الاستواء.

ونختار من كل مفسر هذا الاختيار حتى نثبت لكم بأنه -ولله الحمد- لا تزل طائفةٌ من أمة محمد ﷺ ظاهرين على الحق، ناصرين له، ينصرونه بكتبهم، وبتفاسيرهم وبألسنتهم، وبأشرطتهم، وبجهادهم في الدعوة إلى الله، وبمالهم، وبكل ما أتوا؛ فهذه هي الطائفة المنصورة التي تنصر منهج السلف.

٢- الإمام البغوي:

الإمام البغوي الذي عاش في القرن الخامس والسادس توفي سنة خمسمائة وعشرة، يكنى أبو محمد، اسمه الحسين بن مسعود، المعروف بالفراء البغوي، كان إمامًا في التفسير والحديث، وعلى طريقتنا في كتاب (المفسرون) نحاول أن نأتي بعقيدة الرجل من خلال تفسيره حتى يعلم أن الرجل على منهج السلف في

التفسير وفي غيره، وكما سبق هذا على طريق العموم، وقد توجد هناك بعض الإهانات أو بعض التأويلات، فلا ألتفت إليها لغلبة الإثبات عليه.

قلت: عقيدته في الأسماء والصفات، يعني ما هي عقيدته في الأسماء والصفات، قلت: الإمام البغوي سلفي في عقيدة الأسماء والصفات، يثبت لله ما أثبته لنفسه له مقدمة مفيدة في كتابه (شرح السنة) بين فيها عقيدة السلف في الأسماء والصفات، (شرح السنة) للبغوي هو مطبوع، وهو من أنفس الكتب الحديثية، وقد حقق والحمد لله.

قال رحمه الله في شرح الحديث: ((ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين)) حديث أخرجه أحمد، والإمام مسلم رحمهما الله، قال: والأصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل وكذلك كل ما جاء به الكتاب والسنة من هذا القبيل في صفات الله تعالى كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح، إذًا الأئمة دائمًا على طريقتهم الجميلة، وتأكيدهم على عقيدة السلف أنهم يسترسلون في ذكر بقية الصفات التي أولها المؤولة حتى يؤكد هذا المنهج المبارك في الإثبات.

وقال في شرح حديث ((ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير))، ثم ذكر حديث: ((لا تزال جهنم تلقى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه))، وفي رواية أبي هريرة: ((حتى يضع الله رجله فيها))، وفي حديث أبي هريرة في أخر من يخرج النار فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، وفي حديث جابر: ((فيتجلى لهم فيضحك))، وفي حديث أنس وغيره: ((إن الله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم يستيقظ على بعيره)) قال

رَحِمَهُ اللَّهُ: فهذه ونظائرها صفات لله تعالى، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، معرضًا فيها عن التأويل، مجتنبًا عن التشبيه، معتقدًا أن الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة تلقوها جميعًا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها لله عَزَّ وَجَلَّ كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الراسخين في العلم؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أخبار السلف في إثبات الصفات لله عَزَّ وَجَلَّ أيضًا نلاحظ أن البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ يؤصل لهذا المنهج المبارك، ويؤكد على إثبات الصفات وعدم المماثلة لله – تبارك وتعالى – في أي صفة من الصفات، وهذا كان في قرون سابقة، وتسلسل هذا المنهج ولله الحمد إلى يومنا هذا، لكن عرض عنه من أعرض وقبله من قبله، فنرجو الله أن يجعلنا على منهج السلف.

قلت: وأما تفسيره فالغالب عليه في الصفات الإثبات، وقد أول في بعضها تبعًا للثعلبي وسكت عن البعض، وأجمل في البعض، كما هو مبين في صفاته التي أثبتها.

إذًا هذا هو تقويم للصفات في تفسير البغوي، الغالب عليه الإثبات، فيه بعض التأويل، فيه بعض الإجمال، وسبق الحديث على هذا الموضوع.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في صفاته الإتيان والمجيء عند قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] قال: والأولى في هذه الآية وفي ما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها، أو يكيل علمها

إلى الله تعالى، أو يعتقد أن الله عز اسمه منزه عن سمات الحدوث على ذلك، مضت أئمة السلف وعلماء السنة على ذلك، قال الكلبي: هذا من المقسوم الذي لا يفسر، وكان مكحول الزهري، والأوزاعي، ومالك، وابن المبارك، وسفيان الثوري، والليثي بن سعد، وأحمد، وإسحاق يقولون فيه وفي أمثاله: أمروها كما جاءت بلا كيف، قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته، والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله.

إذًا القصد من هذا هو فهم المعنى، واعتقاده، وعدم البحث في الكيف، هذا الذي حذر منه السلف، الذي حذر منه مالك، وسفيان، والأوزاعي، وغيرهم من قالوا: أمروها كما جاءت، وقراءتها تفسيرها، يقصدون بذلك أن لا يسأل عن الكيف، ولا تكيف صفاته بأي نوع من أنواع التكييف، وقال عند قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]: بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه في يوم القيامة، إذًا أثبت الإمام البغوي صفات الإتيان بلا كيف.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢] المهم أن البغوي أثبت في الآية السابقة ما أثبته الله -تبارك وتعالى- لنفسه، إن قلت أنه الصواب ما أثبته الإمام البغوي في تفسير آية "البقرة" و"الأنعام" من إتيان ومجيء بلا كيف منزه عن سمات الحدوث والتشبيه بالمخلوقات، إذًا هذا هو منهجه في هذه الصفة التي ذكرت، والذي يريد أن يعرف ذلك يرجع إلى الكتاب بنفسه، ويرى ما ذكرت، ففيه إثبات، وفيه تأويل، وفيه إجمال، ونحن نغلب الإثبات إذا كان الكثير من الصفات والإثبات مع أن الرجل -كما سبق- له مقدمة في (شرح السنة) بيّن فيها عقيدة السلف في النصوص التي ساقها وبينها.

٣- الإمام ابن كثير:

الإمام ابن كثير الذي عاش في القرن الثامن، توفي في أربع وسبعين منها، ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ هو من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وصهره هو المزي صاحب (تهذيب الكمال)، فهي شجرة ذات غصون كلها تصب في المعتقد الصحيح -إن شاء الله.

فالإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تميز تفسيره بجمع مادة كبيرة حديثية لعله لم يسبق إليها فيما علمت، فأخذ ما عندي الطبري من الآثار ومن النصوص الحديثية، وزاد على ذلك أضعافًا من السنن، ومن المساند، ومن المعاجم، ومن كتب التفسير المسندة، كابن مردويه، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وغيرهم من أئمة التفسير، وابن أبي حاتم من الذين أسندوا، فكان تفسيره منتقى لكثير من كتب التفسير المسندة، ولكثير من كتب السنن، وتميز رَحِمَهُ اللهُ بالسند في تفسيره، وكتب الله له القبول فأخذ تفسيره بالقبول، وتناقلته الأجيال، وهو جدير بذلك، واختصر اختصارات كثيرة فيها ما هو محقق، وفيها ما هو مجرد اختصارًا، وتفسيره من المراجع الأساسية لطلاب العلم.

نقول: عقيدته في الأسماء والصفات على طريقتنا فيما سبق على أئمة التفسير السالفين، قلت: للحافظ ابن كثير رسالة قيمة سماها (العقائد) بين فيها عقيدته، قال ما لفظه: فإذا نطق الكتاب العزيز، ووردت الأخبار الصحيحة بإثبات السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعظمة، والمشي، أو الإرادة، والقول، والكلام، والرضا، والسخط، والحب، والبغض، والفرح، والضحك، وجب اعتقاد حقيقة ذلك من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المرغوبين المخلوقين، والانتهاء إلى ما قاله -سبحانه تعالى-

ورسوله ﷺ من غير إضافة، ولا زيادة عليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، ولا إزالة لفظ عما تعرفه العرب وتصرفه عليه، والإمساك عما سوى ذلك انتهى نقلًا عن علاقة الإثبات بالتفويض وبصفات رب العالمين.

إذًا هذا النص المنقول عنه فيما نسب إليه من عقيدة، فكلها -كما نلاحظ- كلمات سلفية وسطور سلفية في تأكيد هذا المنهج المبارك في إثبات المنزه عن التشبيه وعن التكييف.

وأما في التفسير فمعظم الصفات أثبتها ابن كثير، وبين فيها مذهب السلف، وبعضها فسرها تفسيرًا إجماليًّا، والقليل منها فسرها باللازم تبعًا لابن جرير في ذلك، فرحمة الله عليه رحمة واسعة، هذا هو تقويم تفسيره، وعقيدته في باب الأسماء والصفات.

فنأخذ كذلك مثلًا من تفسيره حتى نعلم ما هي طريقته في الصفات، نأخذ صفة الاستواء، قال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فقال: فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًّا، ليس هذا موضوع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث، وابن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المتشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيئًا من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبهه بخلقه كفر، ومن

جحد ووصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلاله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

إذًا الحافظ ابن كثير في صفة الاستواء في سورة "الأعراف" أصل أصلًا مهمًا، وأكد ما عليه السلف الصالح في هذا الباب، وما ذكره في هذه الصفة يجري على كل الصفات، ولو وقع ما وقع، يعني لو فرضنا أن الإنسان أصل أصولًا، وأحيانًا قد تقع له هفوة في تفسير، فيرجع به إلى الأصل، يعني هذا هو أصله، وكلامه في هذه الصفة واضح بأن مسلكه هو مذهب السلف كما ذكر، يعني: المسلك الذي سلكه هو مذهب السلف، وذكر أسماءهم -رحمهم الله جميعًا.

فالحافظ ابن كثير يثبت الصفات، وهذا نموذج كما سبق.

٤- الشيخ الصديق حسن خان:

الشيخ الصديق حسن البخاري، الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل الرابع عشر؛ لأنه توفي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة، هذه هي وفاته، لا بأس أن نقرأ ترجمته: الشيخ الصديق حسن بن علي البخاري القنوجي له كتب كثيرة تحمل صبغة سلفية إلا أن في بعضها ملاحظة ككتاب (التين الخالص)، (التين الخالص) فيه بعض الملاحظات في التوسل وغيره، وهذه هي الملاحظة، وله تأثر كبير بالإمام الشوكاني، وقد أكثر عليه من النقول في كتابه (فتح البيان) وغيره، بل ربما ينقل عباراته بلفظها مع عقيدته في الصفات في تفسيره فكثير ما يثبت مذهب السلف وينشره، ولكنه وقع في تأويل بعض الصفات كما في صفة الوجه، والرحمة، والغضب، والحياء، وغيرها، وذكرناه مع المفسرين السالفين

لأن الذي ترجح أن مذهبه السلفي في الصفات، وما وقع فيه من تأويل تبع فيه غيره، وقد ينقل لسانه في بعض الأحيان عبارة غيره ويسكت عنها، وكان الأجدر به والأحرى أن يتعقب الخطأ بإظهار الصواب كما هي طريقة المحققين، ولا سيما في هذا الباب، فإن ذكر الخطأ وإقراره ليس بالأمر السهل فالنصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم واجبة في حق كل مسلم، وقد قام بذلك رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر) ونحى فيه منحى السلف في إثبات جميع الصفات.

التفاسير السلفية في باب الأسماء والصفات (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تفسير باب الأسماء والصفات عند (محمد جمال الدين القاسمي - محمد رشيد رضا) ٢٦١
العنصر الثاني : تفسير باب الأسماء والصفات عند (الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي- الشيخ محمد الأمين الشنقيطي) ٢٧١

تفسير باب الأسماء والصفات عند (محمد جمال الدين القاسمي - محمد رشيد رضا)

١- محمد جمال الدين القاسمي:

المتوفى سنة ١٣٣٢.

قلت في ترجمته في كتاب (المفسرون): محمد جمال الدين القاسمي، من المصلحين الذين عاصروا تيارات مختلفة، وخصوصًا التيار الصوفي والأشعري، وقد استطاع أن يبرز فكره وعقيدته في كتبه، وخصوصًا في كتاب (محاسن التأويل).

وقد ذكره السيد محمد رشيد رضا صاحب (مجلة المنار): "هو علامة الشام، ونادرة الأيام، والمجدد لعلوم الإسلام، محيي السنة بالعلم والعمل، والتعليم والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقاء المدني الذي يقيضه الزمن".

هذه كلها صفات للشيخ القاسمي، كلها أوصاف تبجيل وتقدير، ونرجو الله - تبارك وتعالى- أن يجعلنا وإياه في سعة رحمته.

لا شك أن له كتاب (قواعد التحديث) كتاب طيب، وكذلك له (تاريخ الجهمية) فيه بعض الأخطاء، وكذلك حتى (قواعد التحديث) فيه بعض الأخطاء العقدية، أما كتابه الذي نحن نتكلم عليه الذي يسمى (محاسن التأويل) وهو التفسير، معظم نقوله في باب المعتقد على الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم رحمهما الله.

قلت في عنوان: عقيدته الأسماء والصفات: يعتبر تفسير القاسمي مصدرًا كبيرًا في التعبير عن العقيدة السلفية السهلة السمحة، جمع فيه من المباحث والأقوال ما لو جمع لكان مؤلفًا في مجلدات، ضم معظم بحوث شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، حتى أنه قد يضم في بعض الأحيان رسالة كاملة للشيخين، كما فعل في رسالة (المحكم والمتشابه) التي ذكرها في سورة آل عمران، ورسالته في المجاز التي ذكرها في مقدمة التفسير.

وفتواه في الكلام والاستواء وغير ذلك كان سلفيًّا في تفسير الصفات، يثلج الصدر ببحوثه القيمة، بما إذا قرأه المنصف والمحب للعقيدة السلفية يفرح بذلك.

نأخذ مثالًا من تفسير القاسمي في صفة اليد، عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] وهاهنا مباحث:

الأول: ما زعمه الزمخشري، ومن تابعه من أن إثبات اليد لا يصح حقيقة لله تعالى، فإنها نزعة كلامية اعتزالية.

هذا كله كلام القاسمي، قال الإمام ابن عبد البر في (شرح الموطأ): أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وجعلها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيها صفة محصورة، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة، كلها والخوارج، فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعم أن من أقر بها مشرك به، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيها ما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة العلماء.

هذا كلام ابن عبد البر، وهو في كتابي (فتح البر في الترتيب الفقهي لتهميد ابن عبد البر) في ما سميته كتاب التوحيد لابن تيمية. هذا الذي نقله القاسمي من (التهميد شرح الموطأ).

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب (إبطال التأويلات): لا يجوز إبطال هذه الأخبار، ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات لله لا تشبه سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها.

ثم قال: ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لتأويلها، ولا صرفها أو ظاهرها، ولو كان التأويل سائغًا لكانوا إليه أسبق؛ لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبه.

هذا كله منقول من كتب مختلفة عند هذه الآية من المفسر القاسمي.

وقال الإمام الأشعري -رحمه الله تعالى- في كتاب (الإبانة): باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين، وذكر الآيات في ذلك، ورد على المتأولين بكلام طويل، لا يتسع هذا الموضع لحكايته.

هذه هي العقيدة السلفية التي ختم بها أبو الحسن حياته، وهي آخر مؤلفاته وكتبه، ولكن الأشاعرة أبوا إلا مخالفتها ودفعها وإنكارها.

قال القاسمي من نقوله عن الأشعري: فإن سألنا: أتقولون لله يدان؟ قيل: نقول ذلك. هذا كلام الأشعري. فقد دل عليه قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن الله مسح ظهر آدم بيده، فاستخرج منه ذريته)).

وقد شاع في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: أن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده، وليس يجوز في لسان

العرب، ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة.

وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها ومجري في مفهومها في كلامها ومعقولًا في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل الرسالة أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني به النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ بمعنى النعمة.

وذكر كلامًا طويلًا في تقرير هذا ونحوه.

إذن النقل هذا المقطع كله من (الإبانة) لأبي الحسن الأشعري يستدل به المفسر القاسمي في إثبات صفة اليد.

وهذه الحجج التي استدل بها أبو الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المبطلين كلها واضحة، وأنه لا يجوز أن يكون في هذه الخطابات القرآنية اليد بمعنى النعمة، وبمعنى القدرة، وإنما يقصد بها الصفة، لأن الله تعالى كتب التوراة بيده، وخلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، فهذه خصوصيته، لا يقال غرسها بقدرته؛ خلقها بيده، الجميع خلق بقدرة الله، لكن آدم خص من بين هذه المخلوقات أن الله -تبارك وتعالى- خلقه بيده التي هي الصفة.

قال: وقال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب (الإبانة) له: فإن قال فما الدليل على أن لله وجهًا ويدًا قيل له: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥] فأثبت لنفسه وجهًا ويدًا.

هذا كله كلام الباقلاني، وهو من كبار الأشاعرة القدامى، الذين أثبتوا هذه الصفات.

فإن قال: فما نكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة، إن كنتم لا تعقلون وجهًا ويدًا إلا جارحة، قلنا: لا يجب هذا كما لا يجب إلا أن نعقل حيًّا عالمًا قادرًا إلا جسمًا، أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه.

يعني ما يهمنا: الباقلاني ينقل عنه القاسمي إثبات الصفة، ويدفع الشبه التي قد ترد على الإثبات، ويدلل بأدلة عقلية وشرعية على إثبات هذه الصفة.

وقال الشيخ تقي الدين -يقصد به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه- في (الرسالة المدنية) مذهب أهل الحديث، وهم السلف من القرون الثلاثة، ومن سلك سبيلهم من الخلف أن هذه الأحاديث تمر كما جاءت، ونؤمن بها، ونصدق، وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل وتكييف يفضي إلى تمثيل.

وقد أطلق غير واحد ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابي مذهب السلف أنها تجري على ظاهرها، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها، وذلك أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، تحتذي حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك الصفة إثبات وجود لا إثبات كيفية.

انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمة الله عليه-. وهذه طريقة الشيخ دائمًا في قضية عدم التفرقة بين إثبات الذات وإثبات الصفات، وأن الذي يثبت الذات يلزمه أن يثبت الصفات، والذي يثبت الأسماء يلزمه أن يثبت الصفات، والذي يثبت بعض الصفات يلزمه أن يثبت بقية الصفات، هذه طريقة الشيخ رحمه الله وطريقة الإمام ابن القيم في هذا الموضوع.

وقال القاسمي عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧] وفي قبضته

باليمين قال: مذهب السلف، وهو إثبات ذلك من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ولا إزالة اللفظ الكريم عما تعرفه العرب، وتحمله على الظاهر، ويكلون علمه إلى الله تعالى.

ويقر بأن تأويله إلى ما يؤول إليه من حقيقته، لا يعلمها إلا الله، وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح، فهذا هو الذي نقله القاسمي رحمه الله عن غيره وذكر فيه مذهب السلف، وذكر المذهب الآخر المخالف، لكن لا حاجة لذكره؛ لأن القاسمي رحمه الله مذهبه في الصفات كما سمعتم في نقوله، هي مذهب السلف الصالح -رضوان الله عليهم- فنكتفي بهذا النقل على القاسمي.

٢- محمد رشيد رضا:

توفي سنة ١٣٥٤.

هو الشيخ رشيد رضا من المدرسة التي تزعمت الإصلاح، وهو أحد رجالاتها الذين كان لهم الباع الطويل في خدمة منهجها، وقد ذكره أحمد أمين في كتابه (زعماء الإصلاح).

أحمد أمين له كتاب سماه (زعماء الإصلاح) ذكر فيه رضا، والشيخ ابن عبد الوهاب، وإن كان بعض الناس يرى أن أصحاب هذه المدرسة كان لهم مخالفات، هذه المخالفات التي وقعوا فيها هي قضية العقلانية.

فرشيد ذكر ظهر منه بعض الأمور في تفسيره ذهب فيها مذهب العقلانيين، لكن السمة العامة لرشيد هو الدفاع عن الإسلام، والدفاع عن التوحيد، والدفاع عن السنة، وما حصل منه من هفوات أو كبوات فنرجو الله -تعالى- أن يغفرها، لأن

الذي يقرأ تفسيره يجد فيه نفس الدفاع عن التوحيد وعن السنة، ولا سيما في سورة الأنعام تجده متجردًا للدفاع عن التوحيد.

فلعل الزلقات التي وقع فيها وقد يقع فيها، فهي مغمورة في حسناته الكثيرة، ولا سيما أنه عاش في عصر جاء فيه المستشرقون، وجاء فيه الحاقدون، وكان عصر التغريب؛ يعني دخل الغرب إلى بلاد الإسلام، وبالمقارنة بالجمود المذهبي والجمود العقدي الذي عاشته الأمة في ذلك العصر، فلعل هذه الأحوال، وهذه الوقائع، وهذا العصر هو الذي جعل رضا ومن كان على منهجه أن تكون عنده هذه الزلقات.

لكننا حسب قراءتي لكتابه (تفسير المنار) وهو أصل أسلوب لشيخه محمد عبده، ومحمد عبده لا شك أنه أشعري، وعنده رسالة (التوحيد) معروفة ومطبوعة، وهو يرد عليه في من خلال الآيات، فرد عليه كثيرًا على شيخه.

المهم هناك أمور كثيرة على الشيخ رشيد، وعلى شيخه محمد عبده، حتى في التنظيم العالمي، وفي غيره مما نسب إليهم، فالله أعلم بما قيل في هذا الموضوع، والذي يهمنا أنه في باب الأسماء والصفات على منهج السلف، ولهذا قلت: الذي يهمنا من شخصية الشيخ محمد رشيد رضا هو ما يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، أما ما وقع فيه من انحرافات في العقيدة عمومًا تبعًا لشيخه في ذلك، كإنكار نزول المسيح، وخروج الدجال، ومعجزات الرسول ﷺ غير القرآن والجن، وقتال الملائكة يوم بدر، فهذا شيء مسجل في كتاب (المنار).

الشيخ رشيد رضا اتصل بمحمد عبده، واقتنع بشخصيته ودعوته، وجعله مثالًا يقتدي به، وجعل فكره منبعًا لثقافته، لكنه استطاع التخلص مما كان عليه شيخه من العقيدة الأشعرية، فنراه كثيرًا ما يرد عليه.

وللشيخ محمد عبده رسالة سماها بالتوحيد من قرأها عرف عقيدته وتأثره بالعقيدة الأشعرية واقتناعه بها، وأظهر ذلك في تفسيره في آيات الصفات، كما يرى ذلك فيما أثبتناه في هذا البحث المبارك.

أما الشيخ رشيد رضا فقد أظهر مذهبًا سلفيًّا جيدًا فيما جمعه في تفسير المنار، وقد أثبت معظم الصفات على مذهب السلف الصالح، ودافع عنه، وإن كان يقع في التأويل في بعض الصفات، كتأويل صفة الإتيان والمجيء، وكما وقع له الخلق في صفة اليد، فهو يعتبر من الذين غلبت عليهم الصبغة السلفية، ومدحه للإمام القاسمي يدل على إعجابه بالمذهب السلفي، الذي نصره الإمام القاسمي.

المهم هذا البشر، وهذا طبعه، فالإنسان قاصر، قد يتأثر بمؤثرات من هنا ومن هنا، لكن الذي يغلب على الإنسان هو الذي ينبغي أن يحسب عليه، أما لو أردنا أن نتتبع الإنسان في أخطائه فقد لا يبقى لنا أحد. فأنا الذي سرت معه في هذه السلسلة سلسلة المفسرين هو أنني رأيته يثبت معظم الصفات.

فالآن نأخذ على سبيل المثال صفة الرحمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير البسملة: ما نقلناه عن شيخنا في معنى الرحمة -يعني هذا كلام شيخه الآن-: وهذه الأسماء المشتقة كل منها يدل على ذات الله -تعالى- وعلى الصفة التي اشتق منها معًا بالمطابقة، وعلى الذات وحدها أو الصفة بالتضامن، ولكل منهما لوازم تدل عليها بالالتزام، كدلالة الرحمن على الإحسان والإنعام، ودلالة الحاكم على الإتقان والنظام، ودلالة الرب على البعث والجزاء؛ لأن الرب الكامل لا يترك مربوبه سدى.

ومن عرف الأسماء الحسنى والصفات العليا عرف أن اسم الجلالة الأعظم الله يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكمالية، وعلى تنزهه على أضدادها السلبية،

فدل هذا الاسم الأعلى على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن جميع النقائص، فسبحان الله والحمد لله والله أكبر.

هذا كلام شيخه محمد عبده، قال رضا رحمه الله: تبع فيه متكلمي الأشاعرة والمعتزلة ومفسريهم -الآن يرد على شيخه- كالزمخشري والبيضاوي ذهولًا، ومحصله أن الرحمة ليست من صفات الذات أو صفات المعاني القائمة بذاته تعالى؛ لاستحالة معناها عليه، فيجب تأويلها بلازمها وهو الإحسان، فتكون من صفات الأفعال، كالخالق والرازق، وقال بعضهم: يمكن تأويلها بإرادة الإحسان، فترجع إلى صفة الإرادة، فتكون صفة مستقلة، وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدي السلف الصالح.

والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والإرادة والقدرة، وسائر ما يسميه الأشاعرة صفات المعاني، ويقولون: إنها صفة قائمة بذاته تعالى خلافًا للمعتزلة، فإن معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي، واستعمالها في البشر محال مع الله -تعالى- إذ العلم بحسب مدلوله اللغوي هو سورة المعلومات في الذهن التي استفادها من إدراك الحواس أو من فكر.

وهو بهذا المعنى محال على الله -تعالى- فإن علمه تعالى قديم بقدمه غير عرض منتزع من صور المعلومات، وكذلك يقال في سمعه تعالى وبصره، وقد عدوهما من صفات المعاني القائمة بنفسه، والرحمة مثلها في هذا.

قال الشيخ رشيد رحمه الله: فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له، ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات خلقه الثابتة عقلًا ونقلًا بقوله عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنقول: إن لله علمًا حقيقيًا، وهو وصف له، ولكنه لا يشبه علمنا، وإن له

سمعًا حقيقيًّا، وهو وصف له لا يشبه سمعنا، وإن له رحمة هي صفة لا تشبه رحمتنا التي هي انفعال النفس، وهكذا نقول في سائر صفاته تعالى، فنجمع بذلك بين النقل والعقل، وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وأن نجعل إطلاقها من المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا، فالرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها، فهو تحكم في صفة الله وإلحاد فيها، فإما أن تجعل كلها من باب الحقيقة مع الاعتراف بالعجز عن إدراك كونه هذه الحقيقة، والاكتفاء بالإيمان بمعنى الصفة العام مع التنزيه عن التشبيه، وإما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الألفاظ لصفة المخلوقين، فاستعملها الشرع في الصفات الإلهية المناسبة له، مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز.

الحقيقة هذا الكلام كله كلام طيب، لكن لما قال هنا في الأخير: وإما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الألفاظ لصفات المخلوقين، فاستعملها الشرع في الصفات الإلهية المناسبة لها مع العلم بعدم شبهها به من باب التجوز، فهذا الكلام فيه نظر، وكل ما ذكره من كلام في الرد على شيخه كلام متين، وكلام طيب، وهو واضح في منهجه السلفي، وهذا الذي ختم به، يعني قوله: أنها تجعل من باب المجاز اللغوي، وإما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الألفاظ لصفة المخلوقين، فاستعملها الشرع في الصفات الإلهية المناسبة لها، مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز، فهذا الكلام فيه نظر، ولعله من يعني متابعة الكلام فقط، وإلا فالكلام الأول كلام قوي وواضح في الإثبات، فلا نعول على هذه الخاتمة.

تفسير باب الأسماء والصفات عند (الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي- الشيخ محمد الأمين الشنقيطي)

١ – الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي :

هذا الإمام هو من الأئمة المعاصرين الفحول، وهو شيخ الشيخ محمد بن عثيمين -رحمهم الله جميعًا- وهو موسوعة، وتفسيره يعتبر من أحسن التفاسير المختصرة الخالية من شوائب التأويل، وشوائب الخرافات، والأساطير، فأنصح بقراءة تفسيره للناشئة، فإنه من أنفع التفاسير وأفضلها، وأضمنها للثواب -إن شاء الله- فهو مستفيد من ابن كثير ومن ابن جرير ويأخذ منهما ما يناسب المقام، فالحقيقة هو تفسير طيب.

قلت أنا: من أفاضل العلماء نجد البررة، هو أحدهم الذين ساروا في ركب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الذي أحيا الله به ما اندثر، وجعل عقيدة التوحيد ترجع إلى عصرها الأول عصر النبوة والصحابة، ولقد وفت هذه المنطقة لهذا المصلح الكبير بما ينبغي أن يوفي الأخيار لخيارهم، فلا تجد منهم قبوريًا، ولا مشركًا، ولا أشعريًّا، ولا ماتريديا، ولا صوفيًّا قبوريًا، وما يزالون إلى الآن يدافع عن هذه العقيدة المباركة بكل ما أوتوا، لا شك أن ديار نجد ديار خير، وأشرقت منها هذه الشمس، شمس التوحيد، وقمر السنة، والحقيقة إذا كان قول الرسول ﷺ: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)).

فلا شك أن أول ما يصدق على الحديث على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وعلى العلماء الذين تابعوه على دعوته، وما يزالون يكافحون ويدافعون إلى الآن، فالذي يشذ عن دعوة الشيخ أو يشك في دعوة الشيخ أو يتهم دعوة الشيخ

بأي شيء، فلا شك أن هذا في قلبه مرض، وهو من أهل النفاق، فما نقرأ في بعض الجرائد وما نسمع في بعض القنوات من تصريحات خطيرة على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أبناء تلك المنطقة فهذا لا شك أنه لؤم، والذين يتهمون دعوة الشيخ فهم في قلبهم مرض، ولا يريدون التوحيد، ولا السنة. أما العلمانيون المحترقون الذين تأثروا بالفكر الغربي المنحرف فهؤلاء لا كلام معهم في هذا الموضوع، فهؤلاء من الأصل هم حاقدون على الإسلام بالكلية فضلًا عن دعوة الشيخ دعوة التوحيد.

المهم أن الشيخ ناصر السعدي رحمه الله في باب الأسماء والصفات هو على مذهب السلف، وقلت: ونعود إلى صاحبنا، فقد قيل قديمًا: من جاء على أصله فلا سؤال عليه، فكما قدمت لا أشعرية، ولا جهمية، ولا اعتزال، ولا صوفية، فكل هذه طفيليات حاربها أهل نجد من قديم فدونك آيات الصفات في تفسير الشيخ تجد النور السلفي يتلألأ فيها.

فإن شاء الله نبدأ في قراءة نموذج من تفسيره على ما سبق في بقية التفاسير، فنقرأ صفات الإتيان والمجيء، قال عند قوله تعالى -أي: الشيخ السعدي رحمه الله-: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] قال: وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، وأخبر بها عنه رسوله ﷺ فيثبتون على وجه يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف خلافًا للمعطلة على اختلاف أنواع من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله

بها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله ورسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ظاهرها بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضي من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، والنافع له تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه قيل لهم: الكلام على الصفات لا تشبهها صفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجهٍ.

يقال أيضًا لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضًا، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله، وإما تنفي الجميع وتكون منكرًا لرب العالمين، وإما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبته وبين ما نفيته، ولن تجد إلى الفرق سبيلًا، فإن قلت: ما أثبته لا يقتضي تشبيهًا، قال لك أهل السنة والإثبات لما نفيته: لا يقتضي تشبيهًا، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه، قال: لكنه فاسد، ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه، فما أعجبت به النفاة أعجبك به أهل السنة لما نفيته.

المهم أن الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ يؤصل منهج السلف، ويتابع ذلك في كل تفسيره.

٢- الشيخ محمد الأمين الشنقيطي:

المتوفى سنة ١٣٩٣هـ:

قلت في ترجمته: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي من العلماء الأفاضل الذين منّ الله عليهم بالدخول في الاعتقاد السلفي، ونصرته بقلمه البارع، خلاف ما عليه أبناء جلدته في تعصبهم للعقيدة الأشعرية، والتعصب المذهبي المقوت، فقد بحث رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] بحثًا طويلًا في مسألة الصفات عمومًا، وعقد مقارنة جيدة بين صفة الخالق والمخلوق، وما بينهما من الفرق، وأن كل واحد من الخالق والمخلوق له صفة تليق به، فالخالق له صفات تليق بجلاله وعظمته وكماله، والمخلوق له صفات تليق بضعفه وعزه وكمال نقصانه.

نقلنا ذلك من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وبيّن فساد التقسيم الأشعري الذي قعده متأخرو الأشعرية للصفات من سلبية، ونفسية، ومعنوية، ومعاني، فرحمة الله عليه رحمة واسعة.

يعني الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله شيخنا أدركناه في الجامعة الإسلامية، وجالسناه ولله الحمد كثيرًا، وتلقينا دروسه في الجامعة الإسلامية، وفي المسجد النبوي، وهو شخص من خيرة العلماء الذين رأيتهم وعرفتهم.

وتفسيره يعرب عن منهجه وعن عقيدته، فكله دعوة إلى السنة، والإطاحة بكل البدع، والإطاحة بكل انحراف، فهو رحمه الله لا يشق له غبار في هذا الموضوع، فنرجو الله تعالى أن يرحمه رحمة واسعة.

قال رحمه الله الشيخ: هذه الآية الكريمة -الآية التي كنا جئنا بها- وأمثالها من آيات الصفات كقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، ونحو ذلك أشكلت على

كثير من الناس إشكالًا ضل بسببه خلق لا يحصى كثره، فصار قوم إلى التعطيل، وقوم إلى التشبيه، سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا عن ذلك كله، والله -جل وعلا- أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لُبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذلك أنه -جل وعلا- بيّن أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين؛ أحدهما: تنزيهه -جل وعلا- عن مشابهة الحوادث في صفاتهم ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا، والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسوله ﷺ الذي قال فيه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فمن نفى عن الله وصفًا أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله ﷺ زاعمًا أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله -جل وعلا- فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله مع تنزيهه -جل وعلا- عن مشابهة الخلق فهو مؤمن جامع بالإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق سالم من ورثة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا هي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى عن نفسه -جل وعلا- مماثلة الحوادث بقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال، والظاهر أن السر في بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ دون أن يقول مثلًا: وهو العلي العظيم، أو نحو ذلك من الصفات الجامعة أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه

تعالى وبين صفات خلقه؛ ولذا جاء بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ بعد قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، ففي هذه الآية الكريمة إيضاح الحق في آيات الصفات لا لُبس معه ولا شبهة ألبتة.

إذًا الذي يقرأ هذا الكلام وبقيته يجد أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤصل للمنهج السلفي في باب الأسماء والصفات، والذي يقرأ هذه المباحث وما قدمناه في كتب التفسير السلفي يقرأ التطبيق ويقرأ القواعد والأصول، الحقيقة كل ما سمعناه من قراءة لهذه الأمثلة من الصفات في هذه التفاسير نجد أن المفسر يؤصل لهذا المعتقد، ويذكر الطريقة التي يسلكها المسلم في عقيدته في باب الأسماء والصفات؛ فلهذا نحث على القراءة في هذه الكتب، والازدياد منها حتى يكون الطالب متشبعًا بالمنهج السلفي على طريقة السلف من هذه المصادر العلمية الراصنة الصحيحة.

فنأخذ مثال آخر للشيخ في صفة المعية؛ لأن هذا من الأمثلة التي نختارها من (أضواء البيان)، قال عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] هذا كلام الشيخ: ذكر الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه مع عباده المتقين المحسنين، وقد تقدم إيضاح معنى التقوى والإحسان، وهذه المعية خاصة بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وكقوله: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله: ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق، فهي بالإحاطة التامة، والعلم، ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته جل وعلا، فالكائنات في يده -جل وعلا- أصغر من حبة خردل، وهذه هي المذكورة أيضًا في آيات كثيرة كقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن

نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ .... ﴾ [المجادلة: ٧] الآية، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ... ﴾ [يونس: ٦١] الآية، إلى غير ذلك من الآيات، فهو -جل وعلا- مستوٍ على عرشه كما قال على الكيفية اللائقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه كلهم في قبضة يده لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

نلاحظ أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مبحث المعية يعني بحث سلفي مؤصل صافي واضح، فنرجو الله الرحمة والمغفرة، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

فنضيف إلى ذلك بصفة مختصرة لعلها غريبة في بعض الأذهان، وهي صفة التعجب، قال عند قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢] قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بالتاء المفتوحة، وهي تاء الخطاب، المخاطب بها النبي ﷺ وقرأ حمزة والكسائي: "بل عجبتُ" بضم التاء، وهي تاء المتكلم، وهو الله جل وعلا، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن القراءتين المختلفتين يُحكم لهما بحكم الآيتين، وبذلك تعلم أن هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات صفة التعجب لله تعالى، فهي إذًا من آيات الصفات على هذه القراءة، وقد أوضحنا طريق الحق التي هي مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها في سورة "الأعراف" في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فأغنى ذلك عن إعادتها هنا.

نماذج من التفاسير الخلفية في باب الأسماء والصفات (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول : نماذج تفاسير الخوارج الإباضية والشيعة والمعتزلة ٢٨١
العنصر الثاني : نماذج تفاسير الأشاعرة وغيرهم ٢٩١

نماذج تفاسير الخوارج الإباضية والشيعة والمعتزلة

أولًا: تفاسير الخوارج الإباضية: هود بن محكم الهواري:

القسم الرابع الذي هو التاريخ بالتفاسير الخلفية، والتي طبقت لمنهج القسم الثاني الذي هو الأصول الخلفية، هذا القسم هو الحديث على المفسرين الخلفيين هو يعتبر من حيث الكم أي: العدد، أي: عدد المفسرين الخلفيين هو أكبر عدد في الكتاب.

والمفسرون الخلفيون كما سبق في المفسرين السلفيين كل من غلب عليه في تفسيره التأويل، أو هو يدافع على هذا العصر في أحد كتبه، أو مناهجه، فإنني قد أدخلته في المفسرين الخلفيين أي: الذين يؤوّلون الصفات بالنسبة لهذا القسم هو يضم عدد من الاتجاهات العقائدية، فبدأت الاتجاه الإباضي، ثم الاتجاه الاعتزالي، ثم الاتجاه الشيعي، ثم الاتجاه الأشاعري، وفعلت ذلك ليعلم أن هذه الاتجاهات كلها ستتفق على هذا الأصل الذي هو تأويل الصفات، فإذن لا فرق في هذه التأويلات رغم توجهاتها رغم أنها تتوجه توجهًا عقديًّا مختلفًا، رغم ذلك أنها تتفق في التأويل، فلهذا قصدي في هذا أن التأويل دخل في كل الاتجاهات رغم تباينها في الاتجاهات الأخرى العقادية، فالإباضية نوع من الاتجاه مع الصحابة، وكثير من الأمور، وكذلك الشيعة لهم اتجاه مع الصحابة الإمامة أو غيرها، والمعتزلة لهم أصولهم منها التوحيد، كما سبق الذي هو التعطيل، والأشاعرة الذين هم تفرعوا على المعتزلة وعلى الماتريدية.

فهذا القسم الذي هو القسم الرابع يضمُّ هذه الاتجاهات كلها، فلهذا الاتجاه الإباضي:

الاتجاه الإباضي الآن هو موجود في الجزائر وفي تونس وفي ليبيا، ويوجد أيضاً في عمان، وله تواجد أيضًا في بعض البلاد الإفريقية، وبين بعض البلاد العربية، فهذا الاتجاه موجود وله علماؤه، وله مناهجه، وله المدافعين عنه، فنبدأ بشخص اسمه هود بن محكم الهواري.

ترجمته: هو هود بن محكم بن هود الهواري، وهوارة قبيلة من قبائل البرنيس البربرية توزعت بطون منها في عدة أماكن من إفريقيا والمغرب، أما وفاته فقد توفي سنة ثمانين ومائتين تقريبًا، أما تفسيره المسمى بـ(تفسير كتاب الله العزيز) فهو من التفاسير الإباضية، وقد طبع حديث من تحقيق الإباضي بالحاج بن سعيد الشريفي، وطريقته في التفسير أنه يذكر رأيه أولًا ثم يذكر الآراء الأخرى، ويعتمد كثيرًا على النقل والآثار؛ لأنه لا يدقق في روايته، ولا في سندها، بل كان كثيرًا ما يقول ذكروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما موقفه من الإسرائيليات فإن تفسيره لم يخلُ من الحكايات الغريبة والمخالفة لعصمة الأنبياء مثل ما ذكر عنده سليمان -عليهم السلام- من تنبيه على فساد ذلك.

إن كثيرًا من المفسرين وقعوا في هذه الأغلاط، وأنهم لا ينتبهون لجانب النبوة، فيذكرون قصة داود التي هي أشبه ما تكون بصنع اليهود الحاقدين على الإسلام، ومع ذلك يذكرونها كأنه من العلم وهي من الفساد، ومما ينبغي تطهير الكتب منه والتفاسير.

أما جانب العقيدة، فإنه موجود في باب الصفات على مذهب الإباضية يعني: كلهم متفقون على التأويل، نأخذ مثال من كتابه، قال عند قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]: قال بعض بالمفسرين: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي: بأمره، ﴿ فِي ظُلَلٖ مِّنَ

﴿ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي: الموت، وقال عند قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أي: بأمره، وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] أي: جاء أمر ربك إذًا التأويل في هذه الصفة واضح، وهكذا تجد المؤولين تتابعوا على هذا التأويل أي: أنهم صرفوا الآية عن ظاهرها بدون حجة ولا دليل وبعضهم يقلد بعض، هذا نموذج من تفسير الإباضية.

ثانيًا: تفاسير المعتزلة: الزمخشري:

المعتزلة لا شك أنه كما سبق في الحديث على تاريخ الخلفية أنهم من أكثر الناس شغبًا على أهل السنة، وأنهم أصل الأشاعرة والماتريدية في كثير من الطرحات الفكرية والخلاف الذي بينهم في كثير من الأمور هو خلاف شكلي فقط، وإلا النتيجة واحدة كما في صفة الكلام، فإن المعتزلة يقولون بأنه مخلوق وليس هو صفة لله، والأشاعرة يقولون بأنه كلام نفسي قديم، وإذا تتبعت أدلتهم تجد النتيجة واحدة كما سبق أن كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وهم مشاغبون في باب القدر، ومشاغبون في باب الصفات، ومشاغبون في باب التكفير كالخوارج، فالخوارج يكفرون بالمعصية وهم يقولون بأن العاصي في منزلة بين المنزلتين، ويشاغبون في الإمامة ما سمُّوا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويشاغبون في الوعيد.

ومع شخصية من شخصيات المعتزلة، وهو إمام في التأويل وإمام بقية المؤولة من الأشاعرة والماتريدية، وبعبارته استفاد كل من أول الصفات، وهو الزمخشري، كنيته أبو القاسم، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي، المتكلم

كبير المعتزلة، يُلقب جار الله؛ لأنه جاور بمكة زمانًا، وكان أصيب في أحد رجليه، وكان معه صك يحمله معه، وتوفي سنة ٥٣٨ عاش في القرن الخامس والسادس، يعني السادس.

قال ابن خلكان في (وفيات الأعيان): كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهر به حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحبًا له، واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن قال له: أبو القاسم المعتزلي بالباب، يعني: الزمخشري، كان يفتخر بهذا التلميذ، والإنسان قد ينقلب عنه الحق باطل، فيزين له كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

إن هذه المذاهب مذاهب باطلة، وهذا كله خروج عن الحق وعن أهل السنة والجماعة الذين هم امتداد للرسول ﷺ والصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وزين لهم الشيطان عملهم فصدهم عن السبيل، فتبنوا هذه المناهج الباطلة ونشروها، وألفوا لها كما فعل الزمخشري في (الكشاف) في هذا الكتاب الذي نتكلم عليه، وأول ما صنف كتابه (الكشاف) كتب استفتاح الخطبة الحمد لله الذي خلق القرآن فيقال: إنه لو قيل له متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس، ولا يرغب أحد فيه فغيَّره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن، وجعل عنده بمعنى خلق، والبحث في ذلك يطول.

كل الكلام لابن خلكان رحمه الله: ورأيت في كثير من النسخ الحمد لله الذي أنزل القرآن، وهذا إصلاح لا إصلاح المصنف، وهذا كل الكلام لابن خلكان، ولهذا حذر كثير من العلماء من كشافه، وانتقدوه فيه الحمد طيلة المدة الزمنية العلماء يكثفون جهودهم، ويسخرون علمهم ووسائلهم لمحاربة البدع ما سكتوا فيه يومًا من الأيام، لما ظهرت القدرية ظهر فيها محذرون وهاجروا المبتدعة وطردوهم،

وما تركوا وسيلة، والحكام في ذلك الوقت كانوا حكام لهم غيرة على المعتقد، فصلبوا من صلبوا، وقطعوا من قطعوا، وطردوا من طردوا ما تهاون العلماء ولا الحكام في هؤلاء المخالفين، لكن لما انقلبت الأمور وتبنَّى الحكام البدع في زمن بني العباس كما فعل المأمون كما سبق انتعش المبتدعة، ولما تولى أيضًا الفاطميون، وتولى البويون في الشرق، وتولى القرامطة، وتولى المعتزلة، وتولى الجهمية، وتولى الأشاعرة انتشرت هذه البدع بطريق القوة، وأن العلماء لم يألوا جهدًا في التحذير من هذه البدع، حذر الناس من (كشاف) الزمخشري عددًا هائلًا.

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مجموع الفتاوى): وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدع، يعني أصلًا هو ألّف هذا الكتاب لنشر هذه البدع، وكما ذكر أبو حيان في تفسيره في سورة "البقرة" على تأليف هذا الكتاب فانتصر فعل بدعة القدر وانتشر وانتصر فعل بدعة التكفير وانتصر فعل بدعة التعطيل وكل أصول دارت تجدها في هذا (الكشاف)، وحتى الأشاعرة يعني المخالفين للمعتزلة بذلوا جهودهم في التحذير من هذا الكتاب، وفي الرّدّ عليه فيما يخالفون فيه المعتزلة كابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحذّر من الكتاب ويقول: إنه محشوّ بالبدع، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفة والرؤية هذه الأمور متفقون فيها كما سبق مع الإباضية في كل مكان متفقون فيها مع الشيعة في كل مكان، هذه كلها تجدها في تفسير هؤلاء، والقول بخلق القرآن وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من الأصول المعتزلة وأصولهم خمسة يسمونها التوحيد والعدد، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعد أن ذكر أصول المعتزلة والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيهم، ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم

بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم، ولا في تفسيرهم وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسر به القرآن، إما دليلًا على قولهم، أو جوابًا على المعارضين. الملاحظة أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفصل هذه البدع عن الصحابة، وعن التابعين، وعن الأئمة، ويصورها، ويحبسها على المعتزلة، وأنهم هم الذين اخترعوا هذه البدع وليس لهم في ذلك سلف ولا موافق من أهل الحق، وإنما هم الذين أثروا هذه الفتنة في البدع وفي المعتقد.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن هؤلاء من يكونوا حسن العبارة، فصيح، ويدرس البدع في كلامه، لا ويدس البدع في كلامه يقصد الزمخشري، ومن كان على شاكلته، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب (الكشاف) ونحوه حتى إنه يروجه على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله.

وقد رأيته من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيره مما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها، ولا يهتدي لذلك، يعني: المفسرون بعضهم فيه تقليل، وبعضهم فيه تقصير، وبعضهم فيه جلب السنة وبالآثار، وبعضهم فيه جلب المعتقد، كما سنرى في هذه التفاسير، الجهل فيها كثير، والمفسرون غالبهم عندهم قصور في دراسات السنة والأثر، وما علمت في المتأخرين إلا الحق، فابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي مكَّن الله له في علمه من المتأخرين، أما غالب الآخرين فقلما تجد مفسرًا وعنايته بالسنة قليلة، والمقصرون في دراسة السنة هم الكثيرون، وقال الذهبي في (الميزان) صالح لكنه داعي إلى الاعتزال، أجارنا الله فكن حذر من كشافه، هذا الذهبي صاحب (الميزان) المتخصص المحدث المؤلف صاحب (الرجال) وصاحب (العلل)، وصاحب التصانيف يحذر

من (كشاف) الزمخشري، ويصف صاحبه بأنه داعيًا إلى الاعتزال، وقال: فكن حذرًا من كشافه رَحِمَهُ اللَّهُ ما قصروا في النصح في التحذير من الباطل وأهله.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في (اللسان الميزان): قال الإمام أبو محمد بن أبي جمرة في (صحيح البخاري) له ابن أبي جمرة له مختصر على (صحيح البخاري) من أنفس الشروح على صوفية فيه، لكن في شرحه من الفوائد العذب ما يستحق أن يدعى له بالرحمة والمغفرة رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الإمام أبو محمد بن أبي جمرة في (شرح البخاري) له: لما ذكر قوم من العلماء يغلطون في أمور كثيرة قالوا: ومنهم من يرى مطالعة كتاب الزمخشري، ويؤثره على غيره من السادة كابن عطية، ويسمى كتابه (الكشاف) تعظيمًا له، قال: والناظر في (الكشاف) إن كان عارفًا بدسائسه؛ فلا يحل له أن ينظر فيه؛ لأنه لا يأمن الغفلة، فتسبق إليه تلك الدسائس، وهو لا يشعر، أو يحمل الجهال بنظره فيه على تعظيمه، وأيضًا فهو مقدم مرجوح على راجح على راجح المقالة إن الذي يألفه من أن يصير سواسيًّا للمعتزلي، يعني: لا يمنع أن يكون مثله، وقد قال ﷺ: ((لا تقل للمنافق سيدًا فإن ذلك يسخطه الله)) وإن كان غير عارف بدسائسه، فلا يحل له النظر فيه؛ لأن تلك الدسائس تسبق إليه، وهو لا يشعر فيصير معتزلي مرجئًا، والله الموفق، يعني: هذا كلام ابن أبي جمرة رَحِمَهُ اللَّهُ في التحذير من الزمخشري ومن دسائسه ومن تعظيمه، وتعظيم كتابه. وكلامه في ذلك واضح.

نأخذ نموذجًا واحدًا من كشافه للتمثيل وانحرافه في باب معتقد الأسماء والصفات في تأويلها، ووصفها عن ظاهرها بغير دليل، وبغير حجة، نأخذ مثال من صفة الاستواء، قال عند قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: لما كان

الاستواء على العرش، وهو سرير عن الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقال: استوى فلان على العرش يريدون ملكه، وإن لم يقعد على السرير ألبتة، وقالوا أيضًا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه، وكان أشرح، وأبسط، وأدلّ على صورة الأمر ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة بمعنى: أنه جواد، أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأسًا قيل له فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم هو قولهم هو جواد.

ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أي: هو بخيل بل يداه مبسوطتان أي: هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام، بمعنى: أنه الآن هو يجعل الاستواء هنا كناية عن الملك؛ لأنه قال: وهو سرير المالك، مما يردف المُلك جعلوه كناية عن الملك بمعنى: أن ليس هناك استواء، وإنما هو كناية عن الملك، وكأن الله -تبارك وتعالى- قبل استوائه على العرش لم يكن عنده ملك السموات والأرض، فهو بعد الاستواء ملَكه، فهو كناية عن الملك أي: ملكه، واستوى على العرش، بمعنى كما قال في ذلك البيت:

استوى بشر على العراق ❖ ....

أي: ملك العراق هذه هي التأويلات التي نقلها غيره، ولا بأس أن نزيد أكثر إيضاحًا في صفة من الصفات.

قال عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] يعني: تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة، كقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ يعني: لا فوق فوقية علو، وإنما هي فوقية قهر والغلب والقدرة. إذًا هذه هي تأويلات الزمخشري، وقد بسطتها في المفسرين.

ثالثًا: تفاسير الشيعة: أبو علي الطبرسي:

الشيعة معروفون باتجاههم في الصحابة وفي الإمامة، وفي كثير من المخالفات التي خلفوا فيها، على سبيل المثال أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨، هو الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي الطواسي، الشيعي، أبو علي، مفسر مشارك في بعض العلوم أوضح منهجه الذي سار عليه في تفسيره فقال: وقدمت مطلع كل سورة ذكر مكيه ومدنيها، ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها إلى آخر ما ذكر في مقدمته والطبرسي تشيع على مذهبه، وانتصر له من خلال تفسيره فلم يغفل كل آية يتفق تأويلها له ومذهبه إلا وذكر في تفسيرها وتأويلها ما ينتصر به لعقيدة الشيعة، ومذهبه.

وسنذكر بعض الأمثلة فيما بعد لمعرفة كيف ينتصر أهل الباطل لباطلهم وأهل الضلال لضلالهم، وقد قال محمد بن حسين الذهبي رحمه الله: فغالب ما في كتب الإمامية الاثني عشرية في تأويل الآيات وتنزيلها في ظاهر القرآن وباطنهم استخفاف بالقرآن الكريم، ولعب بآيات الذكر الحكيم، وإن كان لهم في تأويل الآيات وتنزيلاتها أغلاط كثيرة فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جعل منهم؛ بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل، والكثير منها صدر عمدًا عن هوى ملتزم، وللشيعة أهواء -كما بينا- التزمت ذكر بعض عقائد الشيعة من خلال تفسير الطبري للنماذج، قال عند قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] ذكر في معنى الصراط أربعة وجوه:

وقال في الوجه الرابع: إنه النبي ﷺ والأئمة القائمون مقامه وهو المروي في أخبارنا، إذًا تفسير ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يعني: به الأئمة الإمامة والعصمة، قال عند قوله تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]

واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصومًا عن القبائح؛ لأن الله سبحانه نفى أن ينال عهده الذي هو الإمام غالب يعني: هذا من أصولهم وهو العصمة المهدية أي: المهدي، قال عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] ويدخلوا فيما رواه أصحابنا عن زمان غيبة المهدي عليه السلام ووقت خروجه الرجعة، قال عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٦] واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة، وقالوا من قال: إن الرجعة لا تجوز إلا في زمان النبي ﷺ لتكون معج ؛زة له ودلالة على نبوته الباطلة يعني: هذه هي أصول يقررها من خلال التفسير.

تقية: استدل على جوازها بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى جانب هذا فقد ذكر الطبرسي تأويلات كثيرة مخالفة لمذهب السلف كتعريفه للإمام، وتجويزه نكاح المتعة، وفرض المسح على الرجلين في الوضوء تبعًا لفقهاء مذهبه، وغير ذلك.

الذي يرد أن يخرج عقيدة الشيعة كاملة من تفسير الطبرسي يستطع، والذي يريد أن يخرج من أي كتاب من كتب الشيعة، بل (الكافي) الجزء الأول منه والثاني تستطيع أن تخرج منه تفسيرًا كاملًا إباضيين، كله من هذا النوع الذي نقلنا أمثلته من الطبرسي، فكتب التفسير التي ألفها الشيعة كلها من هذا الباب، فهم لهم اتجاههم ولأهل السنة اتجاه آخر في التفسير، أنتم لاحظتم ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، و﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] كل هذه تفسيرات يعني عجيبة يعني: تفسيرات باطنية ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أصل لها لا في الأثر، ولا في السنة، ولا في

الكتاب، ولا في اللغة، ولا في السياق، ولا في السباق، ولا في أيِّ نوع من أنواع التفاسير فنأخذ أمثلة أيضًا من التأويلات في الصفات.

قال الطبرسي: عند قوله تعالى: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] يعني: في صفة الغضب ومن غضب منه الله تعالى فهو من إرادة بإنزال العقاب مستحق بهم، ولعنهم براءة منهم، وأصل الغضب الشدة، ومنه الغضبة وهي الصخرة الصلبة الشديدة المركبة في الجبل والمغضوب الحية الخبيثة، والناقة العبوس. إذًا هي أول صفة الغضب قال في البسملة: واشتقاقه من الرحمة وهي النعمة.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [البقرة: ١٠٥]: روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن أبي جعفر الباقر أن المراد برحمته هنا النبوة، وبه قال الحسن وأبو علي وغيره من المفسرين، وقال: وقالوا يختص بالنبوة من يشاء من عباده، المهم في الأول يعني: القصد بالرحمة هي النعمة، أما الباقي فلا يهمنا كثيرًا.

نماذج تفاسير الأشاعرة وغيرهم

الآن مع تفاسير الأشاعرة والماتريدية وعددها كثير ثبتها أو ثبت أكثرها في كتاب المفسرون الذي بين يدي، وسنأخذ نماذج فقط من هؤلاء من الأشاعرة الماتريديين، ولا فرق بين مذهب الأشاعرة والماتريدية في هذا الباب، بل ولا فرق بينه وبين الذي سبق من الاتجاهات العقائديه الأخرى.

١- ابن الجوزي:

نبدأ بابن الجوزي لشهرته ولذيوع كتبه وكتابه (زاد المسير في علم التفسير) وهو الكتاب الذي سنأخذ منه إن شاء الله أمثلة ابن الجوزي: ابن الجوزي لا شك في إمامته وفي توسعه وفي شهرته لكنه في باب الأسماء والصفات والتأويل عنده مخالفته وتبع في تلك المخالفات شيخه ابن عقيل الحنبلي، وهم كلهم كانوا من الحنابلة والحنابلة معروفون باستقامتهم في باب الأسماء والصفات لكن بعضهم انحرف عن هذا المنهاج، ومنهم ابن الجوزي وشيخه ابن عقيل، وقد حذر منه العلماء، وردُّوا عليه ولم يتركوه؛ بل بالغوا في الرد عليه.

وسنذكر -إن شاء الله- مَن كتب له رسالة كاملة، وقد ذكرتها في المواقف العقائدية مواقف السلف في كتاب (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات) ذكرت تلك الرسالة بكاملها (رسالة العلثي) اسمه: أبو إسحاق بن محمد أبو الفضل العلثي هكذا نسبته، فنتكلم عن ترجمة ابن الجوزي هو الإمام ابن الجوزي من أعلام القرن السادس اشتهر شهرة فائقة ذهب بحديث الركبان في المشرق والمغرب، اشتهر بفصاحته وجودة خطابته، وقال: إنه كان يجتمع كان يجتمع في مجلسه لهدف وشارك في مكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة في مختلف الفنون، وله خبرة بالسير والحوادث والرجال، هذا كله مختصر.

أما عقيدتهم في الأسماء والصفات، فالذي حكى عنه أصحابه أصحاب مذهبه أنه كان مغتربًا فيثبت بعض الصفات، ويؤول بعضها قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية كما جاء في (المجموع): إن أبا الفرج أن أبا الفرج نفسه متناقض في هذا لم يثبت على قدم النفي، ولا على قدم الإثبات بل له من الكلام في الإثبات نظمًا ونثرًا ما أثبت به كثيرًا من الصفات التي أذكر في هذا المصنف، فهو في هذا الباب

مثل كثيرين من من الخائضين في هذا الباب من أنواع النثر يثبتونه تارة، وينفون أخرى في موضع كثيرة من الصفات كما هو حال أبي الوفاء بن عقيل، وأبي حامد الغزالي من (مجموع الفتاوي).

وجاء في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي، قال ابن رجب الحنبلي في ابن الجوزي: ما قام عن جماعة في مشايخ من أصحابنا وأئمتهم له في تأويل بعض كلامه، واشتدَّ نكيرهم عليه في ذلك، ولا ريب أن كلامه في ذلك مغترب مختلف، وهو إن كان مطلع على الحديث والآثار فلم يكن يحلّ شبه المتكلم، وبيان فساده، وكان معظم لأبي الوفاء بن عقيل متابع لأكثر ما يجده من كلامه، وإن كان قد ردَّ عليه في بعض المسائل، وكان ابن عقيل بارع في الكلام ولم يكن تام الخبرة بالحديث والأثر، فلهذا يغترب في هذا الباب وتتلون فيه آثاره، وأبو الفرج تابع له في هذا التأويل، إذًا بهذا الحال ابن الجوزي في باب الأسماء والصفات، فهؤلاء هم الأئمة يحذرنا منهم ويبين حاله وواقعه، فجزاهم الله خير هذا ابن تيمية.

وهذا ابن رجب يحذرون منه، وقال ابن قدامة كما في (ذيل طبقات الحنابلة): كان ابن الجوزي إمام عصره؛ إلا أننا لم نرتضِ تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها، والله المستعان، والذي يرجع إلى تفسيره يرى أن ابن الجوزي بين مذهب المؤول، ومذهب المفوض، وتراه في الاستواء يحكي إجماع السلف على قراءة الآية فقط، ولم يجد على ذلك، وتراه في باقي الصفات يؤول، وربما استدل لتأويله بما نقل عن الإمام أحمد في تأويله صفات الإتيان والمجيء، وسنبين إن شاء الله كذب ذلك نقلًا عن ابن تيمية في الكلام على القرطبي، ومما يدل على أنه كان لا يرى مذهب السلف في الإثبات ما ذكره في (صيد الخاطر) عن ابن عبد البر

قال: ولقد عجبت لرجل أندلسي يقال له ابن عبد البر صنف كتاب (التمهيد)، فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا، فقال: هذا يدل على أن الله تعالى على العرش؛ لأنه لولا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى، وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل؛ لأن هذا استسلاف من حيث ما يعرفه من نزول الإسلام، فقاس صفة الحق عليه يعني: هكذا يلمز ابن عبد البر الإمام الحافظ الجهبز في تفصيلاته العلمية العجيبة التي تميز بها.

ولعله ما سبق بما كتبه في كتبه فهو الذي تشبه به حديث السنة وبالآثار، وبالمنهج السلفي، فلا تفوته فرصة إلا وينصر فيه السنة، ويدافع عنها في كل كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكتبه كلها من هذا.

والخلاصة: إن ابن الجوزي يميل إلى التأويل ويرى أنه من أئمته الأشاعرة فينصر مذهبه كما هو واضح في تفسيره، ولإسحاق بن محمد أبو الفضل العلثي رسالة قيمة بعث لها لابن الجوزي يبين له فيها انحرافاته وترابه في تأويل الصفات وقد نقلنا من (طبقات الحنابلة) في كتابنا (العقيدة السلفية)؛ لأن هذا العلثي له موقف من الجوزي في الدفاع عن السنة فسجلته هناك فمن شاء رجع إليه وقرأه.

نأخذ مثال من تأويلاته يعني: لندلل على ذلك، قال في صفة اليد عند قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤]. قال الزجاج: وقد ذهب قوم إلى أن معنى يد الله نعمته، وهذا خطر ينقضه، بل يداه مبسوطتان فيكون المعنى على قولهم ونعم الله أكثر من أن تحصى.

والمراد بقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ أنه جواد ينفق كيف يشاء، وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنباري أي: بمعنى أنها كناية عن الجود والكرم، لكنه لا يقتضي يعني

تفسيرها بالنعمة يعني: مباشرة لكنه ذهب إلى معه أكثر من ذلك ؛ فالشاهد أنه يؤول.

٢–عبد الحق بن عطية الأندلسي:

هذا الإمام كان إمامًا في اللغة وفي الفقه، وهو تولى القضاء زمانًا طويلًا، حتى كان يلقب بالقاضي، قال القاضي، وهو أيضًا سلك مسلك المتكلمين في تفسيره، وأصبح مصدرًا كبيرًا لكثير من المفسرين الذين جاءوا بعده، وكتابه في التفسير قد طبع في عدة أمكنة، وهو الآن متوفّر وموجود، اسمه (محرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، نعرج على ترجمته، ونقف عند كل ما يستحق الوقوف.

ترجمته: أبو محمد بن الحق بن عطية الأندلسي الغرناطي، من مشاهير علماء القرن السادس في الأندلس، امتهن مهنة القضاء زمنًا طويلًا، بل أصبح يلقب بالقاضي، اشتهر بفصاحته ودقة عبارته، له خبرة بعلم الكلام وفنياته، اتخذه المتأخرون مصدرًا للنقل من تفسيره إلى تفاسيرهم، وقد ضمّ أبو عبد الله القرطبي معظم تفسيره، كما سيأتي الكلام عليه.

بالكثير ما ينقل عبارته، ضع الزمخشري في الشهرة بالنسبة إلى تفاسير الأشاعرة، ذكره ابن تيمية في بعض فتاويه فقال: "وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة تفسير الزمخشري".

إذًا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يرجح تفسير ابن عطية على تفسير الزمخشري، من حيث إن تفسير الزمخشري أوسع في باب البدع، وهذا أتبع للسنة، كما قال الشيخ.

ولو ذكرَ كلام السلف الموجود في التفاسير والمأثور عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنهم كثيرًا ما ينقلون من تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجل

التفاسير وأعظمها قدرًا، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يُعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفاسير على المذهب.

إذًا ابن تيمية رحمه الله أخذنا منه فكرة على تفسير ابن عطية، وأن تفسير ابن عطية يعدل فيه صاحبه عن ذكر الأثر والسلفية والأحاديث النبوية إلى أصول أهل الكلام وإلى تخريجاتهم، وأشبه ما تكون هذه الطرق بطرق المعتزلة، كما قال الشيخ.

وعلم الكلام غالبه في سياق واحد لا يفترق؛ لأنه -أصلًا- أصول علم الكلام من خارج الإسلام وليست مأخوذة من الكتاب والسنة، إنما هي أخذت من ترجمات المأمون لكتب النصرانية واليهودية واليونانية وغيرها من الكتب، والباطل التي دخلت على الإسلام، هذا وسبق ما ذكرناه من أسانيد الجهم عن الجعد عن أبان عن طالوت عن لبيد اليهودي، هذه أسانيد مبتدعة -والعياذ بالله- نسأل الله العافية.

قلت: فهذه كلمة خبير بالتفسير وأصوله ومؤلفات التفسير وأنواعه، يعني الإمام ابن تيمية رحمه الله.

وأما عقيدته في التفسير في الصفات: فأبو محمد بن عطية عبد الحق مؤول أشعري يدافع عن التأويل الأشعري بما يراه ويسميه تحقيق.

إذًا هذه نظرة موجزة على ابن عطية وكتابه في التفسير (المحرر الوجيز).

نأخذ مثالًا من كتابه التفسير؛ حتى نضع الأصابع على تأويلات ابن عطية كفعلنا مع كل مفسر مخالف أو موافق لما سبق؛ لأن بالمثال يتضح المقال كما يقولون دائمًا، فلا مزايدة ولا مناقصة.

ابن عطية قال عند قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]: "واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافًا إلى الله تعالى في مواضع من القرآن، فقال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب".

إذًا كلما جاءت صفة الوجه يعبر عنها بالوجود كتفسيرهم بالذات؛ إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدرًا.

وقال: لأن تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى، وضعّف أبو المعالي هذا القول، ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية خاصة أن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه، كما تقول: تصدقت لوجه الله تعالى، ويتجه في هذه الآية خاصة أن يراد بالوجه الجهة التي وجهنا إليها في القبلة، حسبما يأتي في أحد الأقوال، وقال أبو منصور في (المقنع): يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه، كما تقول: فلان وجه القوم؛ أي: موضع شرفهم، فالتقدير: فثم جلال الله وعظمته.

واسترسل ابن عطية رحمه الله في هذا الموضع، وقال عند قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، قال: والوجه عبارة عن الذات؛ لأن الجارحة منفيةٌ في حق الله تعالى، وهذا كما تقول: هذا وجه القوم والأمر؛ أي: حقيقته وذاته.

هكذا يؤول الصفة ابن عطية ويصرفها عن معناها الحقيقي إلى معنى يتخيله كغيره ممن أوّل الصفات.

٣-الفخر الرازي:

المتوفى سنة ٦٠٦هـ:

الفخر الرازي: هذا أحد مفاخر الأشاعرة، وعقدها الذي انطلقت منه الأشعرية وتجددت في أصولها الكلامية، وهو استفاد من الغزالي الذي سبقه، واستفاد من ابن العربي الذي سبقه، وستسمعون من قراءة ترجمته والحديث عنها أنه رجلٌ ندم على ما كتب، وتبرّأ منه في آخر عمره، وهو الذي -كما سبق- شهّر التأويل ودافع عنه، وتعارض العقل والنقل، وجعل كتبه الكلامية ينبني على هذا الأصل، التي نتج عنها اطراح الكتاب والسنة وعدم صلاحيتهما للاستدلال، فإن كان قرآنًا أو متواترًا فلا يفيد اليقين وعند كل النصوص التي عارضت العقل يجب اطراحها؛ لأن العقل هو الأصل في إثبات النقل، وهكذا من هذه الوساوس وهذا الهذيان الذي لا خير فيه.

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الأصل وتكلمنا عليه، وذكرنا ما ألفه شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع، فالرازي في الحقيقة ألّف كتبًا أفسد بها العقيدة.

نقرأ ترجمة الرازي ونقف عند كل ما يستحق الوقوف -إن شاء الله تعالى.

محمد بن عمر أبو عبد الله المعروف بالفخر بن الخطيب الرازي، فحلٌ من فحول أهل الكلام، ورأس فيه، اعترف له بذلك العدو والصديق، قال فيه الذهبي في (ميزان الاعتدال): "الفخر بن الخطيب صاحب التصانيف رأس في الذكاء والعقليات، لكنه عارٍ من الأثر يعني: الحديث والسنة والأثر لا صلة له بها- وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين، تورث حيرة نسأل الله أن يثبت الإيمان في قلوبنا" هذه شهادات من علماء الأثر ومن علماء الحديث في الرازي.

قال الذهبي: "وله كتاب (السرّ المكتوم في مخاطبة النجوم) وهو سحرٌ صريح، فلعله تاب من تأليفه"، أن الرازي ألف كتابًا في السحر؛ يعني: حديث الإسراء والمعراج قلبه كله إلى رموز على عادة القرامطة والباطنيين وبعض محبي الرازي يكذبون بهذا الكتاب، حتى أخرج لهم من له صلة بالرازي بخطه، فتعجبوا من صدور هذا الكتاب من الرازي، السحر ومخاطبة النجوم، يعني الكهنة -والعياذ بالله- هذا وهؤلاء هم العلماء!!

وقال الذهبي في (السير): "وكان يميل إلى الاعتزال، وفي تواليفه ما يدل على ذلك في رؤية الله وغيرها، نسأل الله السلامة".

وقال فيه الشيخ عبد الرحمن الوكيل الإمام المعروف: "وهو من أكابر أئمة الأشاعرة، الذين أوغلوا في التأويل"، وقال عنه في موضع آخر: "والفخر الرازي من أشهر متكلمي الأشاعرة، ومن غلاة المؤولة المشرفين في الطعن على السلف، ومن المؤلفين في كل فنٍّ حتى في السحر والتنجيم، غير أنه لبث أن ارتاب في كل ما كتب كما يقول شيخ الأزهر السابق الشيخ مصطفى عبد الرزاق، وقلّت ثقته في العقل الإنساني وأدرك تمامًا أنه لا يستطيع الإحاطة بالوجود في ذاته" يعني: هكذا الإنسان يدور حتى يرى نفسه أنه في طريق مغلق وأنه في حيرة وتخبط، فيضطر إلى الاعتراف بالحقيقة إن هداه الله، فهذا شيخ الأزهر مصطفى عبد الرزاق وهذا الشيخ عبد الرحمن الوكيل وهذا الشيخ الذهبي، وسيأتي بعد بقية الكلام عن الرازي.

قال: "كانت تنتابه في بعض مجالس وعظه نوبات فيصرخ مستغيثًا -يعني: كان يضطرب من كثرة الانفعال ومن كثرة تزاحم الأفكار عليه، واضطرابه فيها كانت تأتيه نوبات عصبية- وعظ يومًا بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري وحصلت له حال فاستغاث: يا سلطان العالم، لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي يبقى".

كما يذكر الشيخ أيضًا ما نقله ابن الصلاح عن الرازي وهو قوله: "يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى"، يعني: هذه هي أحواله في وقته وأمام السلطان، قال: "لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي يبقى"، يعني: اعترف على نفسه بأنه عنده تلبيس وعنده تخليط وعنده...

وهذا ابن الصلاح الإمام صاحب (علوم الحديث) ينقل عنه أنه قال: "يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى"، كل هذا منقول من (الصفات الإلهية).

ويقول عنه ابن تيمية في كتابه (نقد المنطق): ومن أمثلة ذلك أن الذين لبسّوا الكلام بفلسفة من أكابر المتكلمين، تجدهم يعدون من الأسرار المصونة والعلوم المخزونة ما إذا تدبره من له أدنى عقل ودين وجد فيه من الجهل والضلال ما لم يكن يظن أنه يقع فيه هؤلاء".

هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ يعني: هم عندهم معلومات وأسرار وكذا، يظنونها من الأسرار ويعدونها من النكات التي حصلوا عليها، وهي في الحقيقة جهل وضلال، مثل تفسير حديث المعراج الذي ألفه أبو عبد الله الرازي، الذي احتذى فيه حذو ابن سينا وعين القضاة الهمداني، فإنه روى حديث المعراج بسياق طويل وأسماء عجيبة وترتيب لا يوجد في شيء من كتب المسلمين، لا في الأحاديث الصحيحة ولا الحسنة ولا الضعيفة المروية عند أهل العلم، وإنما وضعه بعض القُصاص والطرقية وعباد الشياطين وبعض الزنادقة.

ثم إنهم عن جانب حديث المعراج الموجود في كتب الحديث والتفسير والسيرة وعدوله عما يوجد في هذه الكتب إلى ما لم يسمع من عالم ولا يوجد في أثره من علم فسره بتفسير الصابئة الضالة المنجمين، وهذا الرازي.

وجعل معراج الرسول ﷺ ترقيته بفكره إلى الأفلاك، وإن الأنبياء الذين رآهم هم الكواكب، فآدم هو القمر، وإدريس هو الشمس، والأنهار الأربعة هي العناصر الأربعة، وأنه عرف الوجود الواجب المطلق، ثم إنه يعظم ذلك ويجعله من الآثار والمعارف التي يجب صونها عن أفهام المؤمنين، علماؤهم حتى إن طائفة ممن كان يعظمونه لما رأوا ذلك تعجبوا منه غاية التعجب، وجعل بعض المتعصبين له يدفع لذلك، حتى أروه نسخة بخط المشايخ المعروفين الخبيرين بحاله، وقد كتب في ضمن كتابه الذي سماه (المطالب العالية) وجمع فيه عامة آراء الفلاسفة والمتكلمين.

إذًا هذا هو حال الرازي، هذا هو ذكاؤه، وهذا هو فهمه وهذا هو منهاجه وهذا هو علمه؛ يعني: لا علم بالسنة، لا علم بالسيرة، لا علم بالتاريخ، لا علم بالعقيدة، ويتخبط هذا التخبط.

قلت: وأنا أحفظ عبارة ذكرها ابن تيمية في الرازي وأمثاله: أوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاةً، فشيخ الإسلام ابن تيمية من أخبر الناس وأعرفهم بعلم الكلام والفلسفة، بل هو طبيبها وخريتها، ولو تتبعنا كلام ابن تيمية المتفرق في مصنفاته على الرازي لجاء مجلدٌ ضخم، وقد تصدى له رحمه الله في كتابه (تلبيس الجهمية) فبين أحواله وتناقضه وقواعده التي أسس عليها بنيانه، وهي أوهن من خيط العنكبوت، كما خصص له جزءًا كبيرًا من كتابه (درء تعارض العقل والنقل).

إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شفى وأشفى للذي يريد الحق ويريد الرجوع إليه، وبين حال هذا الرجل الذي هو من أساطين علم الكلام وأساطين الأشاعرة، وهو ما يزال الآن يغنون به وينشدون به هذه العقيدة المشئومة، وهي عقيدة الأشاعرة المبتدعة، التي سمعتم أحوال أصحابها وأنهم منحرفون لا خير

عندهم، وإنما عندهم المهاترات والمشابهة بأهل الباطل والباطنية، نسأل الله السلامة والعافية.

عقيدته في الأسماء والصفات في تفسيره:

تفسير الرازي يعتبر مرجعًا كبيرًا في علم الكلام عمومًا وفي العقيدة الأشعرية المذمومة خصوصًا، يتمادى في تأويل الصفات على الزمخشري المعتزلي، فيأخذ عبارته ويرددها ويطورها ويكثر فيها من الوجوه، فتراه يقول في المسألة: الوجه الثاني والثالث، ما لو قرأه المبتدئ أو من لا علم له بعقيدة السلف يغتر به بسبب تقسيماته المتنوعة، وهو بارعٌ في طرح الشبه وعدم القدرة على الإجابة، حتى إنه اتّهم، ولهذا يقول ابن حجر في (لسان الميزان) بأنه: وكان يُعاب عليه بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصُر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبهة نقدًا ويحلها نسيئة.

وعلى كل حال، فإن الرازي مؤول لجميع الصفات، ينهج فيها نهجًا أشعريًّا، وإن عرج على مذهب أهل السنة فلضربه ولقّبه باسم المجسمة، أو يخلّط في بعض الأحيان فينسب التفويض إلى السلف، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليقرأ الصفات التي أثبتُّها في داخل البحث وليرجع إلى الكتاب نفسه فسيرى ما قلت.

وقد قيل: إنه رجع إلى مذهب السلف الصالح، والذين قالوا برجوعه اعتمدوا في ذلك على بعض أقواله التي قالها، وعلى وصيته التي كتبها والتي ذكرها ابن السبكي في (طبقات الشافعية)، وممن اعتمد رجوعه وتوبته الشيخ عبد الرحمن الوكيل، قال في (الصفات الإلهية): "ومن وجه الحسرة البالغة على ما ضيع من عمر في الجدل عن الضلالة ومن دموع الندامة التي كانت تؤج في أعماقه، من أغوار فاجعته النفسية راح يندب نفسه بهذه الأبيات"، الشيخ عبد الرحمن

الوكيل يصور حالة الرازي وحالة رجوعه وتوبته، الأبيات هي التي دائمًا نرددها في كثير من كلامنا:

نهاية إقدام العقول عقال ❖ وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ❖ وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ❖ سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

إن عاصفة الشك تجتاح نفسه، وتدمر ثقته في كل ما ألف وكتب وقرأ من قبل، وإن صرخة الندم على ما ضيّع وأكثر سعي العالمين ضلال، إنه سعي الخلفيّة وسعي ماضيه الذي تروّعه أشباحه وتفجعه منه ذكريات الإسراف في الجور على قيام الحق، ومقدساته، وفي اتهام عُلياء الحق المثبتين للصفات بأنهم يهود هذه الأمة، كما كان ينعتهم من قبل.

إذًا الرازي على تحليلات الشيخ الوكيل رَحِمَهُ اللَّهُ ندمَ على ما مضى، وأنه استحضر إشكالاته وعناده وتعنته وأوصافه لأهل السنة الذين أثبتوا الصفات، ولا شك أن الذي يمنّ الله عليه بالتوبة وبالندم، هذا شيء طيب، لكنه في حال توبته وفي حال ندمه لا بد أن يستحضر ما مضى، يعني: لا أحد ينسى ماضيه، لا العقَدي ولا السلوكي ولا التاريخي ولا العلمي، لم ينسَ أن يستحضر خيره ويستحضر شره، فيستغفر من شره ويحمد الله أن وفقه للخير.

فهذه حالة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ التي يصوّرها الشيخ الوكيل في توبته "جمعنا فيه قيل وقالوا"، هذا هو كل ما حصله من معرفة، النبي ﷺ نهى عن القيل والقال، من أحاديثه ﷺ الصحيحة النهي عن القيل والقال، العاقل والذي يريد القدوم على الله والوقوف بين يديه لا يتكلم إلا بحديث واحد في باب المعتقد ولا في باب الأحكام ولا في أي باب فيه حكم شرعي، أنت ستحاسب وستقف بين يدي

الله، وكلامك في العلماء وفي أهل العلم لا بد أن تسأل عنه، فإن ظلمتهم فستقف أنت وإياهم بين يدي الله، فليحذر الإنسان من الوقوع في أهل السنة وفي العلماء وفي الأخيار وفي الفضلاء الذين كان لهم قدم صدق في الدفاع عن السنة، وفي إظهار السنة، وفي رفع راية السنة.

إنها أقوال تافهة لا تهدي ولا تنزع بفكر إلى الاهتداء، وهو غثاء عفن من الخرافات، وإنها لترجمان صادق عن قيمة كل ما ألف من كتب وعن قيمة معارف أولئك الذين يعتدون على الحق ويوغلون في العدول عنه، فهل يعتبر أولئك الذين ما زالوا على تفاسيرهم وولائهم لكتب ألفها الرازي في ضلالته، ثم عاد والندم يستحوذ على مشاعره والتوبة تأخذ بناصيته فوصفها بأنها تفاهة وباطلة، قد برئ منها الرازي، وندم أشد الندم على تأليفه لها، وقد عبر عن هذا الندم في أبياته تلك وبما سجله في كتابه (أقسام اللذات).

إذًا هذه هي حالة الرازي، قال الشيخ الوكيل: براءته من الخلفيّة، وهو عنوان كتاب، يعني القسم الرابع عندي في التفاسير أسميته التفسير الخلفي، يقول في كتابه (أقسام اللذات): "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيتها أقرب الطرق ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في التنزيه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، واقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في أن الكل من الله قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي".

إذًا كل هذا من كلام الرازي في كتابه (أقسام اللذات) نقلها الشيخ الوكيل ونقلها العلامة ابن القيم ونقلها الإمام ابن تيمية ونقلها غير واحد.

وصية الرازي في موته:

أملى الرازي في مرض موته على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني وصية طيبة، قال عنها ابن خلكان: ورأيت له وصية أملاها في مرض موته على أحد تلامذته، تدل على حسن العقيدة، ومما جاء في هذه الوصية قوله: "ولقد اعتبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، وقد استفتحها بقوله: اعلموا أني كنت رجلًا محبًّا للعلم، فكنت أكتب في كل شيء شيئًا، لا أقف على كمية ولا كيفية، سواء كان حقًّا أو باطلًا أو غثًّا أو ثمينًا"، اعتراف صادق ريان الإخلاص في ندامته، بأن المناهج الكلامية أو طريقة الخلف لا تهتدي ولا تهدي إلى يقين، وإنما تورث الشك والقلق والحيرة والعاصفة.

وفي وصيته الحزينة صورة موجعة من مأساته الدامية، وإنك لتكاد تلمح دموع التوبة وهي تنساب من عينيه، وتحسّ شواظ الحسرة المشوبة في أعماقه، كما يتبين في جلاء رجوعه عن خلفيته الجامحة إلى عقيدة السلف، ويبدو إيمانه القوي بالاستواء والفوقية، وإني أخص هاتين بالذكر؛ لأن الرازي -يرحمه الله- كان لا يكفر بشيء قبل توبته كما يكفر بالاستواء والفوقية، ولكن تداركته رحمة من الله فشرح للحق صدره فتاب ومضى في شيخوخته الواهنة المكدودة المتعبة، يبتهل إلى الله بالتوبة ويلعن كل ما كتب من قبل، ثم يعلن عقيدته في وصيته، ولكنك تحس بالخوف القوي الذي يملك على الرجل أنفاسه وقلمه وفكره، وهو يقول:

"كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية والتدبير والفاعلية، فذاك هو الذي أقول به، وألقى الله تعالى به، وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها من الأئمة المتبعين لمعنى واحد فهو كما هو".

ثم يقول ودموعه تحمل أشجان قلبه وأفلاذه مسترحمًا الرحمن الرحيم: "فلتكن رحمتك مع قصدي، لا مع حاصلي، فذاك جهدي المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في ذلة، فأغثني وارحمني واستر ذلتي وامحو حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين".

ثم يقول ما يجب أن يقوله الخلف بعد توبتهم: "وأقوم الدين متابعة سيد المرسلين محمد ﷺ وكتاب القرآن العظيم، والتعويل في طلب الدين عليهم".

إن الصيال في صورته وإن الجدال المحموم في عونته، وإن الرازي الخلفي الذي جعل كتاب الله وراءه ظهريًّا لا ترى إلا قلبًا يذوب في توبته، ولوعة تنفس عن غليانها واستسلامها مقرونًا بالخوف والخشية المهيمنة على نفس ذليلة، وهل يجوز أن يظل بعض الناس مصرّين على الإيمان بقدسية الرازي ووجوب الاقتداء به في أصل الدين، وهو الذي وقف على شفا القبر يلعن ذلك الماضي الرهيب الملعون، الذي استعلن فيه بعدوانه على الحق، أيهما أجدر بالاقتداء إن كان يجوز الاقتداء بغير الرسول ﷺ الرازي، وهو نهب الحيرة والضلالة ماضي شبابه، أم الرازي الشيخ الذي شفته التوبة من ضلالته؟

إذًا، هذا ملخص الكلام على الرازي.

عجيبٌ أن يعتد الخلفيون الزاعمون أنهم يتبعون الكتاب والسنة بكتب الرازي الذي هو بريء منها، وزاد في لعنها، واشتد في لعنها وسجد بين يدي الله في ذلته

يضرع إليه، لا يحاسبه على ما بث فيها من زيغ وضلال، عجيبٌ أن يجعل هذه اللعنة عقبةً كئود تحول بينهم وبين القرآن.

إذًا هذه هي تحليلات الشيخ الوكيل ﷫ ومتابعته لترجمة الرازي ولتاريخ الرازي السابق واللاحق، وأن الرازي ﷫ اعترف بأنه كان على ضلالة في السابق، وأنه رجع إلى القرآن والسنة، وأن كل ما جمعه في السابق هو عبارة عن قيلٍ وقال، وأن أكثر ذلك كما قاله حاصل أذًى ووبال وأنه أذًى ووبال.

إذًا الذي يريد أن يقتدي بالرازي، فهذه وصيته وهذا تاريخه، وهؤلاء هم المؤرخون الذين ينقلون هذا الكلام في كتبهم، وهؤلاء الأئمة الثقات الذين يقررون ذلك وينقلونه من كتاب إلى كتاب، وهذه كتبه ناطقة بذلك، فلماذا العناد؟ ولماذا الإصرار على أن يبقى الناس مقيدين ومرتهنين بكتب الرازي وأن يكون لها هذا الرواج وهذا التعظيم، مع براءة صاحبها منها، وأنه تخلى عنها، ولم يبق له بها أية صلة، بعدما تبين له الحق وتبينت له الأمور.

وكذلك الغزالي ندم على كل ما كتب مثل الرازي، وهو قبل الرازي، ورجع إلى الصحيحين البخاري ومسلم، وتبرأ عن كل ما كتب، فهؤلاء الأئمة -أئمة الأشاعرة وأئمة الفلسفة وأئمة الكلام- يتراجعون ويكتبون ذلك ويدوّنونه، والرازي كذلك كما أثبت ذلك في كتابي الأسباب الحقيقة لحرق (إحياء علوم الدين)، فبين براءته من كل ما كتبه ﷫ من باطل.

فالآن نأخذ مثالًا من تأويلات الرازي من تفسيره الكبير الذي يسمى (التفسير الكبير) وهو كتاب منتشر ومتداول:

قال عند قوله تعالى في صفة الغضب: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]: "الفائدة الرابعة: الغضب تغيّر يحصل عند غليان دم القلب لشهوة

الانتقام، واعلم أن هذا على الله تعالى محال، لكن هناك قاعدة كلية، وهي أن جميع الأعراض النفسانية -يعني: الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والغيرة والمكر والخداع والتكبر والاستهزاء- لها أوائل ولها غايات، ومثال: الغضب، فإن أوله غليان دم القلب، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله تعالى لا يُحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب، بل على غايته الذي هو إرادة الإضرار، وأيضًا الحياء له أول وهو انكسار يحصل في النفس، وله غرض وهو ترك الفعل، فلفظ الحياء في حق الله تعالى يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس"، وهذه قاعدة شريفة في هذا الباب.

إذًا هكذا يفهمون الصفة، وهكذا يوجهون الآية، وكل هذا ليس له أصل؛ يعني كلام باطل. قلت: هذا الذي ذكره الرازي في صفة الغضب وغيرها من تفريق بين أول الصفة ونهايتها خطأ وقع فيه هو وغيره؛ لأن الغضب ليس معناه غليان الدم كما يتصور، وإنما يكون غليان الدم قارنًا للغضب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى في التأويل هذا والتصوير في حق الله تعالى ليس إلا توهم وتشبيه بغضب الآدمي، فالله -تبارك وتعالى- له غضب وحياء ومكر واستهزاء يليق بجلاله وعظمته، ويغضب متى شاء ويرضى متى شاء، كما يليق به، فإرجاع هذه الصفة إلى الإرادة أو إيقاع الفعل خطأ ظاهر وخلاف مذهب السلف الصالح.

إذًا ما قاله هو غلط ونكتفي بالرازي، بما ذكرناه عنه بالأمثلة، فننتقل إلى مفسر آخر.

٤-الإمام البيضاوي:

المتوفى سنة ٦٨٥هـ:

البيضاوي أيضًا من الذين اشتهر تفسيرهم، ودرّس في كثير من الجوامع، ولقي قبولًا كبيرًا من الأشاعرة، وكتبت عليه حواشٍ كثيرة، على منهجه وعلى

طريقته ؛ فلهذا لا بد من معرفته ومعرفة ما فيه من الأخطاء العقدية ، ولا شك أن البيضاوي كالرازي وكغيرهم لا صلة لهم بدراسة السنة ولا الأثر ، وإنما علمهم اللغة والنحو وعلم الكلام فقط ، الذي تبحروا فيه وتضلعوا منه ، أما السنة والأثر فهي بعيدة عنهم ، والذي يرجع إلى مصنفاتهم يرى ذلك ، وهو كان من كبار الأصوليين رحمه الله.

قلت في ترجمته : البيضاوي ، واسمه عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، اشتهر بالبيضاوي ، كان فحلًا من فحول أهل الأصول ، له تآليف جيدة أثنى عليها العلماء ، وله كتاب في أصول الدين يذكر في ترجمته ، ولمن نطلع عليه ، له علم بالمعقول وليس له علم بالمنقول -يعني : السلف والأثر- ، ألف تفسيره المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) على منهاج الخلف ، لخص فيه عبارات الرازي والزمخشري ، بل نقل معظم تأويلات الزمخشري إلى تأويلاته في الصفات ، وقد اعتنى به علماء الأزهر ، فاعتكفوا على دراسته ، وجعلوا الحواشي عليه ، فممن حشى عليه الشيخ شهاب الخفاجي والشيخ زاده وهو يقع في حجم كبير.

أما مذهبه في تفسير الأسماء والصفات ، فمؤوِّل كبير على مذهب الأشاعرة في تأويل الصفات ، إلا في الاستواء فقد حكى فيه الخلاف والرؤية والمعية.

نأخذ أمثلة من الصفات من تفسيره ؛ حتى نعلم تأويله للصفات :

فصفة الإتيان والمجيء لله تعالى ، قال عند قوله تعالى : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] أي : يأتيهم أمره أو بأسه ، هذا التأويل ، كقوله تعالى : ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ [النحل : ٣٣] ، ﴿ فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا ﴾ [الأعراف : ٤] : أو يأتيهم الله ببأسه ، فحذف لما أتى به للدلالة عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ إنها كلها تأويلات للصفة ، وتقديرات ما أنزل الله بها من سلطان.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أي: أمره بالعذاب أو كل آياته، يعني آيات القيامة والعذاب والهلاك، الكل لقوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] أي: ظهرت آيات قدرته وآثار قهره، مثّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيبته وسياسته.

كل هذه تأويلات ما أنزل الله بها من سلطان.

نماذج من التفاسير الخلفية في باب الأسماء والصفات (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أبو حيان، وتفسيره (البحر المحيط)، السيوطي وتفسيره (الجلالين)، الخطيب الشربيني	٣١٣
العنصر الثاني :	أبو السعود، وتفسيره (إرشاد العقل السليم)، تفسير الشوكاني، تفسير (الألوسي)	٣٢٠
العنصر الثالث :	المراغي، سيد قطب، محمد الطاهر بن عاشور وتفسيره (التحرير والتنوير)	٣٣٣

أبو حيان، وتفسيره (البحر المحيط)، السيوطي وتفسيره (الجلالين)، الخطيب الشربيني

١- أبو حيان، وتفسيره (البحر المحيط):

هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي أبو عبد الله الأندلسي الغرناطي الجياني الشهير بأبي حيان، فأبو حيان لا شك أن كتبه انتشرت ولا سيما (البحر المحيط) لأنه البحر وله، (النهر في التفسير)، وفي طبعات (النهر) بهامش (البحر)، وأبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ تميز في تفسيره (البحر) بتوسع كبير في النحو وقواعده، وفي ذكر القراءات الشاذة وغيرها، وقلب كتابه إلى كتاب نحو، وقواعد لغة وقراءات ومناقشات، ولا شك أنه في باب الأسماء والصفات من المؤولين وهو من علماء القرن الثامن توفي في ٥٤ منه، عاصر الإمام ابن تيمية، كان من المحبين له.

لكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تكلم في كتاب سيبويه الذي يُسمى (الكتاب) وعدَّد بعض أخطائه فقال فيه: كذا خطأ فبلغ ذلك أبا حيان، وهو من المفتنين بسيبويه، فبعدما مدحه هجاه أي: هجا الشيخ، وهذا تعصّب لسيبويه مع أنه كان المفروض أن يُناقش الشيخ في الأخطاء، فإن كانت حقًّا قَبِلها، وإن كانت غلطًا ردَّ على الشيخ وبيَّن أن الحق مع سيبويه، هذا هو العدل وهذه هي طريقة العلماء في كل الأعصار والأمصار، العاقل لا يستعجل في الطعن، ولكنه ينبغي له أن ينصح وأن يبين، ولا سيما إذا كان المؤلف حيًّا أو المتكلم كان حيًّا يناصح بأكثر من نصيحة، لكنه على الأسف أن فيه من الناس الآن في الوقت الحاضر من يتسرع، ويشتهي أن يجد الأخطاء، وإذا لم يجد الأخطاء تصيَّد الخطأ، ويركب على أي جزء من الخطأ، وربما يبتر الكلام بترًا فيأخذه على أنه خطأ، وقد رأيت

من ذلك كثير، ولا سيما هذا العصر الذي كثرت فيه المؤلفات، وكثر فيه الجانب المقابل، وتذبب كثير من الناس قبل أن يتحسروا.

وفيه أناس تبنوا هذه الفكرة، فكرة تخطئة العلماء وتتبع العلماء، وتبديعهم وتخطيئهم والعياذ بالله.

الحق دائمًا ينبغي أن يعلو وإن أخطأ الإنسان ينصح بكتابة، وينصح بمقابلة، وينصح بكثير من النصائح، أما إنك يعني: مجرد ألا توافق أحدًا على ما يريد فيحاول أن يلتمس لك الأخطاء في كل شيء، فهذا لا شك أنه مذهب فاسد، فنرجع إلى مفسرنا أبي حيان الذي يهمنا أن نبيِّن ما عنده من تأويل، وأنه من المؤولة، ورغم جلالة قدره وسعة اطلاعه في باب اللغة لكنه في باب الأثر والسنة عنده تقصير، وعنده ضعف فيها كثير.

أبو حيان، واسمه محمد بن يوسف بن علي أبو عبد الله الأندلسي الغرناطي الحياني، وليس كما قلت في الأول الجياني، الشهير بأبي حيان من أفاضل علماء القرن الثامن، برع في علوم العربية وحاز السبق فيها، وأحبَّ كتاب سيبويه وأنفق الوقت الكثير في دراسته، وأصبح مقدسًا عنده حتى أنه صار يُشاجر من يتكلم فيه، وذكروا أنه كان بينه وبين أبي العباس أحمد بن تيمية مودَّة، ولكن ابن تيمية تكلم في (الكتاب) وقال: إن فيه أكثر من ثمانين خطأً لا تعرفها أنت، ولا سيبويه، ومن ثمَّ غضب أبو حيان، وهجا شيخ الإسلام.

ويقال: إنه هو الذي شهر بكتب ابن مالك وقربها للناس، وتولاها بالشرح والتدريس، فله شرح على كتاب (التسهيل) لأبي عبد الله بن مالك صاحب الألفية، وله باعٌ كبير في القراءات مشهورها وشاذها، وكتابه (البحر) يُعتبر من أهمّ المراجع في علم القراءات، بل له منظومة على منوال الشاطبية خالية من الرموز.

وله الباع الطويل في علم اللغة وفقهها، أما النحو وقواعده فهو حذام فيه وما وجد طريقة لينشر الصناعة إلا كتاب الله تبارك وتعالى، فقد ألف كتاب (البحر) وجعله مرجعًا كبيرًا في هذا الباب، فيذكر القواعد المشهورة والشاذة منها، ويذكر اعتراضات أئمة النحو على بعضهم، ويذكر بعض اعتراضات الزمخشري، ويوافق ويردّ عليه، بل ربما في بعض الأحيان يصل به إلى حد السخرية والاستهزاء، وفي بعض الأحيان يمجده ويعظم من شأنه.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فمن قرأ آيات الصفات في كتاب (البحر) فلا يشك في أشعرية أبي حيان، ومذهبه في التأويل، وربما تصير له في بعض الأحيان لمسات إلى المذهب السلفي، لكن لا تكاد تشعر بها حتى يرجع إلى أصل تكوينه، وقد اتخذ ابن عطيه صاحب (التفسير) والزمخشري ومحمد بن عمر الرازي، والباقلاني، وغيرهم من أئمة الأشاعرة عُمدة في هذا العلم، وجعلهم هم الحكم في خصومته، ومن شكَّ فيما قلناه فليرجع إلى الصفات ويحصل له علم اليقين، والله المستعان.

إن أبو حيان أشاعري مؤول عمدته هو الزمخشري والرازي والباقلاني، وأئمة الأشاعرة، وابن عطيه فنأخذ أمثله من كتابه لما قلنا.

نأخذ صفة الوجه: قال عند قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] هذا جواب الشرط، وهي جملة ابتدائية فقيل معناه فثم قبلة الله فيكون الوجه بمعنى الجهة، وأضيف ذلك إلى الله؛ حيث أمر باستقبالها فهي الجهة التي فيها -رضى الله تعالى- قاله الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل، وقيل الوجه بمعنى الصلة، ومعناها فثمَّ الله أي: علمه وحكمه، وقيل: عبر عن الذات بالوجه كقوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقيل: معناه العمل لله، قال الفراء: قال استغفر الله ذنبًا لست معصيه رب العباد إليه الوجه والعمل.

وقيل: يحتمل أن يُراد بالوجه هنا الجاه كما يقال لفلان وجه، كما يقال فلان وجه القوم أو موضع شرفهم، ولفلان وجه عند الناس أي: جاه وشرف، والتقدير: فثمَّ جلال الله وعظمته، قاله أبو منصور في (المقنع)، وحيث جاء الوجه مضاف إلى الله تعالى فله محمل في لسان العرب؛ إذ هو لفظ مطلق على معانٍ، ويستحيل أن يحمل العضو، وإذا كان ذلك أشهر وجه فيه، وقد ذهب بعض الناس إلى أن تلك صفة ثابتة لله بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى، وضعف أبو المعالي وغيره هذا القول؛ لأن فيه الجزم بإثبات صفات الله تعالى بلفظ محتمل، وهي صفة لا يُدرى ما هي، ولا يعقل معناها في لسان العرب، فوجب طرح هذا القول لاعتماده على ما له محمل في لسان العرب؛ إذ كان للفظ دلالة على التجسيم، فنحمله إما على ما يصوغ فيه من الحقيقة التي يصح نسبتها إلى الله تعالى إن كان اللفظ مشتركًا، أو من المجاز إن كان اللفظ غير مشترك، والمجاز في كلام العرب أكثر من الرمل يبرين، ونهر فلسطين في وقوفهم على الظاهر الدال على التجسيم غباوة وجهل بلسان العرب، وأنحائها ومتصرفاتها في كلامهم، وحجج العقول التي هي مرجع حمل أفراد المشكلة إليه، ونعوذ بالله أن نكون كالكرامية ومن سلك مسلكهم في إثبات التجسيم ونسبة الأعضاء لله تعالى، ونسبة الأعضاء لله تعالى عما يقول المفترون علوًّا كبيرًا.

وفي قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ردٌّ على من يقول أنه في حيز وجهة؛ لأنه لما خُيِّر في استقبال جميع الجهات؛ دلَّ على أنه ليس في جهة، ولا حيز، ولو كان في حيز لكان استقباله والتوجه إليه أحق من جميع الأماكن؛

فحيث لم يخصص مكانًا عُلم أنه لا في جهة ولا في حيز، بل جميع الجهات في ملكه وتحت ملكه، فأي جهة توجهنا إليه فيها على وجه الخضوع كنا معظمين له، ممتثلين لأمره، هذه كلها أخطاء في الفهم فيه غلط من أبي حيان، وينسب إثبات الصفة للمجسمين وللتجسيم، ففي الحقيقة إذا كان المجسمة الذين هم المشبهة فهؤلاء لا كلام معهم، ولكن إذا كان قصده هو قال ابن كرام، وابن كرام لا شك أنه كان من دعاة التشبيه، كما ذكر المقريزي فيما سبق من كلامنا على تاريخ الفرق.

فنحن نقول بأن التجسيم والتشبيه هذا كفر ولا يجوز، لكن في المقابل لا يجوز التعطيل، التعطيل أيضًا ممنوع كما كان يقول شيخ الإسلام رحمه الله ويردّد، ويقول: من شبَّه فقد عبد صنم، ومن عطل فقد عبد عدم، يعني: لا تشبيه ولا تعطيل، ولكن إثبات بين ذلك، فلهذا كلام أبو حيان فيه أخطاء كثيرة.

٢- السيوطي، وتفسيره (الجلالين):

المتوفى سنة ٩١١هـ:

السيوطي لا شك أنه برز في التأليف، وبرز في تنوع التأليف في النحو وفي الفقه، وفي الحديث، وفي التفسير بروزًا كبيرًا، واشتهر اسمه وذاع صيته، ونأخذ من تفسيره ما يسمى بـ(الجلالين)؛ لأن المقصود بالجلالين يعني النصف الأول للسيوطي والنصف الثاني للمحلي، جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، فلهذا وهما على منهج واحد وعلى طريقة واحدة لا يفرق بينهم.

السيوطي من المنظار العقدي له هفوات كثيرة في باب المعتقد، في باب إحياء أبوي النبي، وفي باب الطريقة الصوفية التي نسبت إليه، وفي أبواب كثيرة في باب

المعتقد، فنرجو الله تبارك وتعالى أن يكون قد تاب من هذه العقائد الباطلة، وأنه يكون قد رجع إلى عقيدة السلف الصالح الذي يهمنا هنا هو قضية تأويل الصفات.

فالسيوطي شهرته تغني عن ذكره فقد ضرب به المثل في ميدان التأليف نثره ونظمه، واشتهر بالتلخيص لكثير من كتب المتقدمين في كل الفنون في النحو والفقه للشافعي والحديث والتفسير، ومن أعظم كتبه في التفسير (الدر المنثور) و(الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) في الحديث، وألفيته في المصطلح التي قال فيها التي قال: إنه نظمها في خمسة أيام، قال في آخرها:

نظمتها في خمسة أيام ❖ بقدرة المهيمن العلام

وله كتاب في ذم الكلام وأهله، والمنطق وعلمه سماه (صون المنطق) لَخَّص فيه كتاب (الهروي) وزاد عليه.

وأما في التفسير المسمى بـ(الجلالين) فهو أشعري كبير ما ترك صفة إلا أوَّلها، إلا صفة الاستواء فإنه أثبتها على ضعف في ذلك والرؤية، وما قلناه في السيوطي يقال في صديقه جلال الدين المحلي في التأويل، فكلاهما مؤول للصفات على مذهب الأشعرية.

هذا الكتاب منتشر مقرر لكثير من المدارس، وبه قرأنا في الثانوية في الجامعة الإسلامية بالمدينة، وبه قرأناه وهو الذي كان مقرر علينا، ومنتشر انتشارًا واسعًا، وعليه حاشية الجمال فهي من الناحية اللغوية من أجمل الحواشي على هذا الكتاب في الإعراب في النحو في الفوائد اللغوية، فهو مفيد من حيث اللغة، وحتى من ناحية المعاني إلا أنه يحظر منها كتب التأويل، فنحن في حلقتنا هذه وصل لنا أننا يفهم منه أننا نمنع من قراءة هذه الكتب، ولا تجوز قراءته؛ وإنما

نحذر من الأخطاء العقدية، ومن النصوص الضعيفة والنصوص الموضوعة والإسرائيليات والمسائل المخالفة، أما الكتب فلله الحمد يستفاد منها، فكل يستفاد منه بقدر حاجة المستفيد، وبقدر ما يناسب طلبه، وليس معنى هذا أننا يفهم منها أننا نمنع من قراءتها، أو نحرم قراءتها أبدًا، لكن نُحذّر من واقعها العقدي، فهذا من باب النصح لله ولرسوله، ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

فلعلنا نذكر نماذج من (تفسير الجلالين) في التأويل، صفة الوجه قال فيها رحمه الله: عند قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] قبلته التي رضيها، وعند قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] إلا إياه، وعند قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ذاته، وعند قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠] أي: ترى المساواة بالله، وليس في واحدة من هذه الآيات إثبات لصفة الوجه عند الجلالين فتأمله وانظر الرد على القرطبي.

إذًاتأويله للصفة واضح ونزيد صفة أخرى، قال عند قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [النحل: ٣٣] أي أمره بمعنى عذابه، قال عند قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] أي أمره، وهكذا وهكذا في بقية الصفات التي ذكرت في كتاب المفسر تجد التأويل فيها واضح، ولا حاجة لسردها كلها.

٣- الخطيب الشربيني:

المتوفى سنة ٩٧٧هـ.

هو محمد بن محمد الشربيني القاهري الشافعي المعروف بالخطيب الشربيني من علماء القرن العاشر، له باع في الفقه الشافعي، بل له تآليف، نقل معظم تفسيره

من الفخر الرازي، وادَّعى في مقدمة تفسيره أنه سيتبع السلف في تفسيرهم لكنه في الحقيقة خالف مذهب السلف في تفسير آيات الصفات، بل تابع الرازي في بعض طعناته على مذهب السلف كما يتضح ذلك في صفة الكلام.

وعلى كل حال هو مؤول أشعري في معظم الصفات وأثبت صفة الاستواء على ضعف في ذلك، وقد يذكر مذهب السلف في بعض بحوثه لكنها عنده كفلتة اللسان، غفر الله لنا وله ولجميع المسلمين.

أبو السعود، وتفسيره (إرشاد العقل السليم)، تفسير الشوكاني، تفسير (الألوسي)

١- أبو السعود، وتفسيره (إرشاد العقل السليم):

مع مفسر جديد من أئمة التفسير، الذين صاروا على منهاج الخلف، والذين أوّلوا الصفات، المعروف بأبي السعود، عاش في القرن العاشر توفي سنة تسعمائة واثنين وثمانين.

ترجمته: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي، سمّى تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، واشتهر بـ (تفسير أبي السعود)، اعتنى في تفسيره بالنواحي البلاغية والمناسبات بين الآي مع بعضها، أخذ تفسيره من الرازي ومن غيره، مثل الزمخشري، وربما ينقل العبارة بنفسها، ويُعتبر من أئمة الكلام، وقد أبدى ذلك في تفسيره، هذه نبذة ملخصةٌ من سيرته في كتابه؛ أي: منهاجه في التأليف.

وأما عقيدته في الصفات: فهو على طريقة المؤولة ما حاد عنها، تبع الرازي في تصرفه مع الصفات، بل ينقل ترجيحات الرازي ويقرّها، وهكذا في طريقته في الأسماء والصفات، فهو متابع فعل الرازي وغيره في تأويل الصفات، وهو من الأتراك الحنفيين، والأتراك الحنفيون عندهم جمود على المذهب الحنفي، وفي العقيدة عقيدة الماتريدية، ولا فرق بين الماتريدية والأشعرية في شيء من هذا الباب إلا نذر يسير.

المهم، هذا المسمّى بأبي السعود، هو من بهذه الصفة التي ذكرنا، فأذكر مثالًا واحدًا فقط من تأويلاته، وبقية الأمثلة هي مكتوبة، كما سبق في غيره من المفسرين الذين ذكرناهم على منواله، فنأخذ مثلًا صفة الغضب، قال عند قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قال: "والغضب هيجان النفس لإرادة الانتقام، وعند إسناده إلى الله سبحانه يراد به الآية بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه القريب، إن أُريد إراد سوء الانتقام على مسببه البعيد إن أريد به نفس الانتقام، ويجوز حمل الكلام على التمثيل بأن يشبّه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وإرادة الانتقام منه لمعاصيه، بما يُنتزع من حال المالك إذا غضب على الذين عصوه، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم

المهم هذا الذي التحليل كله من الناحية اللغوية والتركيبية خطأ؛ لأن الغضب -كما ذكر- ليس هو هيجان النفس لإرادة الانتقام.

الذي يهمنا منه أنه يؤول الصفة ويحملها إما على النهاية الذي هو الانتقام أو إرادة الانتقام، وكل هذا يقلد بعضهم بعضًا فيه، وليس لهم في ذلك حجة ولا دين، لا لغوي ولا نحوي ولا شرعي، ولا سلف إلا ما هو مبسوط في علم الكلام.

٢- الشوكاني:

لا شك أنه من دعاة التجديد في اليمن، هو والأمير الصنعاني وابن الوزير، وغيرهم، هؤلاء الثلاثة اشتهروا بحبهم للسنة وبدفاعهم عن السنة، وكانوا يردون على المقلدة، وكذلك النعمي صاحب (معارج القبول)، فله كتابٌ نفيس في الدفاع عن التوحيد وعن السنة والمعتقد، (معارج الألباب)، والشوكاني له كتب كثيرة ونافعة، وقد نفع الله بكتابه (نيل الأوطار) الذي شرح به منتقى الأخبار، وإن كان الكتاب أكثره ملخص من كتاب (فتح الباري) ومن تخريجات (تلخيص الحبير) للحافظ ابن حجر، لكنه استطاع أن يصوغه في صياغة طيبة قريبة، وإن كان ملأه بمذاهب الزيدية والهادوية وغيرها، مما لو نزّهه وجرده منها لكان أفضل وأحسن، لكنه بحكم أن هذه المذاهب موجودة عنده في اليمن ذكرها في كتاب (نيل الأوطار).

وله (إرشاد الفحول)، وله كتب نافعة في التحذير من القبورية والشرك، وله الدعوة إلى الاجتهاد والتحذير من التقليد المذهبي والتعصب، فهو إمامٌ في هذا الباب، لكن في كتابه (فتح القدير) كما سيأتي فيه نظر.

ترجمته: قلت: الإمام محمد بن علي الشوكاني اليمني منشأ وولادة، من العلماء الأفاضل ومن المصلحين والأخيار، استطاع التنصل من المذهب الزيدي الذي هو مذهب أهل بلده وعلماء وقته، عاش في بيئة متعفّنة بالشرك وأصنافه، دفع ذلك قدر استطاعته وقام في وجوه المشركين والمقلدين بقلمه ولسانه، ومن الرسائل المفيدة له في هذا الباب (شرح الصدور في التحذير من البناء على القبور) كتاب نافع مفيد، رسالة صغيرة، وكتابه (نيل الأوطار) نفع الله به المشرق والمغرب، وأبدى فيه من النزاهة وعدم التعصب لمذهبه ما هو واضح لمن قرأ الكتاب، وإن

كانت وقعت له بعض الهفوات والرواسب كما يقع لغيره من العلماء، لا تحط من شأنه إلا من يتصيد أخطاء مثل هؤلاء الفحول، فيفرح بها عند الحصول لما في قلبه من الضغينة والحقد على هؤلاء الأكابر، كالمقلدة ودعاتهم الجهلة الدِّعِّيين.

إذًا، هذه ترجمته مختصرة على شخصه وعلى كتبه، وعلى مبادئه ومنهاجه، وأما عقيدته في الأسماء والصفات، فالذي يقرأ رسالته المسماة بـ (التحف في مذاهب السلف) يرى أن الرجل يمدح مذهب السلف ويثني عليه، ويذم الكلام وأهله، ويحاول تقرير المذهب السلفي، ولكنني شخصيًّا أتحفظ في قولي: بأن الشوكاني يعرف مذهب السلف، الذي هو مثبت الإثبات مع التنزيه؛ لأنني أظن أنه يخلّط بين مذهب المفوضة ومذهب السلف، وإن كان يشم من بعض عباراته الإثبات، وقد مثّل بصفة الاستواء والمعية، وحاول أن يقرر فيها مذهب السلف، ولكن في نظري على ضعف في ذلك.

وأما كتابه التفسير، فالذي يطلع عليه متجردًا من خلفية له –عن شخصية الإمام الشوكاني ولا سيما في (التحف)– يرى أنه من أئمة الأشاعرة المؤولة، في سياق الصفات كلها في تفسيره، إلا في صفة الاستواء، حاول أن يقرر فيها مذهب السلف، وأما سائر الصفات التي أثبتها فهو مؤول فيها، ينقل عبارة غيره ولاسيما القرطبي، ويسكت عنها، والرؤية كذلك أثبتها كما أثبتها غيره، رادًّا فيها على المعتزلة، والله أعلم.

إذن، هذا هو تقويم تفسير (فتح القدير) الذي هو للإمام الشوكاني رحمه الله وأنه تابع فيه المؤولة، وأوّل الصفات إلا ما استثنيت وذكرت أنه أثبته على طريقة السلف.

ولا بأس أن نأخذ مثالًا من تفسيره، حتى يكون كالحجة بالدليل، ومن أراد أن يرجع إلى المفسرين ففيه كل هذه الأمثلة في الصفات، وإن لم يقتنع يرجع إلى مصدري نفسه.

نأخذ صفة اليد مثالًا لما نقول:

الشوكاني مؤول لصفة اليد تبعًا لما نقله عن غيره، قال في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤]، قوله: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] اليد عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا ﴾ [ص: ٤٤] وعلى النعمة، يقولون: كم يدٌ لي عند فلان، وعلى القدرة ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وعلى التأييد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: ((يد الله مع القاضي حتى يقضي))، وتطلق على معاني أخرى، وهذه الآية على طريقة التمثيل كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩]، والعرب تطلق غل اليد على البخل، وبسطها على الجود- مجازًا، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل مقبوض الكف، فمراد اليهود هنا -عليهم لعائن الله- أن الله بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [المائدة: ٦٤] دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقًا لما أرادوه بقوله: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويجوز أن يراد غل أيديهم حقيقة بالأصر في الدنيا أو بالعذاب، ويقوّي المعنى الأول أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل الشمس، فلا ترى يهوديًّا وإن كان ماله في غاية الكثرة إلا وهو من أبخل خلق الله، وأيضا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله، وليعينهم بما قالوا، معطوف على ما قبله والياء سببية؛ أي أبعدوا من

رحمة الله بسبب قولهم ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ثم رد سبحانه بقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجودِ إلى اليدين أبلغ من النسبة إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيها المقام؛ أي: كلا ليس الأمر كذلك، بل يداه مبسوطتان، وقيل: المراد بقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة، وقيل: نعمة المطر والنبات.

كل هذا تخلص في نظره من إثبات الصفة لله تعالى، وهو هروب بهذه التخريجات، وهذه كلها نقول من غيره؛ لأن هذه سبق أن قرأناها وقرأنا غير مما مر من المفسرين السابقين.

قال عند قوله تعالى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] أي ما صرفك وصدك عن السجود، لما توليتُ خلقك من غير واسطة، وأضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا له وتشريفًا، مع أنه سبحانه خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد، قال مجاهد: اليد هنا بمعنى التأكيد، والصلة مجازًا كقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقيل: أراد باليد القدرة، يقال: ما لي بهذا الأمر يد وما لي به يدان: أي قدرة، وقيل: التشبيه في يد للدلالة على أنها ليس بمعنى القوة والقدرة بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه.

وهذا الذي ضعّفه الشوكاني ورواه بصيغة التمريض كغيره، هو الصحيح الذي دلت عليه النصوص، قال عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]:

القبضة في اللغة: ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته، بأن الأرض كلها مع عظمها وكثافتها في مقدوره، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه، كما يقولون: هو في يد فلان، وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه، وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]، فإن ذكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة، كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه.

واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك، قال الأخفش: ﴿ بِيَمِينِهِۦ ﴾ يقول: في قدرته، نحو قوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦] أي: ما كانت لكم قدرة عليه، أو ليس الملك لليمين هنا والشمال وسائر الجسد وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد، ومنه قوله سبحانه: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: بالقوة والقدرة.

وهكذا تجد الشوكاني رحمه الله كأنه لم يقرأ منهج السلف ولم يعرج عليه ولا قرأ الآثار ولا قرأ كلام الشيوخ الذين يستدل بهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهم، تراه يسبح في هذه التوجيهات وهذه التأويلات التي أخذها عن غيره مع الأسف، فهذا الشوكاني.

٣- الألوسي:

توفي ألف ومائتين وسبعين.

الألوسي أيضًا من العلماء الذين اشتهر ذكرهم، وانتشر صيتهم، وهم أسرة كبيرة، وهم غالبهم من أهل العلم وانتسبوا للعلم، وتفسيره موسوعة، له نقول كثيرة عن كتب التفسير قبله، لكنه تأثر بالتصوف، وأكثر من تمجيد المتصوفة في

التفسير، وكل آية يرى فيها ما يستخرج منه التفسير سماه التفسير الإشاري، وهو في الحقيقة التفسير الصوفي، ولنا رسالة في تصوفه في تفسيره (صوفية الألوسي).

نقرأ ترجمته ثم منهاجه في تفسيره في باب الأسماء والصفات، أو في عقيدة الأسماء والصفات.

قلت في ترجمته: أبو السناء شهاب الدين السيد محمد أفندي، المشهور بالألوسي البغدادي، هو من أسرة اشتهر أهلها بالعلم، غير أنهم افترقت مشاربهم وأهدافهم، فصاحب الترجمة كان اتجاهه صوفيًّا، وأبدى ذلك في تفسيره، فقلما تفوته مناسبة إلا وينبه على ما في الآية من التفسير الإشاري، وقد عدّه كثير ممن صنف كتب التفسير من تفاسير الصوفية، وهو كذلك، ومن طالع تفسيره يجده يسدل على الصوفية من الألقاب الفخمة، مثل: قدس الله سره، مثل سادتنا الصوفية، ومثل أهل التحقيق والحقيقة، إلى غير ذلك مما ذلك مما منسوج في طي كتابه رحمه الله.

أما سليل أسرته السيد النعمان خير الدين فهو صاحب عقيدة سلفية، له كتاب ذو فوائد جمة يسمى بـ(جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) أي: أحمد ابن تيمية وأحمد بن حجر الهيتمي، والكتاب مطبوع، نفع الله به خلقًا كثيرًا، وطبع مرات وكرات؛ يعني هذه هي الترجمة العامة، والفكرة على المفسر الألوسي رحمه الله.

عقيدته في الأسماء والصفات في تفسيره:

قلت: فقد ضم تفسيرُه معظم بحوث الرازي، حتى إنه ينقلها بالحرف وبالوجوه التي يرددها الرازي في الشبه الأشعرية، وينقل ما يذكره الزمخشري وإن كان مخالفًا للعقيدة الأشعرية نبذه وانتصر للعقيدة الأشعرية.

أما الألوسي، فأحيانًا يميل إلى مذهب السلف ويقرره ويُنسب نفسه إليه كما فعل في صفة الحياء، وأحيانًا يذكر المذهب الأشعري وينتصر له انتصارًا، وربما يؤدي به ذلك إلى لمز أئمة السلفية كما فعل في صفة الكلام وسنقرأ إن شاء الله، وأحيانًا يظهر عليه نوع من التحفظ وعدم الصراحة الكاملة، كما فعل في صفة الفوقية أي العلو، وأحيانًا يقرر مذهب السلف والخلف، ويرجّح مذهب الخلف كما فعل في صفة الاستواء، وهكذا تجده مترددًا بين مذهب السلف والخلف؛ ولهذا ترجح لنا أن نذكره في مفسري الخلف، وعلى كل حال فكتاب الألوسي يعتبر موسوعة كبيرة في كثير من أنواع العلوم وعنده صبر على تطويل البحوث، وإن كان أكثرها متوفرة المصادر، فالله يرحمه ويتولانا نحن بلطفه وعفوه.

إذًا، هذه واقعه في كتابه (تفسير الألوسي)، فأحيانًا يثبت وأحيانًا يؤول، وأحيانًا يضطرب وأحيانًا يتردد، كل هذا يدل على أن الشخص غير متمكن في السنة وغير متمكن في أثر السلف وغير متمكن في متابعة منهج السلف، لأن باب المعتقد ليس هو بالسهل اليسير، أو ينوّع فيه الإنسان الأحوال، لا، مذهب السلف هو علم اليقين، الثبات، فليس هو من الأشياء التي تقبل التردد والتحوّل والتذبذب، مرةً هكذا ومرةً هكذا، لا فهو يحتاج إلى إمامة في اليقين، فالإنسان يكون إمامًا في اليقين إذا توفرت فيه صفتان: اليقين والصبر، فيكون إمامًا ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

فاليقين والثبات هو المعتقد، وهو عقيدة الأنبياء والرسل، النبي ﷺ منذ بعثه الله وإلى أن تُوفي وهو على مبدأ واحد، ما تزحزح عنه ولا تذبذب ولا تزلزل -بأبي هو وأمي- وهكذا صحابته وهكذا التابعون له وهكذا الأئمة الأخيار العلماء

وهكذا إلى يومنا هذا، فتمكن الإنسان في السنة وفي العلم يعني التمكن الصادق وليس قصده هو الاحتراف أن يحترف الإنسان أحيانًا الحديث والسنة ويتظاهر بأنه يدرس الحديث ويعرف الأسانيد ويعرف الطرق- هذه كلها قد لا تفيد؛ لأنها حصلت من كثير من نماذج أنهم ظهروا بمعرفة السنة والحديث، لكن تجدهم منحرفين -والعياذ بالله- في عقائدهم؛ إما في باب الصفات كهذا، أو في باب السلوك، أو في باب الألوهية، حتى تجده قبوري تجده يطوف بالقبور يذبح على القبور يشد الرحال إلى القبور -والعياذ بالله- كحال بعض المنافقين.

فالعقيدة تحتاج إلى ثبات، نرجو الله أن يرزقنا الثبات؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: ((يا مصرف القلوب يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك)) فالألوسي رحمه الله أبو الثناء نموذج للمذبذبين في باب الأسماء والصفات، وغيرهم ممن تقدم، تجده يثبت أحيانًا الصفة ويؤول الباقي يثبت ثلاث صفات ويؤول الباقي، لكن الذي تضلع في السنة وفي الأثر تجده على منوال واحد، وعلى ما في كل شيء حتى في الفروع وحتى في المصادر وحتى في العلائق وحتى في الذكر، في كل شيء تجد عنده ثبات، نرجو الله أن يرزقنا الثبات.

الآن نقرأ نموذجًا من الصفات التي أوّلها الألوسي، ونختار صفة الكلام: بحث الألوسي في أول تفسيره مسألة الكلام، وأطال النفس في ذلك، وقرر مذهب الأشاعرة ودافع عنه بما لا مزيد، واستدل للكلام النفسي بأدلة ظنها تُثبت مذهبه، الكلام النفسي لا وجود له، الكلام لا بد أن يكون باللسان، ((إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، وعما لم تتكلم به أو تعمل به))، والله تعالى تجاوز للإنسان، لكن إذا تكلم صار متكلمًا، القرآن كلام الله والتوراة كلام الله والإنجيل كلام الله والزبور كلام الله، هذه فلسفة انتقلت من المعتزلة ومن المعتزلة

إلى الكلابية ومن الكلابية بها إلى أبي الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ، هو الذي ترك هذا الميراث الفاسد، نرجو الله أن يغفر له.

النصوص التي في القرآن فيها كل الكلام، حتى عند النحاة عندما عرفوا الكلام يقولون: الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع، وأقسامه ثلاثة: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فالكلام هو ما نطق به الإنسان لا ما أضمره في نفسه، ولماذا هذه الفلسفة "الكلام النفس"، الكلام كلام الله، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦] هذا كلام نفسي؟ ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] هذا كلام نفسي؟ لما يقول الرسول ﷺ: ((قال الله تعالى: إن حرمت الظلم على نفسي))، قال الله تعالى كذا، قال الله تعالى كذا، الرسول يقول قال الله، ونحن نقول: قال كلام نفسي؟! وسيأتي إن شاء الله مناقشة القرطبي ونتكلم على ذلك.

واستدل لكلام النفس بأدلة ظنها تثبت مذهبه، ولم يعرج على الأدلة المصرحة بأن الله تعالى يتكلم بصوت وحرف، وختم بحثه بالطعن على المشايخ السلفيين، وقال ما لفظه:

"جَلّ من أحاط خبرًا بأطراف ما ذكرناه، وطاف فكره المتجرّد عن مخبط الهوى في كعبة حرم ما حققناه، اندفع عنه كل إشكال في هذا الباب، وأرى -هذا هو الشاهد- وأرى أن تشنيع ابن تيمية وابن القيم وابن قدامة وابن قاضي الجبل والطوفي وأبي نصر وأمثالهم صرير باب أو طنين ذباب، وهم وإن كانوا فضلاء محققين وأجلاء مدققين، لكنهم كثيرًا ما انحرفت أفكارهم واختلطت أنظارهم، فوقعوا في علماء الأمة وأكابر الأئمة".

يعني: كل هذا حمله عن هذا المذهب على هذا الوصف، الكذب على هؤلاء الأئمة، هم ما وقعوا في العلماء ولا وقعوا في أحد، وإنما ردوا على أهل البدع وردوا الباطل، لا تجد لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ولا لابن القيم ولا لمن ذكر وقوعه في العلماء، حاشا وكلا، بل العكس، يدعون للعلماء ويثنون عليهم، ولا يذكرونهم بسوء، ولكن يردون ما عند بعض الناس من باطل ومن بدعة ومن ضلالة، كما سمعتم في كثير من العبارات.

"وبالغوا في التعنيف والتشنيع، وتجاوزوا في التسخيف والتفظيع، ولولا الخروج عن الصدد لوفيتهم الكيل صاعًا بصاع، ولتقدمت إليهم بما قدموا باعًا بباع، ولعلّمتهم كيف يكون الهجاء، ولعرفتهم إلى ما ينتهي المراء بالأمراء".

يعني يهدد ويحاول يقول هذا الكلام.

قال: "على أن العفو أقرب للتقوى، والإغضاء مبني الفتوة وعليه الفتوى، والسادة الذين تكلم فيهم هؤلاء إذا مروا باللغو مروا كرامًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، وحيث تحرر الكلام في الكلام على مذهب أهل السنة واندفع عنهم بفضل الله تعالى، كل محنة ومهنة" إلى آخره.

إذًا، كل هذا كلام لا حقيقة له، الذي ذكره الألوسي هو أقرب إلى الانتقام منه إلى العدل، فابن تيمية وابن القيم وأمثالهم وابن كثير والذهبي وابن عبد الهادي، كل هؤلاء أئمة فضلاء، كان همهم نصرة السنة ونصرة الحديث ونصرة منهج السلف، لا كما يقول.

قلت: هذه عبارته في مقدمة تفسيره، وأنت رأيت ما اتهم به ابن تيمية وابن القيم وغيرهم من فضلاء السلفيين، من الطعن على العلماء، وهذه الفرية مكررة تتكرر من حين لآخر، كل من أراد الظهور بضلاله اتهم هؤلاء الأعلام بما ليس

فيهم، فهذه كتبهم وهذه مقالتهم منتشرة بحمد الله، من طالع عرف هؤلاء ليس لهم إلا إيضاح ما قاله الله وما قاله الرسول ﷺ وما قاله السلف الصالح، بأساليب تتصف بالأدب وحسن الخلق، لكن الذي لا يعرف كتبهم أو طالع وحجبه الهوى عن فهمها- يظن بهم هذه الظنون السيئة، نسأل الله العافية.

وعلى كل حال فالألوسي يقرر الذهب الأشعري والماتريدي ويدافع عنه، وسأنقل بعض عباراته من البحث الذي أشرت إليه، قال: "وأما ما شاع عن الأشعري من القول بسماع الكلام من نفس القائم بذات الله تعالى، فهو من باب التجويز والإمكان، لا أن موسى عليه السلام سمع ذلك بالفعل، إنه خلاف البرهان، ومما يدل على جواز سماع كلام نفسي بطريق خرق العادة في الحديث القدسي: ((ولا يزال عبدي يتقرب إليه بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به)) قال: كل هذا خرابيط، كأن الإنسان لا يعرف شيئًا، هذا كلام من لا يحسن شيء، ما فيه كلام اسمه كلام نفسي أبدًا، ما فيه أن موسى خُرق له، موسى سمع كلام الله بأذنه، وليس هناك كما هذه التحليلات الباطلة، هذا كله كلام من لا يعرف ومن لا يدري ومن يتخبط، هذا كله تخبط.

ومن الواضح أن الله -تبارك وتعالى- إذا كان بتجلّيه أن يري المتعلق بالحروف غيبة كانت أو خيالية أو حسية- سمع العبد على الوجه اللائق الجامع ليس كمثله شيء، عند من يتحقق معنى الإطلاق الحقيقي، صح أن يتعلق سمع العبد بكلامٍ ليس الحروف عارضة لصوت؛ لأنه بالله يسمع إذ ذاك والله سبحانه يسمع السر والنجوى، والإمام الماتريدي أيضًا يجوّز سماع ما ليس بصوت على وجه خرق العادة، كل هذا خبط.

كما يدل عليه كلام صاحب (التبصرة في كتاب التوحيد) فما نقله ابن الهمام عنه من القول بالاستحالة فمراده الاستحالة العادية، فلا خلاف بين الشيخين عند التحقيق.

قلت: هكذا يسبح هذا المؤلف في الخيالات والفرضيات، التي لا تستند إلى نص من كتاب وسنة؛ لأن هذه أمور غيبية ينبغي الاستناد فيها إلى النص، وقد وردت والحمد لله في هذا الباب نصوصٌ تغني عن هذا التكلفات وهذه الفرضيات الخيالية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فالله يتكلم بصوت وحرف بكلام يليق بجلاله، كما صحت بذلك الأخبار عن سيد الأخيار ﷺ، هذه كلها تخبطات؛ لو تقرأ هذه النصوص من كتاب التفسير ما تمسك أي شيء إلا الخرابيط، حالة ما تتصور ولا ينبغي أن تتصور، فلماذا الإنسان يعدل عن الأصل وعن الحقيقة وعن النصوص إلى هذه التخبطات المزرية؟ هذه تخبطات، قالها من قالها وكانت ممن كانت، لا تعقل، يعني: لا تدخل لا في العقل ولا تقبلها فطرة.

المراغي، سيد قطب، محمد الطاهر بن عاشور وتفسيره (التحرير والتنوير)

١- المراغي:

توفي سنة ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ميلادية، ألف وثلاثمائة وأربعة وستين هجرية، كان من شيوخ الأزهر، وله تضلع في علم البلاغة وعلم النحو، وله تفسير حاول أن يسلك فيه الطريق العصري بشرح المفردات وبالمعنى الإجمالي وبالطريقة التي سلكها بعض المفسرين، كمحمد حجازي وغيرهم.

وأريد أن أذكره نموذجًا؛ لأنه كان شيخ الأزهر؛ لأن كل الذي أذكره لا بد لي فيه من نكتة في الذكر؛ لأن كثيرًا من المتكلمين ومن المفسرين لم أذكرهم، يعني الكتاب هذا جعلته فهرسًا لكل المفسرين الخلافيين الذين أولوا الصفات، وقصدي أنني أحقق ما كان يردده شيخ الإسلام ابن تيمية: أن كتب التفسير دخلتها هذه العقبات أي عقيدة التأويل والتحريف، فقصدي أنني أجمع أكبر عدد ممكن حتى أحذر من هذه التأويلات وأجمعها من مصادرها، وأحث على الاستفادة بما فيها من خير ومن عبارات ومن علوم، لكن أحذر مما فيها من انحرافات عقدية، ومن أعظم الانحرافات العقدية هو الانحراف في باب الأسماء والصفات؛ لأن ليس هو بالسهل اليسير كما قلت في مقدمة المفسرون، الذي نحن نقرأ منها ونعتبره هو المقرر الذي اعتمدته في هذه المادة الأسماء والصفات؛ لأنه يجمع بنا التأصيل في قواعد السلف وذكر تأصيل الخلفيين، ثم كما سبق ذكر الكتب التي طبقت المنهج السلفي، والكتب التي طبقت المنهج الخلفي، أكرر هذه العبارات في كثير من الحلقات لأبين أن القصد هو الجمع بين الدراسة التأصيلية والدراسة العملية "النظري والعملي" كما يقولون الآن في الوقت الحاضر.

هذا الكتاب الذي هداني له، والحمد على هذه النعمة- يجمع بين القواعد التأصيلية وبين الأمثلة العملية التي لا يناقش فيها أحد؛ فلهذا اخترنا الشيخ المراغي من بين المفسرين؛ لنقف على تفسيره وعلى عقيدته في باب الأسماء والصفات.

قلت: الشيخ مصطفى المراغي من العلماء المعاصرين، الذين تأثروا بالشيخ محمد عبده، بل اعتبره البعض من أكابر تلامذة مدرسته، ومن الأزهريين الكبار، له

باع كبير في علم اللغة والبلاغة، حاول أن يقرب تفسير القرآن بطريق عصري سهل، إلا أنه أدخل في تفسيره بعض الأمور التي كان ينبغي له أن يتجنبها، ناقلًا ذلك من بعض المجلات الأجنبية وغيرها.

في هذا الوقت تأثر كثير من العلماء ومن المعاصرين بالواقع، كما سبق في رشيد رضا ومحمد عبده والقاسمي وشكيب أرسلان، كان وقت الهجوم الغربي على بلاد الإسلام، ومحاولة مسايرة الغرب في بعض حضارته، هذه كلها كان لها آثار على هؤلاء العلماء، فلهذا جوهر الطنطاوي جعل كتابه كله فيزياء وكيمياء ورياضيات وجغرافيا وجيولوجيا؛ يعني كأنك تريد أن تجعل القرآن على ذلك، كما كتب ذاك (مطابقة الاختراعات العصرية) حول ما دليل لها من أدلة، فلا حاجة لهذا كله؛ يعني ما صح فيه الدليل نذكره، وأما أن نتكلف لبعض الأمور أو نحمل القرآن ما لا يحتمل، فهذا لا حاجة له، القرآن هو كتاب هداية على رغم كل أحد، هو كتاب هداية يهدي إلى الحق، وأما عقيدته في الأسماء والصفات في تفسيره فهو مؤول في كل الصفات، ومن العجيب أنه أوّل صفات الاستواء ثم استدل على كلامه بمذهب السلف الذي نقله عن الحافظ ابن كثير.

لعلنا نأخذ هذه الصفة من تفسيره نموذجًا للتأويل، نأخذ صفات الإتيان والمجيء، قال عند قوله تعالى -أي: الشيخ المراغي، رحمه الله-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي: "ها هي ذي قد قامت الحجج ودلت البراهين على صدق محمد ﷺ، فهل ينتظر المكذبون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب، في ظلل من الغمام عند خراب العالم وقيام الساعة، وتأتي الملائكة وتنفذ ما قضاه الله يومئذ".

إذًا حول ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الصفة إلى شيء آخر، بما وعدهم الله من الساعة والعذاب، ﴿ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يعني

عجيب كيف يفهمون القرآن، والله عجيب!! ما علاقة بما وعدهم الله من الساعة والعذاب، بقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] يعني ما يمكن أن يفهم أحدٌ هذا الفهم إلا هؤلاء الذين تأثروا بعلم الكلام -والعياذ بالله- قالوا: والحكمة في نزول العذاب في الغمام إنزاله فجأة من غير تمهيد، ينذر به، ولا توطئة توطن النفوس على احتماله، هو راح فاد هذا التفسير، هو -مع الأسف- ما شاف جميع الآيات: الآية في سورة الأنعام والآية في سورة "الفجر" أيضًا.

٢- سيد قطب:

المتوفى سنة سبع وثمانين بعد الألف والثلاثمائة؛ يعني في القرن السابق من أواخر القرن الهجري.

السيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن تأثّر بمدرسة الإخوان المسلمين، ولعله أحد كبارها، وقد كتب كتبًا كثيرة؛ منها (العدالة الاجتماعية)، ومنها (التصوير الفني في القرآن)، ومنها (معالم في الطريق)، ومنها (في ظلال القرآن).

السيد قطب من يقرأ ترجمته وحياته، لعله عاصر وقتًا عصيبًا؛ لأنه في زمانه نشطت الشيوعية والاشتراكية نشاطًا، يعني في أوج عظمتها، والسيد قطب في الحقيقة لو تيسَّر له أن يتوجّه توجهًا صحيحًا في طلب العلم وفي الأخذ عن العلماء الثقات- لكان مصدرًا لأهل الإسلام؛ لأن كتبه تدل على براعة قلمه وأنه صاحب قلم، لكن تأثره بكثير من الاتجاهات أوقعه في كثير من الأخطاء؛ يعني وقع في الصحابة -رضوان الله عليهم-، وقع في الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

وفي باب الأسماء والصفات أيضًا يعني مثل بقية المؤولة في ذلك، فنرجو الله - تبارك وتعالى- أن يغفر له وأن يرحمه، ولا نرى أن الغلو في أحد يكفره أو يخرجه من الإسلام، وكذلك لا نرى الغلو في التعلق به والتمسك بأخطائه والدفاع عنها والاستماتة عليها، المسلم يهمه الحق، الحق يُدافع عنه، والباطل يحذر منه، ففيه من هو أفضل من السيد قطب الغزالي والرازي، وهؤلاء الأعلام الذين ذكرنا أسماءهم أعلم وأكبر من سيد قطب، ومع ذلك حذر منهم العلماء وتولوهم بالنقض والبيان، الإنسان على حسب ما هو عليه؛ فالإنسان إذا تاب وتراجع- الله تعالى قدير على أن يغفر له، فلعله حطّ أرحاله في الجنة ونحن لا ندري، كما قلت في مقدمة المفسرين.

فلهذا نحن لا نغالي، لكن نحذّر من هذه الأخطاء التي وقع فيها السيد قطب، في كتبه وفي منهاجه وفي طريقته؛ لأنها خارجة عن المنهج الصحيح؛ فلهذا لا نرى التعصب له، ولا نرى أن كل من حاول أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر نصفه بأنه قطبي، لا، الربط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض، التحذير من الخمر التحذير من الربا التحذير من الشرك- التحذير من البدع هذا أمر لا بد منه، فيعني: السيد قطب وقع في الأخطاء وهي أخطاء جسيمة وليست بالسهلة اليسيرة، فقال في موسى عليه السلام في كتابه (التصوير الفني في القرآن) قال ما لفظه: "لنأخذ موسى، إنه نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج"؛ يعني هذه العبارة في نبي من أنبياء، في نبي من أولي العزم من الرسل- لا تصح، الأنبياء نصفهم بالتعظيم وبالتقدير وبالأمانة وبالتبليغ، نصفهم بما يشرفهم لا بما يحط من قدرهم؛ لأن هذه العبارة تحط من قدر هذا النبي "الزعيم المندفع العصبي المزاج" هذه لو قيلت مثلا في عالم كبير من العلماء المعاصرين لقام الناس بالرد على من قالها، أو لو قيلت في شخصية كبيرة أو في شخصية مرموقة- لا يرضى الناس بأن

يقال في فلان: الزعيم المندفع العصبي المزاج، العصبي المزاج: بمعنى أنه مريض، يعني فيه مرض عصبي، إذا الإنسان تصفه بأنه مندفع وبأنه عصبي المزاج، فماذا بقي فيه؟! هذا لا يصلح أنه يكون نبيًّا.

ثم كلامه في عثمان ﷺ قال عنه في (العدالة الاجتماعية): "وآخر ما ثارت الثائرة على عثمان واختلط فيها الحق بالباطل والخير بالشر، ولكن لا بد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام ويستشعر الأمور بروح الإسلام- أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت أقرب إلى روح الإسلام واتجاهه من موقف عثمان وقال: "ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخٌ كبير ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام، وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان وكيد أمية من ورائه"، هذا لا يجوز أن يقال في صحابة رسول الله، وفي ذي النورين بالخصوص، وفيمن بُشر بالجنة، وفي الحييّ الذي تستحي منه الملائكة، وتكون الثورة عليه أقرب إلى روح الإسلام، يعني هذا أمر عجيب من السيد قطب!!

ثم قال عبارة في (الظلال) في سورة "الحديد" أقرب ما تكون إلى الحلول والاتحاد، قال عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] علم الحقيقة الكاملة، فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية - هذا هو الشاهد- فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية، وصادرة عنها، فهي مستغرقة إذًا بعلم الله اللدني بها، العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته، مهما علم المخلوقون في ظواهر الأشياء، فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلبهم فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه، وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود له حتى ذلك القلب ذاته، إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى، وكل شيء هو منذهب حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله المتفرد

بكل مقومات الكينونة والبقاء، وإن استقرار هذه الحقيقة في قلبهم ليحيله قطعةً من هذه الحقيقة فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار، فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش في تدبرها وتصور مدلولها".

هذا كلام واضح "وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله -يعني يحوله- قطعة من هذه الحقيقة -يعني الحقيقة الإلهية- فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار فإن هذه الآية -يعني قبل أن يصير إلى درجة الحلول -والعياذ بالله-.

كلام واضح في قضية الحلول.

وأما بالنسبة لعقيدته في الصفات، فقد وقع في التأويل، بل قال في تفسير سورة "الزمر" عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧] قال: "وكل ما ورد في القرآن وفي السنة من مثل هذه إنما هو تقريبٌ للحقيقة، فالله -تبارك وتعالى- وضعها في أسلوب يقرب بها ويمثل"، فالصفات التي وردت في القرآن وفي السنة في نظر السيد قطب، إنما هو مجرد تصوير لا حقيقة له، وهذه العبارة التي نقلت معناها هي قريبة جدًّا من عبارة الزمخشري في تفسيره، ومن كذب بهذا وشك فليرجع إلى الظلال، وليقرأ بنفسه متجردًا عن الهوى والحامية والحب الأعمى الذي يتصف به مع الأسف كثيرٌ ممن ينتسب إلى طلب العلم.

يعني: الإنسان لا علاقة له بالأشخاص، وإنما هي كتب انتشرت يجب التحذير منها، فالآن الذي يقرأ (التصوير الفني للقرآن) ويقرأ هذه العبارة بأن موسى مثال للزعيم المندفع العصبي المزاج، هذه مصيبة، والذي يقرأ (العدالة الاجتماعية) التي هي ذم للصحابة وذم لمعاوية وذم لأبي سفيان وذم لهند وذم لعثمان ﷺ كما سمعتم "من سوء الطالع أن تدرك عثمان الخلافة وهو في هذا السن"، وأن

الثورة التي قامت على عثمان هي أقرب إلى روح الإسلام، هذه كلها أخطار، المفروض أن هذه الكتب يحذر منها، وتبعد من المكتبات، والصادقون من العلماء ومن الذين لهم غيرة على الصحابة وعلى الأنبياء وعلى التوحيد.

في التصوف كما سمعتم عبارته في سورة "الحديد": ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ ﴾ أن الحقيقة هي التي تختلط بقلب الإنسان، ومعناها: الحلول، وكذلك الأسماء والصفات.

والشيخ عبد الله الدويش له كتابٌ جيد في هذا الباب، من أراد اقتناه، وأنا والحمد لله سبقت بالحديث على أخطاء السيد قطب في وقت مبكر، في سنة ألف وأربعمائة وواحد وثمانين من تاريخ الميلاد فرحم الله الجميع، ونحن لا نريد أن يكون عداوة -يعني الإشكال الذي بيننا وبين أي أحد- ولكن ننصح للأمة في المصادر وفي الكتب، ونحذرها من هذه العقائد الباطلة ومن هذه الكتب التي تحمل الباطل، فنقول: الكتاب إذا غلب عليه الحق ووجد فيه بعض الأخطاء العقدية، فيستفاد من الحق ويحذر، لكن إذا كان الكتاب مثل (العدالة الاجتماعية) بهذه المنزلة في ذم الصحابة وسب الصحابة والوقوع في الصحابة، الحقيقة مثل هذه الكتب ينبغي أن تحذر، يعني: نحذر منها.

٣- محمد الطاهر بن عاشور، وتفسيره (التحرير والتنوير):

محمد الطاهر بن عاشور، تفسيره اسمه (التحرير والتنوير)، وهو مطبوع منشور متداول.

ترجمته: قلت فيها: من أكابر علماء تونس، وله ابن كان على منواله، توفي عليه السلام قبل ثلاث وعشرين سنة، أما الأب فكان آنذاك ما يزال على قيد الحياة، هذا الكلام في ألف وأربعمائة وواحد طبعًا، فلا أدري الآن هل هو على قيد الحياة أم توفي، فإن كان الأخير فغفر الله له ولجميع المسلمين.

فصاحب التفسير على طريقة أهل بلده، يعني تقليد للمذهب المالكي والتبحر في فروعه، وقد حاول الشيخ أن يكثر في تفسيره من التحليلات اللغوية والبلاغية بأسلوب واسع.

وأما عقيدة الأسماء والصفات: فهو أشعري جلد، وقد صرح بذلك في بعض الصفات، يكثر من التحليلات والتعليلات، ويظهر بعض الاعتراضات التي لا تزيد من مذهب الأشعري لا تقعرًا، انظروا إلى طاغوت التأويل الذي اتخذه الأشاعرة عمدة في صفات الله بأنه سيف مسلول على الملاحدة، مع أن الذي يعرف حقيقته لا يزن عنده جناح بعوضة، وإذا ذكر عقيدة السلف يذكرها بخلط وضعف، وإنها عقيدة المساكين السذج؛ يعني عقيدته في الأسماء والصفات: هو كغيره، يؤول الصفات، فنأخذ مثالًا من تفسيره، حتى يكون حجة:

قال عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قال: "والغضب المتعلق بالمغضوب عليهم هو غضب الله، وحقيقة الغضب المعروف في الناس: أنه كيفيةٌ تعرض للنفس يتبعها حركة الروح إلى الخارج، وثورانها، فتطلب الانتقام، فالكيفية سببٌ لطلب الانتقام، وطلب الانتقام سبب لحصول الانتقام -كما تقدم عن غيرهم، ينقلون عبارة بعضهم عن بعض، لا يزيدون ولا ينقصون- والذي يظهر لي أن إرادة الانتقام ليست من لوازم ماهية الغضب؛ بحيث لا تنفك عنها، ولكن قد تكون من آثاره، يعني هي معارضة الانتقام، وأن الغضب هو كيفية للنفس تعرض من حصول ما لا يلائمها، فتترتب عليه كراهية الفئة المغضوب منهم، وكراهية فاعله، ويلازمه الإعراض عن المغضوب عليه، ومعاملته بالعنف ويقطع الإحسان وقد يفضي ذلك إلى طلب الانتقام منه فيختلف الحد الذي يثور عند الغضب في النفس باختلاف مراتب احتمال النفوس

للمنافرات واختلاف العادات، في اعتبار أسبابه، فلعل الذين جعلوا إرادة الانتقام لازمة للغضب بنوا على القوانين العربية، وإن كانت حقيقة الغضب يستحيل اتصاف الله تعالى بها، وإسنادها إليه على الحقيقة؛ للأدلة القطعية الدالة على تنزيه الله تعالى عن التغيرات الذاتية والعرضية".

يعني: ما أدري أيش هي الأدلة القطعية التي هي في ذهنه؛ كل هذا تقليد في تقليد، أن يقلد الرازي ويقلد الغزالي ويقلد ابن العربي يعني كل هذه ما هي أدلة قطعية أبدًا، الأدلة وهمية فقط.

"فقد وجب على المؤمن صرف إسناد الغضب إلى الله عن معناه الحقيقي".

"وجب" الواجب يحتاج إلى دليل ولا دليل، هذا كله مهاترات ونقول وتقليدات للغير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"فقد وجب على المؤمن صرف إسناد الغضب إلى الله عن معناه الحقيقي، وطريقة أهل العلم والنظر في هذا الصرف أن يصرف اللفظ إلى المجاز" هذه كلها أوهام "بعلاقة اللزوم أو الكناية باللفظ عن لازم معناه، فالذي يكون صفةً لله من معنى الغضب هو لازمه أعني العقاب" لماذا؟ من قال لك؟ ومن أخبرك؟ ومن أين أتيت بهذا اللازم؟ وما هو الفرق من ناحية التوهم وقبل أن تثبت الأصل الذي هو الصفة وتثبت اللازم؟ "يعني العقاب والإهانة يوم الجزاء، واللعنة أي الإبعاد عن أهل الدين والصلاح في الدنيا، أو هو من قبيل التمثيلية" الاستعارة التمثيلية.

"وكان السلف في القرن الأول ومنتصف القرن الثاني يمسكون عن تأويل هذه المتشابهات؛ لما رأوا في ذلك الإمساك من مصلحة الاشتغال بإقامة الأعمال التي هي مراد الشرع من الناس" يعني كل هذا أوهام وخلط وخبط؛ يعني: لا يستند في ذلك إلى علم، لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

"فلما نشأ النظر في العلم وطلب معرفة حقائق الأشياء، وحدث قول الناس في معاني الدين بما لا يلائم الحق- لم يجد أهل العلم بدًّا من توسيع أساليب التأويل الصحيح"، ما جاءوا إلا بالمصائب والبلاء "لإفهام المسلم وكبت الملحد" "فقام الدين بصنيعهم على قواعده، وتميز المخلص لهم عن ماكره وجاحده، وكلٌّ فيما صنعوا على هدى، وبعد البيان لا يرجع إلى الإجمال أبدًا، وما تأولوه إلا بما هو معروف في لسان العرب ومفهوم لأهله، فغضب الله تعالى على العموم يرجع إلى معاملته الحائدين عن هديه" يعني ما صارت الصفة! الآن صارت معاملة "العاصين لأوامره، ويترتب عليه الانتقام، وهو مراتب أقصاها عقاب المشركين والمنافقين بالخلود في الدرك الأسفل من النار، ودون الغضب الكراهية فقد ورد في الحديث: ((ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال)) ويقابلها الرضا والمحبة، وكل ذلك غير المشيئة والإرادة بمعنى التقدير والتكوين، فلا يرضى لعباده الكفر ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ ﴾ [الزمر: ٧] ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: ١١٢]".

المهم، الطاهر بن عاشور كغيره، يسبح في خيالات وفي تقديرات، ويدخل في متاهات، ولو أثبت الصفة على أصلها وعلى حقيقتها لأراح واستراح، ولكان على المنهاج الصحيح الذي كان عليه الرسول، وكان عليه السلف الصالح، هذا كله تخبط لا معنى له!!

هكذا ننتهي من هذه النماذج من المفسرين الخلفيين، وحاولت أن يكون هذا السرد متناسبًا في الزمن وفي واقع هذه التفاسير، وكما ذكرت أنني آخذ فقط نماذج لا أقل ولا أكثر، وتركت من المعاصرين الكثير؛ لأن المعاصرين أيضًا هم على طريقة المتقدمين المتأولين؛ فلهذا نكتفي بهذا القدر.

الرد على الخلف في الصفات التي أولوها (١)

عناصر الدرس

العنصـــــــر الأول :	الرد على القرطبي في الصفات التي أولها : صفة الرحمة، صفة الغضب والرضا ، صفة الاستهزاء، صفة الحياء	٣٤٧
العنصـــر الثـــاني :	الرد على القرطبي في الصفات التي أولها : صفة الاستواء، صفة الكرسي، صفة المحبة، صفة العندية	٣٥٩

الرد على القرطبي في الصفات التي أولها: صفة الرحمة، صفة الغضب والرضا، صفة الاستهزاء، صفة الحياء

القسم الخامس: الرد على تلك الصفات التي أولوها:

وارتأيت أن يكون الرد المفصل عليها من خلال تفسير أبي عبد الله القرطبي، فهو أجمع التفاسير للتأويلات السابقة، التي ذكرنا منها نماذج، وهو من أكبر كتب التفسير ومن أوسعها حجمًا؛ فلهذا ارتأيت أن يكون الرد بأبي عبد الله القرطبي رحمه الله في تأويلاته في تفسيره، وفي (أسناه) الذي ألفه في الأسماء الحسنى، فيكون هذا الرد على أبي عبد الله القرطبي هو الرد على كل المفسرين المؤولين الذين ذكرناهم في هذا الكتاب المبارك، والذين لما نذكرهم، ولعلنا إن شاء الله نذكرهم في طبعة أخرى، من ظفرنا به وبكتابه؛ لأننا شرطنا في هذا الكتاب أن نذكر كل الذين أوّلوا، ولا سيما المنتسبين منهم إلى أهل السنة، أما الشيعة فنذكر نماذج، والإباضية أيضًا نماذج، والمعتزلة نماذج، لكن المنتسبين إلى الأشاعرة والماتريدية، نذكر ما عثرنا عليه من القدماء ومن المعاصرين.

١- ترجمة القرطبي:

وهو لا شك من المؤولين كما ذكرت، القرطبيون كثيرون، هذا نسبة إلى قرطبة وهي مدينة من مدن الأندلس، التي كانت تزخر بالعلم وبالعلماء، وخرجت الفحول والأئمة في كل العلوم الشرعية واللغوية.

وصاحب التفسير -أي: صاحب الترجمة- توفي في أواخر القرن السابع، واحد وسبعون منه بعد الستمائة؛ يعني ٦٧١، ورغم شهرة هذا العالم، وأن تفسيره

من أكبر التفاسير، ورغم ذلك لا تجد دراسة مفصلة أو ترجمة مفصلة في كتب التراجم، ولعل هذا يرجع إلى أن لم يُحتفَ به كثيرًا في زمانه، وتنقله من الأندلس إلى مصر، أو غير ذلك والله أعلم، فبعد البحث والتتبع لكتب التراجم والطبقات وكتب الأندلس وطبقات المذاهب وغيرها والكتب المصرية- لم نظفر إلا بصفحة توجد في ديباج (المذهّب في المَذهب) لابن فرحون، وهذه الصفة هي التي يعتمد عليها كل من يتكلم على القرطبي.

وكتبت في تفسيره رسائل علمية في مادته العلمية وموارده، التي كوّن منها كتابه التفسير، وهو لا شك أنه جامع كاسمه، ضم بين صفحاته كتبًا كثيرة، ونقولًا مطولة، ولا سيما كتب (الأحكام) لأبي بكر بن العربي، وكذلك تفسير ابن عطية، والمهدوي، ومن الكتب ابن الثعلبي صاحب التفسير، وكذلك الحاكم الترمذي في (نوادر الأصول) و(صحيح مسلم) أيضًا من ناحية الأحاديث الصحيحة، وغيرها من الكتب، إلا أن تفسيره يتميز بالجمع بدون تمحيص واهتمام بالنصوص الصحيحة والضعيفة والموضوعة، فهذا لا يوجد في تفسيره، وإنما هو يوجد جمع، على أنه من خيرة التفاسير والمراجع التي يستفيد منها الطالب، ولا سيما إذا كان الطالب من طلبة العلم الذين يعرفون الضعيف والصحيح، ويميزون بين الغث والسمين، فتفسير القرطبي له من المصادر والمراجع.

لكنه في باب عقيدة الأسماء والصفات، فهو مؤول في كل الصفات، وكلامه في الاستواء نقله ابن القيم والذهبي على أنه من المثبتين لهذه الصفة، لكن الذي يقرأ أقواله يجد هناك فيها ما ينقض بعضها بعضًا، وعلى كل حال فنقرأ -إن شاء الله- في الصفات التي أولها على سبيل الاختصار، ثم نقرأ بعض الرد؛ لأن أحيانًا قد لا نستوفي قراءة الرد لطوله، وكما سبقنا، الصفات التي اعتمدناها هي الصفات

التي وقع فيها الخلاف في تأويلها، والأسماء كذلك، والظاهر والباطن والنور، هذه ثلاثة أسماء وقع فيها الخلاف، أما الصفات مع الأسماء فتزيد على العشرين صفة، التي وقع فيها التأويل، ولا شك أن هذه الصفات -والحمد لله- استفدنا من كتب الإمام ابن تيمية وابن القيم، ومن المتأخرين الذين هم على منهج السلف في النقول، وقد ارتأيت أن تكون هذه البحوث كلها بالنقول؛ حتى لا يقال: إننا نقول شيئًا من عندنا، فهذا كلام الأئمة وكلام العلماء وكلام الفحول، الذين هم أساتذتنا وعلماؤنا، ومنهم نستفيد، وبطريقتهم نقتدي.

أما عقيدته في الأسماء والصفات -كما سبق- فالمتتبع للتفسير و(الأسنى) و(التذكرة) في بعض مواضع يرى أن الرجل قد ذهب إلى ما ذهب إليه الأشاعرة في هذا الباب، فجميع الصفات الواردة في تفسيره أوّلها، ونقل أقوال المؤولة فيها، إلا الاستواء، فإن الذي يقرأ كلامه في سورة "الأعراف" يظهر له أن القرطبي يُثبت صفة الاستواء، ولكن إذا قارنا بين ما في الأعراف وما في (الأسنى) تبين له أن القرطبي لا يثبت صفة الاستواء، ولقد تكلمت على ذلك في محله بالتفصيل، ومن جهة أخرى فإن القرطبي عمدته في عقيدة الأسماء والصفات هي أقوال أئمة الأشاعرة وأساطينهم كالجويني وابن الباقلاني والإسفراييني والقلانسي والرازي وابن عطية وغيرهم.

إذن، مصادر التلقي عند أبي عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هم أئمة الأشاعرة وكبارهم والمصنفين منهم في المعتقد؛ فلهذا أمره واضح.

٢- صفة الرحمة:

فنبدأ بأول صفة ذُكرت وهي الصفة التي ذُكرت في أسمائه؛ أي: صفة الرحمة، بسم الله الرحمن الرحيم، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرحمة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]: "ولم يقل قريبة ففيه سبعة أوجه" وذكر هذه الوجوه لأنها إذا بدأنا نقرؤها ربما تطول، والشاهد: "وقيل: أراد بالرحمة الإحسان"، وقال في (الأسنى): قال ابن الحصار: "وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآيات الأخرى ﴿ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ فالرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمة قد تكون ذاتية لله تعالى، ترجع إلى إرادة فيض الخير عمومًا أو خصوصًا، فيكونان من صفات الأفعال، وإلى الرحمة الفعلية أشار بقوله تعالى: ﴿ وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً ﴾ [آل عمران: ٨]؛ إذ إن الصفات الذاتية لا توهب، وبقوله عليه السلام: ((إن رحمتي سبقت غضبي)).

قلت في (التعليق): هذا الذي ذكره أبو عبد الله القرطبي في تأويل صفة الرحمن بإرادة الإنعام والفيض بالإحسان والخير، هو مذهب المتأولة من أشعرية ومعتزلة وغيرهما.

نرد على هذا التأويل: الإمام ابن القيم رحمه الله ذكر في (الصواعق) ردًّا طيبًا، وقال: "إن الله تبارك وتعالى فرّق بين رحمته ورضوانه وثوابه المنفصل، فقال تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١]، فالرحمة والرضوان صفته، والجنة ثوابه، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة ثوابًا منفصلًا مخلوقًا، وقول من قال: هو إرادة الإحسان، فإن إرادة الإحسان هي من لوازم الرحمة، فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان؛ الآية التي استدل بها العلامة ابن القيم رحمه الله يعني تفرق بين الصفة وبين لوازم الصفة، يعني: لوازم الصفة هي الجنة، والصفة هي رحمته ورضوانه؛ فلهذا تعطيل الصفة هو تعطيل للوازمها، ثم إن هذا التعطيل وهذا التأويل لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة، ولا أن صرف اللفظ عن ظاهره إلى لازمه له دليل؛ فلهذا نُعرض على هذا التأويل ونثبت لله -تبارك وتعالى- الرحمة، التي هي

صفته في كل موارد القرآن وفي كل موارد الحديث الصحيح، فلا حاجةَ إلى أن نقول: إرادة الإحسان أو إرادة الإنعام، أو الإحسان أو الإنعام باللازم- فلا يجوز، فلا داعي له، فلهذا نثبت لله تعالى رحمةً تليق به في كل مواردها في الآية والأحاديث الصحيحة.

وقال في (إبطال التنديد): "غلط بعض المتأخرين في تفسير الرحمن بكمال الإنابة، والرحيم بما دون الكمال، وبإرادة الإنابة؛ فإن ذلك مذهب أهل التأويل الباطل من الجهمية المبتدعة".

إذن، هكذا تتابعت الأقوال في الرد على المؤولة، الذين يؤولون صفة الرحمة بإرادة الإنعام أو بإرادة الثواب أو بإرادة الآخرة، أو بأي تأويل من أنواع التأويلات.

٣- صفة الغضب والرضا:

ننتقل إلى صفة أخرى من التي أولّها أبي عبد الله القرطبي، وهي صفة الغضب والرضا.

قال عند قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] "والغضب في اللغة: الشدة، ورجل غضوب: أي شديد الخُلق أو شديد الخَلق، والغضوب: الحيلة الخبيثة؛ لشدتها، والغضبة: الدرقة من جلد البعير، يطوى بعضها على بعض، سميت بذلك لشدتها، ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة العقوبة، فهو صفة ذاتية، وإرادة الله تعالى من صفاته الذاتية، أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: ((إن الصدقة تطفئ غضب الرب)) فهو صفة فعل.

إذًا تأويله مستمر في الصفات، كما سبق في تأويله لصفة الرحمة، وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]: "أي يرضى

الشكر لكم ؛ أن تشكروا يدل عليه، وقد مضى القول في الشكر في البقرة وغيرها، ويرضى بمعنى يثيب ويثني، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإما ثناؤه فهو صفة ذات"

إذًا نفس التأويل، لا يختلف.

قلت في التعليق: هذه من الصفات التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في (الواسطية) وننقل ما قاله الشيخ الهراس في هذا الموضوع.

قال الشيخ في شرح (العقيدة الواسطية) عند قول المصنف ابن تيمية رحمه الله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]:

"تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل لله، من الرضا والغضب واللعن والكره والسخط والمقت والأسف، وهي عند أهل الحق صفاتٌ حقيقية لله عَزَّ وَجَلَّ، على ما يليق به، ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق، فلا حجة للأشاعرة المعتزلة على نفيها، ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عَزَّ وَجَلَّ بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هي في المخلوق، وهذا الظن الذي ظنوه في ربهم أرداهم فأوقعهم في حمأة النفي والتعطيل، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة كما علمت سابقًا فالرضا عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط إرادة العقاب، وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب".

قلت: قد جمع أبو عبد الله القرطبي تأويلين في صفة الرضا والغضب كما هو واضح.

إذًا، هذا رد مباشر على المؤولين لصفة الغضب وصفة الرضا، وأن الذي حملهم على هذا التأويل ظنهم أنهم إذا أثبتوا لله تعالى هذه الصفات شبهوه بالمخلوق، فيريدون تنزيهه بهذا التأويل وهذا التعطيل، ولا شك أنهم كلما أولوا شيئًا إلا ووقعوا فيما فروا منه؛ لأن الإرادة في الله وفي الإنسان، الله يريد والإنسان يريد، لكن إرادة الله غير إرادة الإنسان، والأولى له أن يسلك الطريق الأمثل الذي سلكه السلف الصالح، وهو تنزيه الله -تبارك وتعالى- عن مشابهته للمخلوقات، وأن يثبت له ما أثبته لنفسه، فالذي أثبته لنفسه نثبته له.

المهم، هذه الصفة نقلت فيها أقوال العلماء وردودهم، الذي يريد أن يرجع، يرجع إليها حتى لا نطيل المقال في هذا الموضوع؛ لأن هذه أمور -ولله الحمد- واضحة غاية الوضوح، والذي يتمعن فيها يجدها من أيسر الأمور ومن أسهلها؛ لأن هذا الذي يوافق الفطرة ويوافق العقل، وهو الإثبات، والذي يخالف العقل ويخالف الفطرة هو النفي والتعطيل، هذه أمور لا تعقل؛ لأننا إما عرضناها على العقل وجدناها أمور لا تنضبط، ليس لها أي ضابط، وليس لها أي حجة لا لغوية ولا شرعية؛ حتى تتبع.

٤- صفة الاستهزاء، وما شاكلها:

ننتقل إلى صفة أخرى وهي صفة الاستهزاء:

في القرآن صفات كثيرة، منها الاستهزاء، منها المكر، منها الخداع، وكلها نسبت لله -تبارك وتعالى- ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا ﴾ [النمل: ٥٠] ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة:

١٥]؛ لأن كل هذه الصفات ذكرت في القرآن، غالب المفسرين يؤولونها يفسرونها بالمقابلة؛ يعني مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] وكما سيأتي: أن هذه الصفات يوصف الله -تبارك وتعالى- بها على ما يليق به؛ لأنها.. لا شك أن الإنسان إذا فعل هذه الصفات يفعلها على طريق النقص، لكن الله -تبارك وتعالى- إذا جازى من فعلها في حقه عدل، وليست بظلم، الإنسان يفعلها ظلمًا وعدوانًا والله -تبارك وتعالى- يفعلها عدلًا وحكمة؛ لهذا إذا وُصف بها فلا محذور في ذلك، على ألا يشتق له منها اسم كبقية صفات الكمال، فكل الأسماء اشتقت من الصفات، فالكريم من الكرم، والحليم من الحلم، والعليم من العلم، وهكذا كل الأسماء اشتقت من الصفات، بخلاف هذه الصفات الإنسان لا يجوز أن يقول في الله ماكر ولا مستهزئ ولا مخادع، ولا شيء من ذلك، فهذه كلها في حق الله لا تجوز، ولكن أن نتركها أن نصف الله تعالى بها كما وصف بها نفسه على طريق الكمال والعدل، فهذا لا إشكال فيه.

أبو عبد الله القرطبي ﵀ في تفسيره ذكرها وأطال فيها الكلام كثيرًا، وقال فيها بعض الكلام الطيب الذي نقله عن بعض السلف، لكنه على طريق التأويل، فإنه يؤوله.

قلت في التعليق: والأرجح في هذا كله أن نثبت هذه الأوصاف لله تعالى كما وردت بذلك الآيات والأحاديث، على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير أن يشتق له اسم أو صفة، لا يقال: ماكر ولا مخادع ولا مستهزئ تعالى الله عن ذلك.

قال ابن القيم ﵀: "فإن إثبات الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى، والفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالًا

لم يتسم منها بأسماء الفعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يسم المريد والشائي والمحدث، كمن يسمي نفسه بالصانع والفاعل والمتقن، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسمًا، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر والمخادع والفاتن والكائد ونحو ذلك".

فابن القيم رحمه الله يقرر هنا أن الذي يطلق على الله أمور بعضها أوسع من بعض، وبعضها أضيق من بعض من حيث الإطلاق، فالتضييق في باب الصفات وفي باب الأفعال وفي باب الأسماء هذا لا يجوز أن يطلق على الله تعالى إلا بدليل وبحجة، لكن باب الأفعال أوسع، فما ثبت في القرآن وصحيح السنة من نسبة فعل إليه يجوز، وكذلك من باب الإخبار أن تخبر عن الله بما يجوز في حقه، لا ترتبط في ذلك بدليل لا من كتاب ولا من السنة فتقول: هو موجود وتقول: هو صانع وتقول: مميت وتقول: محيي وتقول كل ما يعني يجوز في حقه تبارك وتعالى من أن تخبر به.

لكن أن تصفه بصفة أو تسمه باسم لا بد في ذلك من دليل، وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أو أوسع من تسميته به فإنه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد ولا يسمى بذلك.

وقال رحمه الله في (إعلام الموقعين): "وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ﴾ كما سبق ونحو قوله: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قال رحمه الله: وقيل: وهو أصوب بل تسمية ذلك حقيقة على بابه، فإن منكر إيصال الشيء إلى غيره بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنهم نوعان: قبيح؛ وهو إيصال ذلك لمن لا يستحق، وحسن وهو إيصاله إلى من يستحقه عقوبة له، فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه أهل الملة وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعبادهم، وأما السيئة فهي فعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها فهي سيئة له حسنة من الحاكم العادل".

إذًا ابن القيم في هذا الموضوع يؤكد أن هذه الصفات لله تعالى حقيقية وليست مجازية، لكنها نوعان، فبالنسبة للمخلوق سيئة وهي ظلم وقبيح، لكن بالنسبة للخالق هي كمال؛ لأنه تبارك وتعالى يفعلها بمن يستحق، فهو يمكر بمن يستحق المكر، ويخدع بمن يستحق المخادعة، ويستهزئ بمن يستحق الاستهزاء، فهي بالنسبة له تبارك وتعالى حكمة وعدل، وبالنسبة لغيره ظلم وجور.

فلهذا وصف الله تعالى بها الحقيقة والصواب، وأن نقف عند النص، وكما سبق في اطلاع الحديث لا يشتق لهم العيش، لا نقول فيه ماكر ولا مخادع ولا كائد ولا غيرها، وقد ذكر المؤلفين في الأسماء الحسنى غلط، فاشتق له من هذه الأسماء التي توهم نقصًا، اشتق له من الأسماء فبلغ بعدده ما بلغ من الاشتقاق، فاشتق له من الفاتن واشتق له من الماكر واشتق له من المخادع وكل هذا لا يجوز.

إذًا نلتزم بما ورد في القرآن وما ورد في السنة، ونصف الله تبارك وتعالى بما وصف به نفسه من هذه الصفة، ولا نقول: هو من باب المقابلة ومن باب الاستعارة، وغير ذلك مما قاله من يؤول الصفات، فإذن نحرر هنا هذه الصفة ونقول كما قال علماؤنا وأئمتنا في هذا الموضوع -ابن تيمية وابن القيم وغيرهم- بأن هذه صفات بالنسبة لله تعالى صفات كمال وليست صفة نقص.

٥- صفة الحياء:

نحن الآن مع القرآن مع في بداية البقرة الصفات السابقة كلها في بداية البقرة، الرحمة من بسم الله الرحمن الرحيم، والغضب من المغضوب عليهم، وبه الرضا لأن الحديث عن الرضا والغضب متلازمان، والاستهزاء: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥]، والحياء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ فنحن في صفة الحياء.

قال عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] قال: "واختلف المتأولون في معنى يستحيي في هذه الآية، فقيل: لا يخشى ورجحه الطبري، وفي التنزيل: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] بمعنى تستحيي. وقيل غيره لا يترك وقيل: لا يمتنع، وأصله الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح، وهذا محال على الله تعالى، إذًا لا تأويله وإشكاليته، يعني توهم التشبيه في الإثبات".

فالآن كلمة أبي عبد الله القرطبي رحمه الله هنا وهم ممتنعون في حق الله تعالى، والله تعالى له حياء يليق به، والمخلوق له حياء يليق به، وهذا محال ليس محال لو محال ما ذكره الله تعالى في القرآن ولا وصفه به رسوله: ((إن الله حيي يستحي من عبده إذا رفع عبده يده أن يردهما صفرًا)) ما هذا الكلام؟ كلام الرسول ﷺ.

وقول أم سلمة: ويقرأ الرسول ﷺ: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والمرأة إذا رأت ماء الرجل من غسل يرجع من غسل.

هذه كلها نصوص فصيحة صحيحة فلم نحن الرسول يتكلم والقرآن يتكلم والصحابة يتكلمون، ونحن نصرف ونؤول ونعدل، يجب ما يأمرون يجب لا القصد هو كذا وكذا يعني هي اللغة، يعني خطاب مباشر ما هو خطاب

منحرف، أو أنا أقول شيئًا وأقصد شيئًا آخر، لا يمكن لأنا إذا قلنا هذا في القرآن فالمعنى أن القرآن هو لغط هو إشارات، يعني لا يفهمها الناس، وتكلف الناس بما لا يقدرون ولا يطيقون.

هذه كله لا بد أن نستحضر هذه الأمور لا أحيان، والقرآن لا يستحيي أن يضرب مثلًا الآية، شو نقصد ويستحي؛ لأن الله تعالى لا يستحيي، تغير وانكسار هذه في حقنا، لكن في حق الله تبارك له حياء يليق به فالله المستعان.

قلت: ما ذكره ابن عبد الله القرطبي من تأويلات في صفة الحياء مخالف لما عليه منهاج السلف، مِن إثبات الصفات على ما جاءت من غير تكييف ولا تحريف، فلله -تبارك وتعالى- حياء يليق بجلاله وعظمته.

ذكر الألوسي كلامًا طيبًا في هذا الموضوع في هذه الصفة بالخصوص، ونقلته لاختياري له لأن كما سبق أنا نستفيد من كل المفسرين، ما قالوا من حق أخذناه وما فيه من مخالفة تركناه، وكل قائل إلى أن تقوم الساعة ومنا نحن ما فيه حق صار يؤخذ عنا، وما فيه من خطأ لا يؤخذ.

قال الألوسي رحمه الله في (روح المعاني): "وللناس في ذلك مذهبان، فبعضهم يقول بالتأويل إذ الانقباض النفساني بماذا لا يحرم حول حظائر قدسه سبحانه، فالمراد بالحياء عنده لازم الانقباض وجوز جعل ما هنا بخصوص من باب المقابلة لما وقع في كلام الكفرة، بناء على ما روي أنهم قالوا: ما يستحي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، هذا تفسير لفكرة التأويل.

قال -رحمه ال-له: وبعضهم وعلى والحمد لله منهم لا يقول بالتأويل، بل يمر هذا وأمثاله مما جاء عنه سبحانه في الآية والأحاديث على ما جاءت، ويكل علمها بعد التنزيه عما في الشاهد إلى عالم الغيب والشهادة".

إذًا هذا هو الصحيح والصواب وهو الإثبات والتنزيه، ونكل العلم للكل والكيفية على رب العالمين، يعني ما كلفت أنك تعرف الكنه والحقيقة، ولكن كلفت أن تؤمن بما قاله الله وبما قاله الرسول على ما يليق به؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

الرد على القرطبي في الصفات التي أولها: صفة الاستواء، صفة الكرسي، صفة المحبة، صفة العندية

١- صفة الاستواء:

هذه الصفة تأتي لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] أول ما ذكرت مع أنها يعني ذكرت بالصريح في سبع آيات أخرى، ذكرت في الأعراف وذكرت في يونس وذكرت في طه وذكرت في الفرقان وذكرت في السجدة وذكرت في الحديد، هذه هي، يعني كان الذي ذكر فيها الاستواء حقيقة.

وكل الآيات التي فيها الفوقية والعلو فتدل على علو الله، سنمر ببعضها إن شاء الله، هذا الصفة في الحقيقة يعني الناس تنازعوا فيها كثيرًا، وألفوا فيها مؤلفات خاصة للرد على المخالفين في ذلك، فمنهم الذهبي رحمه الله ألف كتابه (في العلو) وقد اختصره الشيخ الألباني رحمه الله وهو كتاب نفيس في بابه، وألف الإمام ابن القيم كتابه (الجيوش الإسلامية) وهو كتاب نفيس أيضًا جمع فأوعى، فهذه الكتب وكذلك البخاري رحمه الله ذكره في كتاب التوحيد آخر كتب البخاري،

وذكره اللالكائي، وذكره كل من ألف في العقيدة، وذكره العلامة ابن تيمية في كتبه ودافع.

المهم القضية هي قضية كبيرة، والذي ينبغي أن يسير إليه المسلم، وهو أن نؤمن بالآيات على ظاهرها والأحاديث على ظاهرها، وأن نعتقد أن الله تبارك وتعالى استوى استواء يليق به، ولا محالة في ذلك ولا استحالة، فهو تبارك وتعالى يفعل ما يشاء وله القدرة على كل شيء، وليس استواء الله كما قد يفهم أنه محتاج إلى العرش، وأنه لو سقط سقط العرش لسقط الله تبارك وتعالى على حد تعبيرهم هذا، فالأمر فهو مستغن عن كل شيء، والغني هو الله، غني غنًى مطلق.

قال القرطبي رحمه الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: "والاستواء في اللغة الارتفاع والعلو على الشيء. قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقال: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٣] أي: ارتفع وعلا، واستوت الشمس على رأس واستوت الطير على قمة رأسه بمعنى: علا.

قال: وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة وجوه. قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها، وهذا وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روي عن مالك رحمه الله أن رجلًا سأله عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] فقال مالك: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء أخرجوه.

وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمل ظاهر اللغة، وهذا قول المشبهة. وقال بعضهم: نقرؤها ونتأولها ونحيل حملها على ظاهرها".

والصحيح هو القول الأول الذي قال: نقرؤها ونؤمن بها صح، ولا نفسرها يعني ولن نكيفها، واستدل بمقولة الإمام مالك المشهورة هذا هو السبب.

وقال ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القول في الجهة، وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه، حتى نفس المعتزلة ثم تبعهم عليها متأخرو الأشعرية، كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله. هذا كله كان على أبو نواس.

قلت: أبو المعالي هو الأستاذ الكبير لأبي عبد الله القرطبي وللشيخ الذي ذكر أقواله في كتابه (الأسنى) في نفي الجهة، وتأويل الآيات والأحاديث التي تدل على علو الله تعالى واستوائه فوق عرشه.

ثم قال ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة مثل قوله تعالى: ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧] ومن قوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥] ومثل قوله: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] ومثل قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها عاد الشرع كله مؤولًا.

وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله من المتشابهات؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب وإياها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدة المنتهى.

وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك، والشبهة التي قادت نفاة الجهة إلى نفيها هي أنهم اعتقدوا أن إثبات الجهة يوجب إثبات المكان، وإثبات المكان يوجب إثبات الجسمية، ونحن

نقول: إن هذا كله غير لازم؛ فإن الجهة غير المكان، وذلك أن الجهة إما سطوح الجسم نفسه المحيطة به وهي ستة، وبهذا نقول للحيوان: فوق وأسفل ويمين وشمال وأمام وخلف.

وأما سطوح جسم آخر محيط بجسم الجهات الست، فأما الجهات التي هي سطوح الجسم نفسه فليست بمكان الجسم نفسه أصلًا، وأما سطوح الإنسان المحيطة به فهي له مكان مثاله سطوح الهواء المحيطة بالإنسان، وسطوح الفلك المحيطة بسطوح الهواء هذه هي مكان للهواء، وهكذا الأفلاك بعضها محيط ببعض ومكان لها.

وأما سطح الفلك الخايل اعتبر على أنه ليس خارج الجسم؛ لأنه لو كان ذلك كذلك لوجب أن يكون خارج ذلك الجسم جسم آخر، والأمر إلى غير نهاية". إلى آخر ما ذكر رحمه الله من أدلة وبراهين على أدلة العلو. وهي يعني مقطع طويل من كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) لابن رشد الصفحة كذا وكذا.

قال الشيخ عبد الرحمن الوكيل عقب هذه العبارة الطويلة من إمام أهل الفلسفة، هذا كلام الشيخ الوكيل: "كلمة حق نطق بها فيلسوف الأندلس، فهل يعقل الذين يزعمون أنهم أرباب الفكر عن فيلسوف يرونه كبيرًا يسابق أرسطو، يعني الشيخ رحمه الله الوكيل- يعيد ابن رشد في هذه التحليلات العلمية الفلكية التي أقامها، وبرهن بها على أن الله -تبارك وتعالى- مستوٍ على عرشه.

وبين أنواع الإحاطات في الأفلاك وأن بعضها يحيط بعضًا، وليس من وراء هذه الأفلاك محيط آخر؛ لأننا إذا قلنا أن وراء هذه الأفلاك محيط آخر يؤدي ذلك إلى الدور والتسلسل وإلى ما لا نهاية، فلهذا هذه الأفلاك كلها، يعني الله -تبارك

وتعالى- مبين لها فهي يحيط بعضها بعضًا، وبعضها يحيط بالآخر، والله -تبارك وتعالى- محيط بالجميع، فهو الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار".

فهذه التحليلات العلمية التي قام بها هذا الفيلسوف الشيخ الوكيل، هذا العرض وهذا التحليل الذين يزعمون أنهم أرباب الفكر يعقلون ما قاله هذا المؤلف ابن رشد في (الكشف).

قلت: وفيما ذكره إمام أهل الحديث الذهبي في علوه وإمام أهل الفلسفة بدون منازع رد واف على القرطبي وشيخه، في تكلفهما في الكلام على الجهة، وتقليدهما وترديدهما لعبارة غيرهم، وللإمام ابن القيم كتاب عظيم في هذا الباب (الجيوش الإسلامية) ذكر فيه من الأدلة العقلية والنقلية والفطرية ما يثبت به علو الرب -تبارك وتعالى- واستواءه على عرشه.

٢- صفة الكرسي:

الكرسي جاء في الآية: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والعنوان للصفة وموضع القدمين، هذه الصفة في إثبات صفة القدم لله تعالى، فلهذا أدخلناه في باب الصفات وأدخله غيره من المؤلفين.

التأويل الذي حصل في الكرسي بعد سياق لأبي عبد الله لا أحب أن أقرأه؛ لأنه ربما فيه تكرار وفيه الكثير من الأمور، يعني التأويل الذي في هذه الصفة هو العلم، وسع كرسيه فسرها بالعلم، هذا هو التأويل، وسع كرسيه السماوات والأرض أي علمه، فنبين أن الكرسي الصحيح من أقوال العلماء هو أنه موضع القدمين وليس العلم، والروايات كلها في العلم روايات ضعيفة التي جاءت عن ابن عباس وغيره.

قلت التعليق: لقد ذكر أبو عبد الله القرطبي الأقوال الواردة في الكرسي، والقول الراجح منها، ما نقله عن أبي موسى الأشعري وأنه موضع القدمين، وإن كان نقل تأويل ابن عطية لهذا القول، وأقره وضعف قول الحسن وذكر أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش، وأن هذا قول ابن عطية ولكنه تبناه.

والصحيح من ذلك أن الكرسي موضع القدمين لصحة الآثار بذلك، كما صح عن ابن عباس ﵁ موقوفًا، وروي مرفوعًا عن أبي ذر، وما صح عن ابن عباس لا يقال من قبل الرأي فله حكم الرفع، وإذا كان كذلك ففيه إثبات القدمين لله عز وجل على ما يليق بجلاله، إذًاهذا هو الرد والتصدير عن ذكر أقوال القرطبي، وذِكر الصحيح الذي ينبغي أن يعتمد في صفة القدمين الذي هو تفسير الكرسي الذي هو موضع القدمين.

وقد رد الدارمي في نقده على المريسي قوله في تفسير الكرسي بالعلم. قال المريسي في تفسير الكرسي: "قلت: فمعنى الكرسي العلم فمن ذهب فيه إلى غير العلم أكذبه كتاب الله". هذا كلام المريسي.

قال الدارمي: "فيقال لهذا المريسي: أما ما رويت عن ابن عباس فإنه من رواية جعفر الأحمر، وليس جعفر ممن يعتمد على روايته؛ إذ قد خلفه الرواة الثقات المتقنون. وهناك في الهامش الكلام على الحديث وعلى مصدره وعلى جعفر الأحمر بالتفصيل، وقد روى مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﵄ في الكرسي خلاف ما ادعيت عن ابن عباس.

وذكر بسنده إلى ابن عباس: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله، فأقر المريسي بهذا الحديث وصححه، وزعم أن وكيعًا رواه، إلا أن تفسير

القدمين ها هنا في دعواه الثقلين قال: يضع علمه وقضاءه للثقلين يوم القيامة، فيحكم فيهم، فهل سمع سامع من العالمين مثل ما ادعى هذا المريسي؟!".

إذًاهذه يعني كبوة وهذه يعني زلة من الزلات، ومن الأمور التي تجدها عند المؤولين، يعني أوهام وزلات وأوهام، ما علاقة الكرسي موضع القدمين بهذا الثقلين وبالحكم وبالقضاء، ما هذا ما فيه سياق هذه الآية، يعني سيقت لذكر عظمة الرب وذكر أسمائه وصفاته، ما ذكرت للحكم وللقضاء، وما ذكره المريسي، فلا شك أن هذه من الزلات ومن الهفوات ومن الأخطاء ومن الضلالات التي قالها المريسي وغيرها من الضلالات.

وقال شارح (الطحاوية) عند قول المصنف: "والعرش والكرسي حق، وأما الكرسي فقال الله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقد قيل هو العرش والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، ورواه ابن أبي شيبة في كتابه (صفة العرش) والحاكم في المستدرك وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى".

وقد روي مرفوعًا والصواب أنه موقوف على ابن عباس، كما سبق الهامش أنه فيه البحث كامل على الأحاديث وعلى المصادر التي يوجد فيها الحديث.

وقد قال الإمام أبو عبد الله بن الخفيف في كتابه الذي سماه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات) كما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية قال شيخ الإسلام: "ثم ذكر حديثًا حديث: ((يُلْقَى في النار وتقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها الجبار رجله)) وفي رواية البخاري ((حتى يضع عليها قدمه)).

ثم ما رواه مسلم البُطِين عن ابن عباس أن الكرسي موضع القدمين، وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله. وذكر قول مسلم البطين نفسه وقول السدي وقول ابن منبه وأبي مالك، وبعضهم يقول: موضع القدمين وبعضهم يقول: موضع رجليه". هذا كله نقل الشيخ ابن تيمية عن ابن خفيف.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية لما سئل عن العرش والكرسي فأجاب رضي الله عنه: "الحمد لله بل العرش موجود بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف.

وقد نقل عن بعضهم أن الكرسي هو علمه وهو قول ضعيف؛ فإن علم الله وسع كل شيء كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل: وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنى مناسبًا، لاسيما وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يثقله ولا يكرسه وهذا يناسب القدرة لا العلم، والآثار المأثورة تقتضي ذلك، لكن الآيات والأحاديث في العرش أكثر من ذلك صراحة متواترة.

وقد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمانين، الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في أصول السنة، قال فيه: باب الإيمان بالكرسي: ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش وأنه موضع القدمين.

ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة وفيه: ((فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه، ثم يجيء بكرسي على منابر من ذهب مكللة بالجواهر، ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها)). وذكر ما ذكره يحيى بن

سلام صاحب التفسير المشهور، فذكر بسنده إلى ابن عباس أن الكرسي الذي وسع السموات والأرض لموضع القدمين، ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه.

وذكر من حديث أسد بن موسى فذكره بسنده إلى ابن مسعود قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه". كل هذا من كلام ابن أبي زمانين رَحِمَهُ اللَّهُ والحديث هنا مخرج في الهامش تخريج تفصيلي.

٣- صفة المحبة:

قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] "قال ابن عرفة: المحبة عند العرب إرادة الشيء على قصد الله. قال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما، ثم ذكر الآية".

إذًا أن التأويل واضح وهو أن القرطبي ينقل عن ابن عرفة قال: المحبة عند العرب إرادة الشيء إلى قصد الله، بمعنى حولها إلى إرادة، وكذلك نقل عن الأزهري لكن الأزهري كلامه فيه أحوط؛ لأنه قال: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباع أمرهما، يعني هذا ليس فيه تأويل واضح لكن الأول هو الذي فيه التأويل الواضح.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ ﴾ [آل عمران: ٣١] قال القرطبي: "ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران". هذا هو كلام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ. قال الله تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] أي لا يغفر لهم يعني تفسير القرطبي. المهم هذا هو التأويل.

يعني التأويل هو محبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران؛ يعني في الأول الكلام ابن عرفة المقصود عنده هو إرادته الثواب وهذا فإنه مما يأتون بالإرادة أو بالإنعام، فهو جمع بين الأمرين.

التعليق عليه الرد هذا الذي ذكره القرطبي في تأويل المحبة هو مذهب الأشاعرة، ذكر الشيخ الهراس رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر الآيات آيات المحبة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في (الواسطية) وهي على يعني قلة صفحاتها ووجازتها فهي تحمل علمًا كبيرًا.

قال: "تضمنت هذه الآية -هذا كلام الشيخ الهراس رحمه الله- تضمنت هذه الآية إثبات أفعال الله تعالى، ناشئة عن صفة المحبة، ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية، التي تتعلق بمشيئته".

فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة، إذًا هذا هو تقرير السلف في صفات في صفات المحبة، وأن الله تبارك وتعالى يحب بمشيئته ما شاء أحبه، وهي من الصفات الاختيارية أي الفعلية مثل النزول ومثل الغضب ومثل الرضا ومثل غيرها، فإذن هذا تأصيل المنهج السلفي والرد على المخالفين الذين يؤلونها بإرادة الثواب وبالإنابة كما سبق عن القرطبي.

وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصان، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة كما سبق فيقولون: إن محبة الله للعبد لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته، وكذلك يقولون في صفة الرضا والغضب والكراهية والسخط، كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء، بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي.

وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق بجلاله، فلا تقتضي عندهم نقصًا ولا تشبيهًا، كما يثبتون اللازم لتلك المحبة وهي إرادته سبحانه وإكرام من يحبه وإثابته، وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة: ((إن الله عز وجل إذا أحب عبدًا قال لجبريل عليه السلام: إني أحب فلانًا فأحبه. قال: فيقول جبريل -عليه السلام لأهل السماء: إن ربكم عز وجل يحب فلانًا فأحبوه قال: فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغضه فمثل ذلك)) الحديث في الصحيح.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في (المجموع): "فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أثبت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ويحب المقسطين.

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)) وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام".

إذًا هذا الموضوع تتباعد فيه أقوال أئمة السلف في تأصيله وفي توضيحه وهو واضح بحمد الله، فأي قارئ من القراء الفطريين الذين سلمت فطرتهم، يرى الفائدة واضحة والمنهج العقدي واضحًا في هذا الباب، ويتبين له بما لا يشك فيه أن التأويل مذهب باطل، وأنه من التحريف الذي لا ينبغي اعتماده، ولا ينبغي استساغه ولا ينبغي الدعوة إليه، فبالعكس يجب على المسلمين أن يرجعوا بالناس إلى منهاجهم الصحيح، وإلى سلفهم الصالح رضوان الله عليهم، الذين كانوا على الهدى والذين أُمرنا بالاقتداء بهم فرضي الله عنهم وأرضاهم.

٤- صفة العندية:

قال عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه حذف مضاف تقريره: عند كرامة ربهم، وعنده تقتضي غاية القرب فهي كالأداة ولذلك لم تصغر فيقال: عنيدة قاله سيبويه. فهذا عندية الكرامة لا عندية المسافة والقرب". انتهى تفسير القرطبي من تفسير القرطبي.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]: "يعني الملائكة بإجماع. وقال: عند ربك والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده. أعني الزجاج. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله.

وقيل: لأنهم رسل الله كما يقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم وإنهم بالمكان المقرب، فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة". انتهى من تفسير القرطبي. يعني هذا الذي ذكره القرطبي في تأويل العندية.

التعليق: قلت: هذا الذي ذكره القرطبي من التأويلات الباطلة الأشعرية المزعومة ليس عليها دليل من كتاب الله، ولا من سنة رسوله ﷺ.

وعندية الملائكة عند ربهم عندية فوقية، ومن لوازمها عندية القرب والمكان.

ولله در الإمام ابن القيم حيث ذكر في نونيته المسماة بـ(الكافية الشافية) هذا من أدلة الفوقية لله تعالى، قال:

هذا وعاشرها اختصاص البعض

من أملاكه بالعند للرحمن

يعني ابن القيم عنده (الكافية الشافية) وهي من أنفس المنظومات التي جمعت المعتقد، وجمعت يعني التوجيهات السلفية، وهي من أطول القصائد، فمن شاء وجدها وقد شرحت بشرحين خفيفين، يعني قليل مما يعني لكن فيهم الشرحين فائدة: ابن عيسى والشيخ الهراس رحمه الله.

الشاهد أن ابن القيم اعتبر هذا العندية من الأدلة على الفوقية لله تبارك وتعالى.

وكذا اختصاص كتاب رحمته	بعند الله فوق العرش ذو التبيان
لو لم يكن سبحانه فوق الورى	كانوا جميعًا عند ذي السلطان
ويكون عند الله إبليس وجبريل	هما في العند مستويان
وتمام ذاك القول أن محبة الر	حمن عين إرادة الأكوان
وكلاهما محبوبه ومراده	وكلاهما هو عنده سيان
إن قلتم عندية التكوين	فالذاتان عند الله مخلوقان
أو قلتم عندية التقريب	تقريب الحبيب وما هما عدلان

إلى أن ذكر قال شارحه الهراس رحمه الله: "هذا هو الدليل العاشر من أدلة علو ربي تعالي فوق خلقه، وهو اختصاص بعض المخلوقات بالعندية له سبحانه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما قضى الله الخلق كتب في كتاب وهو عنده فوق العرش: أن رحمتي سبقت غضبي)) يعني هذه كلها نصوص تثبت العندية لله تعالى. وفي لفظ عن أبي هريرة: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو عنده فوق العرش)) وفي لفظ أبي هريرة: ((لما خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو مرفوع فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي)).

فلو لم يكن جل وعلا فوق عرشه لما كان لتخصيص بعض الملائكة بالعندية معنى، ولكان إبليس وجبريل في العندية سواء، ونعوذ بالله من ذلك".

إذًا القصد هو أن هذه الصفة أيضًا أوَّلها القرطبي، وأولها من قبله ومن بعده من المفسرين الذين نهجوا منهاج الخلف، وكما سبق أن الأصل أن يبقى النص على ظاهره وعلى أصله، ولا يحرف ولا يؤول، ما لم يعني يكون هناك ما يدعو إلى التأويل من دليل، وليس هنا ما يدعو إلى التأويل، بل بالعكس.

فهذه النصوص كلها تثبت العلو لله تعالى وتثبت الفوقية التي هي من خصائصه تبارك وتعالى، فهو فوقنا وهو عال إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

الرد على الخلف في الصفات التي أولوها (٢)

عناصر الدرس

العنصـــــر الأول : الرد على القرطبي في الصفات التي أولها: صفة اليد، صفة الفوقية، صفة الكلام ٣٧٥
العنصـــــر الثاني : الرد على القرطبي في الصفات التي أولها: صفة الوجه، صفة الإتيان والمجيء ٣٨٥

الرد على القرطبي في الصفات التي أولها: صفة اليد، صفة الفوقية، صفة الكلام

١- صفة اليد:

قال القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ [المائدة: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾ [المائدة: ٦٤] قال عكرمة: إنما قال هذا فنحاص بن عازراء -لعنه الله- وأصحابه كان لهم أموال؛ فلما كفروا بمحمد ﷺ قل مالهم؛ فقالوا: إن الله بخيل ويد الله مقبوضة عنا في العطاء؛ فالآية خاصة في بعضهم، وقيل: لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون صاروا كأنهم بإجمعهم قالوا هذا.

التأويل: قال القرطبي رحمه الله: واليد في كلام العرب:

- تكون للجارحة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا ﴾ [ص: ٤٤] وهذا محال على الله تعالى.

- وتكون للنعمة كما تقول: العرب كم يد لي عند فلان؟ أي: كم من نعمة لي قد أسديتها له؟.

- وتكون القوة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ ﴾ [ص: ١٧] أي: ذا القوة.

- وتكون للملك والقدرة قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ ﴾ [آل عمران: ٧٣].

- وتكون بمعنى الصلة قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، أي: مما عملنا نحن، وقال ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي: الذي له عقدة النكاح.

- وتكون بمعنى التأييد والنصرة، ومنه قوله عليه السلام: ((يد الله مع القاضي حتى قضي والقاسم حتى يقسم)).

- وتكون لإضافة الفعل المخبر عنه تشريف له وتكريم؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فلا يجوز أن يحمل على الجارحة؛ لأن الباري -جل وتعالى- واحد لا يجوز عليه التبعيض، ولا على القوة والملك والنعمة والصلة؛ لأن الاستراك يقع حينئذ بين وليه آدم وعدوه إبليس، ويبطل ما ذكر من تفضيله عليه لبطلان معنى التخصيص؛ فلم يبقَ إلا أن تحمل على صفتين تعلقتا بخلق آدم تشريفًا له دون خلق إبليس تعلق القدرة بالمقدور، لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسة.

ومثله ما روي عنه -عز اسمه وتعالى علاه وجده- أنه كتب التوراة بيده وغرس دار الكرامة بيده لأهل الجنة وغير ذلك، تعلق الصفة بمقتضاها.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ابتداء وخبر، أي: بل نعمته مبسوطة؛ فاليد بمعنى النعمة، قال بعضهم: هذا غلط؛ لقوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ فنعم الله أكثر من أن تحصى؛ فكيف تكون: بل نعمتاه مبسوطتان.

وأجيب: بأنه يجوز أن يكون هذا تثنية جنس لا تثنية واحد مفرد؛ فيكون مثل قوله عليه السلام: ((مثل المنافق كالشاة العائرة بين غنمين))، فأحد الجنسين نعمة

الدنيا، والثاني نعمة الآخرة، وقيل: نعمتا الدنيا: النعمة الظاهرة، والنعمة الباطنة؛ كما قال: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]... إلخ.

الرد عليه:

قلت: لقد ذكر أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسيره أقوال المؤولين والمعطلين لصفة اليد في جميع مواردها في القرآن وإن كان ذكر في تفسير آية سورة "ص" قوله: "وقيل: التثنية في اليد في خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته".

هذه العبارة ذكرها أولًا بصيغة التمريض، ولم يشر أية إشارة إلى تأييد مذهب السلف في صفة اليد فيما نقله من الأقوال في تفسير الآيات الثلاث؛ ولا سيما في آية سورة الزمر ما يدل على أنه يؤيد مذهب المعطلة المؤولة، ومن قرأ الأقوال التي نقلها تبين له ذلك.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في الرد على هذا التأويل: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] قالت الجهمية: مجاز في النعمة أو القدرة، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أن الأصل الحقيقة؛ فدعوى المجاز مخالفة للأصل؛ لأن الذي يريد أن يخرج هنا الآية في القرآن عن أصلها: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] يحتاج إلى دليل، دليل الصرف إلى النعمة، وإلى القدرة، وإلى القوة.

الثاني: أن ذلك خلاف الظاهر؛ فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلان هذه الدعوى.

الثالث: أن مدعي المجاز المعين يلزمه أمور:

أحدها: إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة ؛ إذ مدعيها معه الأصل والظاهر، ومخالفها مخالفلهما جميعًا، يعني الأصل والحقيقة: هي اليد ؛ فلنقول: هي القدرة، أو نقول: هي النعمة، أو نقول: هي القوة... لا بد من دليل يصرفها على ذلك.

ثانيها: بيان احتمال اللفظ لما ذكره من المجاز لغة، وإلا كان منشئًا من عنده.

وثالثها: احتمال ذلك المعنى في هذا السياق المعين ؛ فليس كل ما احتمله النص من حيث الجملة يحتمله هذا السياق الخاص، وهذا موضع غلط فيه من شاء الله، ولم يبين، أو يميز، بين ما يحتمله اللفظ بأصل اللغة وإن لم يحتمله في هذا التركيب الخاص، وبين ما يحتمله فيه.

مثلًا اليد تطلق صحيحة للنعمة، وتطلق على القدرة، وتطلق على كذا... سياقات معينة لا تحتمل هذا الصرف لهذا المعنى الذي صرفت إليه الصفة لا يحتمله السياق.

رابعها: بيان القرائن الدالة على المجاز الذي عينه بأنه المراد ؛ إذ يستحيل أن يكون هذا هو المراد من غير قرينة قرينة في اللفظ تدل عليه ألبته، وإذا طولبوا بهذه الأمور الأربعة تبين عجزهم.

هذه القواعد التي أصلها الإمام ابن القيم في هذه الصفة بالخصوص وذكرها هي التي ينبغي أن يحفظها السلفي وأن يطرحها في كل صفة من الصفات أولت ؛ بل في كل تأويل من التأويلات، سواء في الصفات أو في أي باب من الأبواب.

ويجعله دائمًا ثابت في كل الصفات.

٢- صفة الفوقية:

قال عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨]: فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، أي: هم تحت تسخيره، لا فوقية مكان؛ كما تقول: السلطان فوق رعيته، أي: بالمنزلة والرفعة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة: وهو منع غيره عن بلوغ المراد.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام: ٦١]: يعني: فوقية المكان والرتبة، لا فوقية المكان والجهة.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾: أي عقاب ربهم وعذابه؛ لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء، وقيل: يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف إلى آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

التعليق:

هذا الذي ذكره أبو عبد الله القرطبي في تأويل صفة الفوقية هو قول المؤولة الذين ينفون عن الله العلو الذي أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله -كما سبق في صفة العندية.

هنا لا بد أن نطبق على الكلام الأصول التي قالها ابن القيم في الرد على المؤولة؛ إذ ما هو الدليل على فوقية المكانة؟ وما هو الدليل على أن المكانة حقيقة هي المقصودة في هذا اللفظ؟ ثانيًا: ما هي القرائن التي احتفت بالكلمة حتى تصبح كما يقولون؟.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "مما ادعى المعطلة مجازه: الفوقية، وقد ورد به القرآن مطلقًا بدون حرف ومقترن بحرف؛ فالأول كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] في موضعه، والثاني كقوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]، وحقيقة الفوقية: علو ذات الشيء على غيره؛ فادعى الجهمي أنها مجاز في فوقية الرتبة والقهر -هذا هو كلام القرطبي، رحمه الله- كما يقال: الذهب فوق الفضة، والأمير فوق نائبه.

هذا؛ وإن كان ثابتًا للرب تعالى؛ لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز باطل من وجوه عديدة -يعني: فوقية الرتبة وفوقية المكان-:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز على خلاف الأصل -كما سبق.

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن هذا الاستعمال المجازي لا بد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته؛ فأين القرينة في فوقية الرب تعالى؟!

الرابع: أن القائل إذا قال: الذهب فوق الفضة؛ فقد أحال المخاطب على ما يفهمه من هذا السياق المعتاد بأمرين: عند تساويهما في المكان، وتفاوتهما في المكانة؛ فانصرف الخطاب إلى ما يعرفه السامع ولا يلتبس عليه؛ فهل لأحد من أهل الإسلام وغيرهم عهد بمثل ذلك في فوقية ربي تعالى حتى ينصرف منهم السامع إليها؟!.

الخامس: أن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة على خلاف ذلك، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته؛ فالخطاببفوقيته ينصرف إلى ما

استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية، يعني: هذا هو الأصل: الخطاب إذا أطلق ينصرف إلى الفوقية الحقيقية.

السادس: أن هذا المجاز له صرح به في حق الله كان قبيحًا؛ فإن ذلك إنما يقال في في المتقاربيْن في المنزلة وأحدهما أفضل من الآخر؛ وأما إذا لم يتقاربا بوجه؛ فإنه لا يصح فيهما ذلك، وإذا كان يقبح كل القبح أن تقول: الجوهر فوق قشر البصل، وإذا قلت ذلك ضحكتْ منك العقلاء؛ للتفاوت العظيم الذي بينهما؛ فالتفاوت بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم، وفي مثل هذا قيل شعرًا:

ألم ترَ أن السيف ينقص قدره ❖ إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

إذًا المقارنة أصلًا غير واردة.

السابع: أن الرب سبحانه لم يتمدح في الكتاب ولا على لسان رسوله بأنه أفضل من العرش وأن رتبته فوق رتبة العرش وأنه خير من السموات والعرش والكرسي؛ وحيث ورد ذلك في الكتاب؛ فإنما هو في سياق الرد على من عبد معه غيره وأشرك في ألوهيته؛ فبين سبحانه أنه خير من تلك الآلهة؛ كقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقول السحرة: ﴿خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

ولكن أين في القرآن مدحه نفسه وثناؤه على نفسه بأنه أفضل من السموات والعرش والكرسي ابتداء؟! ولا يصح إلحاق هذا بذلك؛ إذ يحسن في الاحتجاج على المنكر وإلزامه من الخطاب الداحض لحجته ما لا يحسن في سياق غيره ولا ينكر هذا إلا غبي.

الثامن: أن المجاز، وإن احتمل في قوله: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ لأنه قد علم أنهم جميعًا مستقرون على الأرض؛ فهي فوقية قهر وغلبة لم يلزم مثله في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨]؛ إذ قد علم بالضرورة أنه وعباده ليسو مستويين في مكان واحد، حتى تكون فوقية قهر وغلبة.

التاسع: هب أن هذا يحتمل في مثل قوله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] لدلالة السياق والقرائن المقترنة باللفظ على فوقية الرتبة؛ لكن هذا إنما يأتي مجردًا عن "مِن" ولا يستعمل مقرونًا بـ"مِن"؛ فلا يعرف في اللغة ألبتة أن يقال: الذهب من فوقه الفضة، ولا العالم من فوق الجاهل، وقد جاءت فوقية الرب مقرونة بـ"مِن"؛ كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]؛ فهذا صريح في فوقية الذات، ولا يصح حمله على فوقية الرتبة لعدم استعمال أهل اللغة له".

ثم قال رحمه الله: "أنه لو كانت فوقيته سبحانه مجازًا لا حقيقة لها، لم يتصرف في أنواعها وأقسامها ولوازمها ولم يتوسع فيها غاية التوسع؛ فإن فوقية الرتبة والفضيلة لا يتصرف في تنويعها إلا بما شاكل معناها، نحو قولنا: هذا خير من هذا وأفضل وأجل وأعلى قيمة... ونحو ذلك؛ وأما فوقية الذات؛ فإنها تتنوع بحسب معناها؛ فيقال فيها: استوى، وعلا، وارتفع، وصعد، ويعرج إليه كذا، ويصعد إليه، وينزل من عنده، وهو عالٍ على كذا، ورفيع الدرجات، وترفع إليه الأيدي، ويجلس على كرسيه، وأنه يطلع على عباده من فوق سبع سموات، وأن عباده يخافونه من فوقهم، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأنه يبرم القضاء من فوق عرشه، وأنه دنا من رسوله..."، إلى آخر ما ذكره الإمام ابن القيم في الرد في هذه الصفة.

٣- صفة الكلام:

قال القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]: "واختلف الناس بماذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع من قبل ذلك خطابه؟ فمنهم من قال: إنه سمع كلامًا ليس بحروف وأصوات، وليس فيه تقطيع ولا نفس؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر؛ وإنما هو كلام رب العالمين".

هذه كلها تكلفات لا نقل عليها ولا دليل؛ فهذه أمور غيبية لم يحضرها الإنسان ولا حدث عنها؛ فيكل أمرها إلى الله، كيفية ذلك نحتاج فيها إلى نص وإلى تفصيل من الله ومن رسول الله.

"وقال آخرون: إنه لما سمع كلامًا لا من جهة وكلام البشر يسمع من جهة من الجهات الست؛ علم أنه ليس من كلام البشر، وقال: إنه صار جسده كله مَسامع؛ حتى سمع بها ذلك الكلام؛ فعلم أنه كلام الله، وقيل فيه: إن المعجزة دلت على أن ما سمعه هو كلام الله؛ وذلك أنه قيل له: ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [القصص: ٣١]؛ فألقاها فصارت ثعبانًا؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذي يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ [طه: ١٢] هو الله عز وجل وقيل: إنه كان أضمر في نفسه شيئًا لا يقف عليه إلا علام الغيوب؛ فأخبره الله تعالى في خطابه بذلك الضمير؛ فعلم أن الذي يخاطبه هو الله -عز وجل".

هذا كله من التكلف الذي يلجأ إليه بعض الناس بدون حاجة إليه ولا سؤال، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]: نُهينا عن التكلف في كل شيء.

وقال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]: دليل على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ، قاله الشيخ أبو الحسن،

والقاضي أبو بكر، وأبو العباس القلانسي، وابن مجاهد، وأبو إسحاق الإسفراييني، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]؛ فنص على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه، ويدل عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب وسورة قالوا: سمعنا كلام الله، وفرقوا بين أن يقرأ كلام الله وبين أن يقرأ شعر امرئ القيس، وقد مضى في سورة البقرة معنى: كلام الله تعالى، وأنه ليس بحرف ولا صوت -والحمد لله.

يعني: سمع كلام الله بدون حرف ولا صوت... كل هذا من زيادة المؤولة.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [القصص: ٣٠]: "قال المهدوي: وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه، وأسمعه كلامه من الشجرة -على ما يشاء- ولا يجوز أن يوصف بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفة المخلوقين، قال أبو المعالي: وأهل المعاني وأهل الحق يقولون: من كلمه الله تعالى خصه بالرتبة العليا والغاية القصوى؛ فيدرك كلام القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارة والنغمات وضروب اللغات...".

كل هذا من التكلفات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

استرسل أبو عبد الله القرطبي في هذا الكلام ونقلت كلامه في (الأسنى) أيضًا، وحاصله: أنهم يقولون: أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، وهو كلام واحد، يقصدون أن أن الله تعالى ما تكلم؛ ولكن كلامه كلام نفسي... وعلى هذا على هذا المنوال.

الرد على القرطبي في الصفات التي أولها: صفة الوجه، صفة الإتيان والمجيء

١- صفة الوجه:

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] اختلف الناس في تأويلِ الوجهِ المضافِ إلى الله تعالى في القرآن والسنة. فقال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، يعني: وجهه بمعنى وجوده، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد، وأجَلُّهَا قدْرًا.

قال ابن فورك: قد تُذكر الصفة الشيء والمراد بها الموصوف توسعًا، كما يقول القائل: رأيت علم فلان اليوم، ونظرت إلى علمه، إنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم، كذلك إذا ذكر الوجه هنا، والمراد من له الوجه، أي: الوجود، وعلى هذا يتؤل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩] أي: أن المراد به لله الذي هو الوجه، وكذلك قوله: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠] أي: الذي له الوجه.

واستمر أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر هذه التأويلات في كتابه التفسير، ومن كتابه (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) لأني نقلت من هناك، ومن هنا من التفسير، ومن (الأسنى) في تأويلات أبي عبد الله القرطبي حتى تجمع عقيدته في التأويل.

التعليق، أي: الرد على صفة الوجه: لقد ذكر القرطبي في تفسيره في مواضع موارد صفة الوجه، وفي كتاب (الأسنى) أقوال المؤولين لهذه الصفة، وذكر

الوجودَ والجهةَ والقصد والرضا والثواب وذكر أنه صلة. وذكر: أنه صفةٌ ثابتةٌ بالسمعِ، زائدةٌ على ما توجِبُهُ العقول، ونقل تضعيفَ أبي المعالي، وموافقة ابن عطية على هذا التضعيف، وهذه الأقوال كلها ما عدا القول الأخير الذي ضعفه مخالفة لعقيدة السلف الصالح.

المهم: الآن نبدأ بالرد من كتاب (الصواعق) قال ابن القيم رحمه الله: وجه الرب جل جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة؛ فليس بمجاز، بل هو على حقيقتِهِ، واختلف المعطِّلُون في جهةِ التجوُّزِ في هذا، فقالت الطائفة: لفظ وجهِهِ زائد، والتقدير: إلا ابتغاء ربه الأعلى يريدون ربهم، كل هذه صلة يجب معنى كلمة زائدة، وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه، بمعنى الذات، هذا قول أولئك، وإن اختلفوا في التعبير عنه، وقالت فرقة: ثوابُهُ وجزاؤه؛ فجعله هؤلاء مخلوقًا منفصلًا قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب، وهذه الأقوال -نعوذ بوجهه العظيم من أن يجعلنا من أهلها- هذا كلام الإمام ابن القيم رحمه الله.

قال ابن القيم رحمه الله: والقول: بأن لفظ الوجه مجاز باطل من وجوه:

أحدها: أن المجاز لا يمتنع نفيه؛ فعلى هذا لا يمتنع أن يقال ليس لله وجه، ولا حقيقة لوجهِهِ، وهذا تكذيبٌ صريحٌ لِمَا أخبر بِهِ عن نفسِهِ، وأخبر به عنه رسوله ﷺ سبق في الحديث على المجاز: أن كل مجاز يجوز نفيه، وهذا مما جعل الشيخ الأمين رحمه الله يرجح: أن المجاز لا يجوز في القرآن، ولا حتى في اللغة؛ لأنه إذا يجوز نفي ما ورد في القرآن صار تكذيبًا لله رأيت أسدًا يرمي في الميدان تستطيع أن تجعله رأيت رجلًا تنفي كلمة الأسد؛ فالشاهد أن كل مجاز يجوز نفيه؛ فهذا تكذيب لله وللرسول.

الثاني: خروجٌ عن الأصل، والظاهر: بلا مجيب؛ إن دائمًا الأصل هو الأصل، الإنسان لَّما يلقي خطابًا فيفْهُمُ من خطابه الأصل في الكلمة، ولا يفهم غير الأصل الله -تبارك وتعالى- إذا ذكر في القرآن ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] هذا هو الأصل، وهو الصفة، وليس الأصل هو الذات أبدًا.

الثالث: أن ذلك يستلْزِمَ كون حياتِهِ، وسمعهِ وبصرِهِ وقدرتهِ وكلامِهِ وإرادتهِ، وسائرِ صفاته مجازًا لا حقيقة -كما تقدم- تقريره إلا إذا سلطنا التأويل على صفة الوجه بهذا التعبير، ينسحب على كل الصفات، ولا يبقى لله صفة يبقى معطل عن الصفة، وهذا هو الإلحاد في اسم الله وصفته كل هذا شغب لا معنى له، إن هذه أمور واضحة غايةُ الوضوح، الخطاب واضح، والقرآن واضح، والسنة واضحة والكلام واضح.

ونحن الآن نردُّ أمورًا ما أنزل الله بها من سلطان، المفروض أن تكون عند العقلاء، وعند أهل اللغة، وعند أهل الفطرة واضحة فهؤلاء العلماء مع الأسف ضيعوا أوقات وحياة وحرفوا وبدلوا في ما لا يجوز لهم أن يفعلوا.

الرابع: أن دواعي المعطل أن الوجه صلة كذبٌ على الله وعلى رسوله، وعلى اللغة؛ فإن هذا الكلمة ليست مما عُهِدَ زيادته، صلة بمعنى زائد، وهذا مما لا يعرف في اللغة، ولا في العرف، ولا في أي شيء.

الخامس: أنه لو ساغ ذلك لساغ لمعطلٍ آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التفسير أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادةَ في سمعِهِ وبصره وغير ذلك كما سبق؛ لأنه لَو فُتِحَ هذا الباب؛ لأصبحت أسماؤه وصفاتُهُ كل من لم يوافق في مزاجه وفي منهاجه لادعى أنه زائد، ويصبح القرآن منخرف في أسمائه وصفاته؛ لأنها كلها زائدة والعياذ بالله.

السادس: أن هذا يتضمن إلغاءَ وجهِهِ الكريم لفظًا ومعنى، وأن لفظه زائد منتفي، يعني كلها هذه الوجوه يفسر بعضها بعضًا.

السابع: ما ذكره الخطابي والبيهقي وغيرهما، قالوا: لَمَّا أضاف الوجه إلى الذات، وأضاف النعت إلى الوجه فقال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] إذًا كلمة "ذو" صفة للوجه، إذا بنى الإعراب ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾، لو قال كما يقولون: إنه بمعنى الذات لقال: "ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام" فيكون، صفة لكلمة الرب، هنا واضح، لكن الصفة للوجه وليس للذات، ولما كان في آخر السورة، قال: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨].

معنى الوصف للذات لربك، فإذًا سياق الخطاب، وسياق الآية يخالف هذا الفهم المنحرف.

الثامن: أنه لا يُعْرف في لغة الأمم وجهُ الشيء بمعنى ذاته ونفسه، وغاية ما شبه به المعطل وجه ربه أن قال: هو كقوله: وجه الحائط، ووجه الثوب، ووجه النهار، ووجه الأمر، فيقال لهذا المعطل المشبه: ليس الوجه في ذلك بمعنى الذات، بل هذا مبطل لقولك.

فإن وجه الحائط أحد جانبيه فهو مقابل لدبره، ومثل هذا وجه الكعبة ودبرها، فهو وجه حقيقة، ولكنه بحسب المضاف إليه، فلما كان المضاف إليه بناءً كان وجهُهُ من جنسه، وكذلك وجهُ الثوب أحد جانبيه، وهو من جنسه، وكذلك وجه النهار أوله، ولا يقال لجميع النهار.

وقال ابن عباس: وجه النهار أوله، ومنه قولهم: صدر النهار، قال ابن الأعرابي: أتيته بوجهِ نهارٍ، وصدر نهار، والوجه في اللغة: مستقبل كل شيء؛ لأنه أولُ ما يواجه منه. ووجه الرأي والأمر: ما يظهر أنه صوابه، وهو في كل

محل بحسب ما يضاف إليه ؛ فإن أضيف إلى زمانٍ كان الوجه زمانًا، وإن أضيف إلى حيوان كان بحسبه، وإن أضيف إلى ثوبٍ أو حائطٍ كان بحسبه، وإن أضيف إلى من ليس كمثله شيء كان وجهه تعالى كذلك.

٢- صفة الإتيان والمجيء:

قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قال: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ يعني تاركين الدخول في السلم، وهل يراد به هنا جحدِ أي: ينتظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ناظرته، وانتظرته، بمعنى: والنظر والانتظار، قرأ قتادة إلى أن قال: هذه كلها كلام لغوي.

وقال الفراء: وفي قراءة عبد الله: "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام"، قال قتادة الملائكة، يعني تأتيهم قبل قبض أرواحهم ويقال يوم القيامة، وهو الأظهر، قال أبو العالية والربيع: تأتيهم الملائكة في ظللٍ من الغمامِ، ويأتيهم الله، فيما شاء صحيح.

وقال الزجاج: التقدير في ظلل من الغمام، ومن الملائكة، وقيل: ليس الكلام على ظاهره في حقه سبحانه، وإنما معناه يأتيهم أمر الله، وحكمه هذا هو التأويل، وقيل: أي بما وعدهم من الحساب، والعذاب في ظُلل مثل: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ ﴾ [الحشر: ٢] أي: بخذلانِهِ إياهم، هذا قول الزجاج.

وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعًا إلى الجزاء فسمي الجزاء بالإتيان ؛ لأن كما سمي التخويف والتعذيب في قصة النمروذ إتيانًا فقال: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ [النحل: ٢٦] وقال عند

قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٣] معناه إلى آخره: أو يأتي ربك قال ابن عباس، والضحاك: أمر ربك فيهم بالقتل، أو غيره، هذا لا يصح عن ابن عباس -كما سبق.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر: ٢٢] أي: أمره وقضاؤه، قاله الحسن، وهذا لا يصح عن الحسن، وهو من باب حذف المضاف، وقيل: أي جاء أمر ربك بالآيات العظيمة، واستمر في ذكر هذا التأويل.

ما ذكره القرطبي من أقوال في تفسير صفة الإتيان والمجيء في جميع مواردها يدل على تغلغله في التأويل وما ذكره عن ابن عباس والحسن أمر مشكوك فيه، بل لو قطع الإنسان ببطلانه كان محقًّا، فهذا ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهما ممن اعتنى بنقل تفاسير الصحابة، ومن بعدهم لم ينقلوا في ذلك حرفًا، يعني التفاسير التي اعتنت بنقل أقوال السلف -رحمهم الله- لم يذكروا هذه الأقوال التي نسبها القرطبي إلى ابن عباس وإلى الحسن.

ومصدر هذه الأقوال، ومثلها هو (تفسير الثعلبي) الذي كان أكبر عمدة المتأخرين في نقل مثل هذه الأقوالِ الباطلةِ المخالفة لمذهب السلف الصالح، وهذا الإمام ابن القيم، إمام الحفاظ والمتبعينَ لأثرِ السلفِ الصالحِ؛ ولاسيما في مثلِ هذه الأمور لم ينقل في ذلك حرفًا، وقد نقل عمن هو أدنى من ابن عباس والحسن، وينقل دائمًا أقوال المخالفين، ويرد عليهم وهذه الصفة ذكرها في (الصواعق) ولم يذكر حرفًا عن ابن عباس، ولا عن الحسن، وغيرهم ممن لو ذكرناهم لطال المقال.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية إمام التحقيق والتوحيد، قد أنظر المخالفين له مدةً طويلةً في أن يأتوا بأثرٍ عن صحابيٍّ أو تابعيٍّ، أو ممن ينتمي إلى السلف الصالح؛

فلم يأتوا له بحرفٍ واحد إلا لما ذكروا له آثار مجاهد في قضية القبلة "فثم وجه الله" قال: هذا ذكره الباقي، وذكر لهم، وطرقه، وأسانيده سبقهم إلى ذلك.

أما الثعلبي وأمثاله ممن يجمعون أقوالًا لا سندَ لها ولا خطام؛ فلا ينبغي التعويل عليهم، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في الثعلبي: هو في نفسه كان فيه خيرٌ ودينٌ وكان حاطبَ ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيحٍ وضعيفٍ وموضوع.

وقال في مثله شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذه الكتب التي يسميها كثيرٌ من الناس كتب تفسير فيها كثير من تفسيرات منقولات عن السلف مكذوبةً عليهم، وقول على الله ورسوله بالرأي المجرد بل بمجرد شبهة قياسية، أو شبهة أدبية، انتهى.

فالذي ينبغي أن يُقَرَّرَ في صفة الإتيان والمجيء هو مذهب السلف الصالح، إتيانًا ومجيئًا يليق بجلاله وعظمته منذ أن جمع التشبيه الذي يخطر في عقول المعطلة، الذين ذكر أقوالهم أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الشيخ الهراس في (شرحه للعقيدة الواسطية) في هذه الصفة لما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الآيات والأحاديث في هذا الباب، قال: ففي هذه الآيات إثباتُ صفتين من صفات الفعل له سبحانه، وهما صفتا الإتيان والمجيء، والذي عليه أهل السنة والجماعة: الإيمان بذلك على حقيقتِهِ، والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل.

إذًا هذا النقل عن الشيخ الهراس مناسبٌ وموافقٌ لِمَا عليه أئمة السلف في تأصيل الإثبات في صفة الإتيان والمجيء، وغيرها من الصفات على أن الآيات صريحة في بابها لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات؛ فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المُصِّرِّينَ على كفرِهِم وعنادهم، واتباعهم للشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله عَزَّ وَجَلَّ في

ظلل من الغمام؛ لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾.

والآية الثانية أشد صراحة؛ إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيهما بأنه إتيان الأمر، أو العذاب؛ لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب، وإتيان بعض آيات ربي سبحانه، يعني هذا التنويع وهذا التقسيم في الآية مما يرفع كل هذه الأوهام، وهذه التخرصات التي وقعت في ثاني المؤولين بتأويلِهِ بأمرها وبملائكته، وبعذابه، وبانتقامه وبغير ذلك، كل هذا لا يمكن أن يفهم من هذا التقسيم، وهذا التنويع الذي المذكور في الآية.

وقوله في الآية التي بعدها: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] لا يمكن حمْلُهَا على مجيء العذاب؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء، والملائكة صفوفٌ إجلالًا وتعظيمًا له، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام، كما أفادت الآية الأخيرة، وهو سبحانه يجيء، ويأتي، وينزل ويدنو، وهو فوق عرشه بائن من خلقه؛ فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة.

ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله، واعتقاد أن ذلك المجيء للإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم، نزوعٌ التشبيه الذي يفضي إلى الإنكار والتعطيل.

إذًا هذا الشرح لهذه الصفة من الذين شرحوا (العقيدة الواسطية) -رحمهم الله، وجزاهم خيرا- يؤكدون هذه الصفة، ويردون على كل مؤول، وكل معطلٍ مما سمعنا.

وكذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرها في (الصواعق) وأطال الحديث عنها؛ فلا بأس أن ننقل بعض كلامه لأهميته قال ابن القيم: قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢]

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونظائره قيل هو من مجاز الحذف، تقديره وجاء أمر ربك، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه إضمارُ ما لا يدل اللفظ عليه بمطابقة، ولا تضمن، ولا لزوم، وادعاء حذف ما لا دليل عليه، يرجع الوثوق من الخطاب، ويطرق كل مبطل على ادعاءِ إضمار ما يصحح باطله، يعني: يجرئهم، ويجعلهم يقدمون على كل ما يريدون، أي: نص لا بد أن يقولوا فيه مجاز بالحذف، أو مجاز بالتقدير.

الثاني: أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تامٌّ، قائمُ المعنى بدون إضمار، فإضماره مجرد خلاف الأصل فلا يجوز، إذا الكلام مستقيم وصحيح والإضمار طارئ.

الثالث: أنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولًا على المتكلم بلا علم، وإخبارًا عنه بإرادةِ ما لم يقم به دليل على إرادته، وذلك كذب عليه، إذًا لا بد من إقامة الدليل على هذا المحذوف الذي ادعي في آية ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي: أمر الله، كل هذا نقول: لا بد من دليل يُوجِبُ على الحذف المُدَّعَى، وليس هناك مدع وإلا كان في ذلك كذب على الله وعلى رسوله.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير، وهو قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر: ٢٢] فعطفُ مجيءِ المَلَكِ على مجيئه سبحانه يدل على تغاير مجيئين، وأن مجيئه سبحانه هو حقيقة، كما أن مجيء المَلَكِ حقيقة، بل مجيء الرب سبحانه أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

وكذلك قوله: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فَفَرَّقَ بين إتيان الملائكة، وإتيان الرب، وإتيان بعض

آيات، فقسم ونوع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحدًا؛ فتأملوا؛ ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه، وقالوا: هذا يأباه التقسيم، والترديد والاطراد كما سبق.

إذًا تقسيم الآية معناه: أنه يدل على أن كل صفة تحمل على حقيقتها، فإتيان الرب على حقيقته، وإتيان الملائكة على حقيقته وإتيان بعض آيات ربك على حقيقته، يعني: الثلاثة كلها على حقيقتها، وباقي الآيات كلها في هذا الأمر.

إذًا إذا تابعنا كلام الشيخ ابن القيم رحمه الله وقد أَسْهَبَ في الرد على هذا التأويل؛ نجد أصفر الصبح، بمعنى: اتضحت الأمور، وأن هذه التأويلات لا أصل لها، لا لغة، ولا شرع، ولا فطرة، ولا أصل، ولا أي شيء.

هذا، وبالله التوفيق.

النوع الرابع: المحاكم الجزئية: وتتكون من قاضٍ أو أكثر، ويكون تأليفها وتعيين مقرها وتحديد اختصاصها بقرار من وزير العدل.

قائمة المراجع العامة

١. **المجلد الثالث والخامس من مجموع الفتاوى**

ابن تيمية، جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن قاسم. طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ.

٢. **شرح العقيدة الطحاوية**

ابن أبي العز الحنفي، تحقيق د/ عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ.

٣. **معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى**

محمد بن خليفة التميمي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ١٤١٩هـ.

٤. **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. دار العاصمة، الرياض، ١٩٩٨م.

٥. **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

٦. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**

هبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق/ أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، ١٩٨٢م.

٧. **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل**

محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: عبد العزيز الشهوان، دار الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٧م.

٨. **مختصر العلو للعلي الغفار**

محمد بن أحمد بن عثمان الحافظ الذهبي، اختصره وحققه: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، ١٩٨٠م.

٩. **القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**

محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٠. **القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف**

إبراهيم البريكان، دار ابن القيم، الدمام، ٢٠٠٤م

١١. **الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة**

عمر سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٢م.

١٢. **مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات "عرض ونقد"**

أحمد عبد الرحمن القاضي، دار العاصمة، الرياض، ١٩٩٥م.

١٣. **حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين**

عبد الرحيم السلمي، دار المعلمة للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٠م.

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2010